حنفى المحلاوى

الأربعة الكبار في الأغنية والألحان

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع


تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

حنفى المحلاوى



الأربعة الكبار

فى الأغنية والألحان

- محمد عبد الوهاب
- أم كلثوم
- فريد الأطرش
- عبد الحليم حافظ



اسم الكتاب	الأربعة الكبار فى الأغنية والألحان
اسم المؤلف	حنفى المحلاوى .
إشراف عام	داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر	فبراير ٢٠٠٠
رقم الإيداع	٣٤٢٥ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى	I . S . B . N 977 - 14 - 1234 - 5
الناشر	نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسى	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط). فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع	١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة. ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ ص.ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة . ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ ص.ب: ٢٠ إمبابة .



بدلاً من الإهداء

ذهبت أم كلثوم بأدائها المعجز ، وفريد بلون صوته الفريد . . وعبدالحليم بتأديته الحساسة وشخصيته الذكية . . فماذا بعد ذلك ؟!

الموسيقار
محمد عبد الوهاب

●●●

لقد رأينا أن تكون كلمات الموسيقار العظيم محمد عبدالوهاب إهداء لكل من يقرأ هذا الكتاب . . بلا تعليق من جانبنا .

حنفى المحلاوى



تليجرام : هنا سور الازبكية
أكبر مكتبة رقمية

المقدمة

بعد دراسة وافية لمعظم ما كتبه الآخرون عن أشهر أربعة فنانين ظهروا فى دنيا الغناء والطرب والموسيقى خلال القرن العشرين ، وما لاحظناه من قصور فى التناول وفى الموضوع ، رأينا من الضرورى أن يكون الموضوع الرئيسى لكتابنا الجديد هو إلقاء الأضواء المبهرة على مجموعة من الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية التى ارتبطت بحياة الأربعة : أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ ، وهى تمثل فى الوقت نفسه جزءاً مهمًا من تاريخ مصر الحديث . والسبب فى ذلك يرجع فى المقام الأول للفترة الزمنية الكبيرة التى عاشها كل منهم . . مما مكنهم من الوقوف على ظروف وأحداث بعينها ، كان لها أكبر الأثر فى تدوين ذلك التاريخ ودفعه إلى الأمام .

كما اكتشفنا أن معظم الكتب التى صدرت عن هؤلاء الأربعة إنما اتسمت بالموسمية . بمعنى أنها كتب لم تكن تصدر إلا فى مناسبات موسمية بعينها مثل مناسبات الرحيل أو الميلاد ! كما أن تلك النوعية من الكتب كانت تركز فقط فى حديثها على جانب واحد من جوانب حياة هؤلاء ، وغالبًا ما يكون الأمر الغالب فى ذلك هو حديث الحب والغرام فى حياتهم !

ليس هذا فقط . . بل واكتشفنا كذلك أنه لا يوجد كتاب واحد شمل بالحديث المفصل هؤلاء أو غيرهم ، وذلك بالمعنى المطلوب ، مثلما هو حاصل فى المجال الأدبى الذى اتسع كثيراً لمثل هذه النوعية الجيدة من الكتب التى تتناول بالنقد والتحليل أعمال عشرات الأدباء . . بالاضافة إلى إلقاء الأضواء المبهرة على جوانب كثيرة من حياتهم .

كما أن الذى كُتب أويكتب عن واحد من هؤلاء إنما كثيرا مايبتعدو بشكل غريب عن الواقعية ويميل إلى الأسلوب التجارى الذى لا هدف من ورائه سوى جنى الأرباح !

أما بالنسبة للحديث عن الخط الرئيسى الذى سوف نسير فوقه وفى هداه عبر هذه الأوراق . . فهو يقوم فى الأساس على بيان ملامح ذلك العصر الذين عاشوا

فيه لأكثر من ٥٠ عامًا . . تلك الملامح التى لم تبتعد كثيرًا عما واجهوه منذ نشأتهم وحتى تألقهم واشتهارهم ودخولهم مجال النجومية . ! وذلك من خلال سرد دقيق لتاريخ حياتهم والظروف الاجتماعية المعقدة التى عاصروها ، وتفاصيل مشوار حياتهم الفنية منذ دخولهم ولأول مرة إلى شارع الفن وحتى خروجهم منه محمولين على الأكتاف فى طريقهم إلى العالم الآخر .

ولسوف تواجهنا مفارقات عجيبة ، يكون مصدرها الأول هو محاولة الجمع بين تفاصيل حياة هؤلاء الأربعة . . هذه المفارقات سوف توضح لنا كيف استطاعوا دون غيرهم أن يتشبتوا بمواهبهم ويتحصنوا بها ضد نظرة المجتمع المتخلفة التى كانت لا تعترف حتى بشهادة الفنان أمام المحاكم .

كما تمكنوا بما كانوا يشعرون به من تميز وقدرة على الإتقان من فرض سلطان فن الأغنية والألحان على كل طبقات المجتمع . حتى بلغ أصحاب ذلك الفن المرتبة العليا داخل المجتمع نفسه ، وجلسوا جنباً إلى جنب مع الأمراء والملوك .

إنها بلا شك رحلة - رغم ما بها من ملامح توحى بضرورة التحلى بالصبر - على تبنى عمل حاولنا فيه الجمع بين أربعة من عمالقة الفن العربى ، فى مجال الأغنية والألحان . . من خلال عشرة فصول ، بدأناها بالحديث عن النشأة والميلاد وأنهيناها بحديث الوداع والرحيل .

حنفى المحلاوى
حدائق القبة - القاهرة
إبريل عام ١٩٩٩

تمهيد

هؤلاء الأربعة من دون غيرهم لماذا؟!

بالعودة إلى بعض أحداث تاريخ مصر الفنى والسياسى ، منذ مطلع هذا القرن وحتى الآن . . وجدنا أن هناك العشرات من أهل الفن من الذين ساهموا فى كتابة وقائع هذه الأحداث . . وكانوا فى طليعة من شارك فى صنع العديد من المتغيرات التى هزت كيان هذا المجتمع هزًا . . وقد تجلى ذلك فيما كانوا يقدمونه من أعمال فنية قد اقتربت كثيرا من حافة السياسة ، وتنوعت فى مجالات عديدة . . كان على رأسها فنون الأغنية والموسيقى والسينما والمسرح والفنون التشكيلية .

هؤلاء الفنانين لم نجد من بينهم فناناً واحدًا أو أكثر قد اشترك فى صفات متشابة أو مختلفة ، سوى أربعة فقط ، وكانوا فى الوقت نفسه فى طليعة كل هؤلاء ، إذ كانوا يمثلون أربعة قمم فنية أضاءت حياتنا على مدى أكثر من نصف قرن . والأربعة الذين نعنيهم وتنطبق عليهم هذه الخصوصية هم بالترتيب وحسب توقيت ظهورهم داخل شارع الفن ، وكذلك حسب مكانتهم الاجتماعية : أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ . هذا الترتيب الذى ارتضيناه قد يثير فى نفس البعض من المتشيعين لفنان دون آخر . . بعض الاعتراضات . . وهذا شىء مقبول ومتوقع ! .

ولا شك أن هذا التشابه وكذلك ما كان بينهم من اختلافات ، إلى جانب عوامل أخرى كثيرة ومتنوعة ، كان من الأسباب التى دفعتنا لاختيارهم دون غيرهم لكى يكونوا ضيوفاً فوق هذه الأوراق ! .

ولا شك أيضا . . أن الوقوف بالتفصيل على هذه الأسباب ، سوف يؤكد فى نفوس غيرنا قيمة تلك الدوافع التى تبلورت فى الذهن وبالتالى فرضت علينا هذا الاختيار . وقد تكون فى الوقت نفسه عاملاً مشجعًا لغيرنا لكى يقتربوا من مجال الفن أكثر لاستخراج ما فيه من أحداث ساهمت فى تحريك هذا التاريخ إلى الأمام .

ولعل فى مقدمة هذه الأسباب هو توقيت ظهور هؤلاء الأربعة خاصة بالنسبة لأم كلثوم وعبد الوهاب اللذان ظهرا فى توقيت واحد تقريبا ثم لحق بهما كل من فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ الذى عايش هو الآخر العديد من الأحداث التى عاصرها الثلاثة الباقون من زملائه . هذه الفترة الزمنية المعنية بدأت مع أوائل هذا القرن ، ثم امتدت حتى السبعينيات منه ، وذلك مع وجود فارق زمنى لم يؤثر كثيرًا على اختلاف تحركاتهم الفنية داخل شارع الفن . فأم كلثوم على سبيل المثال ، بدأت أولى مشوارها الفنى فى عام ١٩١٥ . عندما كانت تغنى فى القرى والنجوع حتى قيل أنها مسحت بقدميها كل محافظات الدلتا والوجه البحرى سواء بالقطار - أو بالحمار - أو بدونهما معاً ! ثم تأكد دورها الفنى إلى حد التألق مع طلع عام ١٩٢٠ . ثم اذدادت تألقاً وشهرة مع استقرارها بمدينة القاهرة فى عام ١٩٢٥ .

وكذلك كان محمد عبد الوهاب الذى بدأ خطواته الأولى داخل شارع الفن فى نفس التوقيت على وجه التقريب ، مع اختلاف المكان الذى ولد به كل منهما . . ثم جمعته الظروف بأم كلثوم مع مطلع عام ١٩٢٦ حين إذداد نجمها فى التألق ، وأخذ يسمع عن صيتها الفنى هنا وهناك !

ومما لفت الأنظار فى مسيرة هذين العملاقين وتشابههما فى التوقيت . حرص كل منهما على تسجيل تلك البدايات المتواضعة فى الأوراق الخاصة ، وبيان المصاعب والعقبات التى واجهتهما أنذاك . . وكيفية نجاحهما فى الصمود فى وجه تلك العقبات حتى النهاية .

ثم نجد كذلك أن فنانا ثالثا على درب هؤلاء الكبار وهو فريد الأطرش . . قد ظهر بعد سنوات قليلة من ظهور كل من أم كلثوم وعبد الوهاب . واستطاع فى فترة وجيزة أن يتقابل معهما فى قطار التألق الذى إنطلق بهم سريعاً نحو النجومية . وقد داعبته أحلام تلك النجومية وهو لا يزال على أعتاب الطفولة ومن بعد استقراره وأسرته بالقاهرة فى عام ١٩٢٣ . الأمر الذى جعله يسعى جاهدًا للغناء فى الملاهى الليلية بعد ما أتقن العزف على العود مثل والدته الأمير علياء المنذر . وقد تمكن من إتمام تلك الخطوة وظهرت بوادر شهرته فى عام ١٩٣٠ بعد ما عرفه الجمهور كمطرب وليس كعازف لإحدى الآلات الموسقية .

وأخيرا يدخل الميدان ذاته الفارس الرابع من الفرسان العمالقة . . وهو عبد الحليم حافظ ، الذى بدأ حياته الفنية بعد الثلاثة الأخرين بأكثر من عشرين عاماً !! ورغم ذلك فقد تمكن وبإقتدار من الركوب معهم فى نفس القطار الذى استقلوه من قبله أكثر من عشر محطات فنية . ولسوف نكتشف فى هذا السياق أن العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ ، قد بدأ رحلته الفنية فى عام ١٩٤٥ . . وكانت تراوده أحلامه لأجل أن يكون فنانا متميزا مثلما كان كل من عبد الوهاب وفريد الأطرش ! . وقد نجح فى تحقيق أولى خطوات ذلك الحلم عندما التحق بمعهد الموسيقى بعدما استقر المقام به بالقاهرة هو وإخواته إسماعيل وعليه وأخيه الصغير محمد .

كما كان من أخص الدوافع الأخرى والتى رجحت لدينا كفة هؤلاء ليكونوا – صحبة فوق هذه الأوراق – ما عرفناه عن أحوالهم الاجتماعية وظروفهم المعيشية . إذ جمع بينهم الفقر وتأثروا به سلباً وإيجاباً . . حتى ساهمت تلك الآثار فى ركوبهم جميعا موجة الإعصار والسباحة ضد تيار الفقر وقوانينه التى كانت سائدة آنذاك . . وكذلك ضد تيار التعصب ضد الفن الذى كان مسيطراً آنذاك على كل طبقات المجتمع .

وحتى الفنان فريد الأطرش صاحب الأصول الأميرية . . بإعتباره أحد أولاد فهد باشا الأطرش أمير الدروز ، قد أصابه نفس ما أصاب الأخرين من ويلات الفقر وقهره ! . ذلك لأن ظروف بلاده السياسية وصراع أسرته ضد الاحتلال الفرنسى . . حكمت عليه وعلى أمه وإخوته بالهجرة خارج البلاد والإقامة الدائمة فى مصر . . هذه الإقامة التى استمرت لسنوات طويلة داخل أحد الأحياء الشعبية نظرًا لانقطاع الموارد المالية الأميرية عنه وعن أسرته ! . حتى اضطرت والدته للعمل بالفن كعازفة عود فى شوادر الفن بروض الفرج . . وكذلك التحق هو وأخوه فؤاد بالأعمال الحرة للمساعدة فى المعيشة !

ليس هذا فقط . . بل إن هذه الظروف الصعبة قد حكمت عليهم جميعا بأن يعيشوا تحت وطأة الخوف من الإصابة بالأمراض التى لم يكن ليبرأ منها سوى من كان يملك ثمن الدواء ! . وحتى هذا الأمر لم يعفهم من الإصابة بالعديد من الأمراض خاصة فى بداية حياتهم ، مما كان له أكبر الأثر على مسار صحتهم العامة فيما بعد . وليست قصة إصابة عبد الحليم حافظ بالبلهارسيا ببعيدة عن هذا السياق ! .

وكانت هناك إلى جانب ذلك صعوبات أخرى تولدت داخل بيئتهم الأولى نظرًا لقسوة ذلك الفقر . . ولعل من أبرزها اضطرارهم لعدم استكمال مسيرة التعليم فى حياتهم والتوقف بها عند حافة الكتاتيب والمدارس الأولية ! .

ومع ذلك ورغم هذه الظروف الصعبة التى واجهوها جميعا بإصرار وبقوة إيمان وبعزيمة . . فقد حاولوا أن يغيروا من نظرة المجتمع للفن وللعاملين به مما سبب لهم المزيد من المشاكل والعقبات . . بدأت أولاً داخل أسرهم ثم انتقلت إلى مجتمعهم الكبير ! . وأبدًا لم يستسلموا . . بل واصلوا جميعا الكفاح لأجل إعلاء كلمة الفن وفرض احترامه على كل الناس . . ونراهم قد نجحوا فى هذه المهمة نجاحاً باهرًا . . وأصبح لهم الفضل الأكبر فى جلوس الفنان فى مقاعد الملوك والعظماء من علية القوم ! .

***

وكذلك كانت من بين تلك الدوافع والأسباب والعوامل التى اجتمعت كلها لتحيط هؤلاء من دون غيرهم بتلك الخصوصية . . أنهم عايشوا جميعًا أحداثاً سياسية واحدة تقريباً . . ولعل السبب فى ذلك يرجع فى المقام الأول إلى تواجدهم فى فترة زمنية متقاربة . هذه الأحداث السياسية ذاتها كانت ولا تزال تمثل جزءاً هاماً من تاريخ مصر الحديث . كما كان لتواجد هؤلاء المكثف فى قلب المجتمع المصرى بكل طبقاته وبحكم ما كانوا يتمتعون به من شهرة ونجومية عالية . . السبب المباشر فى تأثرهم وتأثيرهم فى معظم هذه الأحداث .

وعلى سبيل التدليل فى هذا السباق نذكر أن هؤلاء الأربعة مع غيرهم من فنانى مصر حتى من الذين لم يشاركوا فى تلك الأحداث ، قد شهدوا وقائع ثورة ١٩١٩ ، وثورة فلسطين فى عام ١٩٣٨ . . وكذلك أحداث الحرب العالمية الأولى والثانية وحرب فلسطين عام ١٩٤٨ ثم أحداث ثور يوليو عام ١٩٥٢ وما صاحبها وما تلاها من أحداث سياسية ساخنة ساهمت فى تغيير مجرى تاريخنا الحديث .

ولا ننسى أن نشير فى هذا السياق أيضا إلى أن علاقة هؤلاء الأربعة الكبار بالعشرات من كبار الشخصيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية آنذاك كانت من أكبر العوامل التى ساهمت فى تفعيل دور هؤلاء فى أحداث مصر التاريخية فى شتى جوانبها . بل ولقد سعى هؤلاء الكبار من دون غيرهم لكى تكون لهم مساهماتهم

الفنية الخاصة سواء فى المجال السياسى أو الاجتماعى . . وكانت هذه المساهمات بالفعل على جانب كبير من الأهمية مما ترك آثارها باقية حتى يومنا هذا .

وعلى سبيل المثال نجد أن ارتباط محمد عبد الوهاب وأم كلثوم فى بدايات حياتهم الفنية بالزعيم سعد زغلول جعلهما يتأثران بشدة بأحداثها ، بل وسعى كل منهما للمشاركة فى هذا الحدث القومى العظيم . رغم أنهما كانا آنذاك يتحسسان طريق الفن . ثم نجد أن ارتباط هؤلاء بالزعيم جمال عبد الناصر . . خاصة عبد الوهاب وعبد الحليم وأم كلثوم جعلهم يعيشون كل الأحداث السياسية التى أحاطت بذلك الرجل سواء فى الحرب أو فى السلم . . حتى أننا نجد أن فنانة عظيمة مثل أم كلثوم يصيبها الإعياء وتلاحقها الأمراض بعدما أصابت الهزيمة عبد الناصر فى عام ٦٧ وأصابت كذلك كل جماهيرها فى المشرق وفى المغرب . . بل وأكثر من ذلك نجد أن أم كلثوم قد أعلنت اعتزامها إعتزال الفن بعد وفاة جمال عبد الناصر ولولا بعض الحسابات التى أجريت بدقة من جانب من كانوا حولها ، لنفذت أم كلثوم هذا القرار الذى كانت تنوى اتخاذه وتنفيذه من قبل مع أيام ثورة يوليو الأولى !

ولم يتوقف هذا التأثير على أم كلثوم وحدها . . بل لقد أصاب ذلك التأثر الشديد فنانا آخر مثل عبد الحليم حافظ الذى اشتدت عليه آلام النزيف عندما عرف بتفاصيل تلك الضربات المتلاحقة التى واجهها عبد الناصر داخلياً وخارجياً .

وهناك إلى جانب تلك الدوافع والأسباب . . حالات تشابه كثيرة جمعت بين الأربعة الكبار ، وتحكمت فى مسيرة حياتهم الفنية وغير الفنية . . وكان من بينها حالات تشابه اجتماعية غير اجتماعية . ومن ذلك على سبيل المثال . . أنهم جميعا قد تلقوا تعليماً فى الكتاتيب التى كان لها الفضل الكبير عليهم حتى فى إتقانهم قراءة القرآن الكريم إلى جانب تعلم بعض أصول الحساب . . إضافة إلى رغبة هؤلاء الأربعة فى دراسة الموسيقى دراسة أكاديمية . . فالتحقوا بمعهد الموسيقى لتأكيد تلك الرغبة . . بعدما حصل إثنان منهم على توصية من أحد كبار القوم ثم تغير مسارهما من ملحنين أو ضاربين على بعض الآلات إلى العمل كمطربين ! . أضف إلى ذلك ارتباطهم جميعا بالثراء والجاه والسلطان والنفوذ . وتعدد الرحلات

الفنية الخارجية فى حياتهم وكذلك رحلات العلاج فى الخارج التى كانت تكلفهم أموالاً طائلة نظراً لخطورة ما كانوا يعانون منه من أمراض ! .

***

أما أغرب أوجه التشابه فيما بينهم جميعا فقد تمثل فى الواقع فى نهاياتهم المؤلمة التى كانت فصل الختام فى رحلة طويلة أفنوا خلالها أعمارهم . . ومن المفارقات التى صاحبت ذلك الرحيل أن الموسيقار محمد عبد الوهاب رغم أنه جاء فى الترتيب الأول من حيث الميلاد . . إلا أنه كان آخر الراحلين عن دنيانا . . أما أول هؤلاء الراحلين من بين هؤلاء الأربعة فهو . فريد الأطرش ، رغم أن ترتيبه ميلادياً كان رقم ثلاثة بعد كل من عبد الوهاب وأم كلثوم التى رحلت هى الأخرى بعد وفاة فريد الأطرش بعام واحدا ! . وكذلك عبد الحليم . . فرغم أنه كان أصغرهم سناً إلا أنه فارق هذه الدنيا قبل محمد عبد الوهاب أيضا وعن عمر يناهز الثامنة والأربعين فقط ! .

ولعلنا نختتم أسباب ذلك الاختيار بالحديث عن بعض الملامح المشتركة . فى مسيرة حياتهم الفنية . . وكان من أخصها أن هناك العشرات من الشعراء ومن الملحنين الذين اشتركوا فى تمويل أصوات هؤلاء تمويلا فنيا ، فاق تمويلهم لأصوات الآخرين . ويكفى أن نذكر فى هذا السياق أن أحمد شوقى أمير الشعراء قد استأثر بصوت صديقه عبد الوهاب . . ولم تغن له أم كلثوم من كلمات قصائده إلا بعد وفاته رغم أنها عاصرت أيامه الأخيرة وقابلته أكثر من مرة . ولم يكن أمامها من سبيل سوى البحث عن شاعر مخصوص ، يعادل فى قيمته أمير الشعراء . . فوقعت فى حب وغرام وكلمات شاعر الشباب أحمد رامى .

كما ساهم شعراء أخرون فى الترويج لأصوات هؤلاء الأربعة فوجدنا أن شاعراً مثل مأمون الشناوى وحسين السيد ومرسى جميل عزيز قد كتبوا لهؤلاء الأربعة ؟! . كما وجدنا أن هناك مجموعة من الملحنين قد ألفوا موسيقاهم لكل من أم كلثوم وعبد الحليم . ذلك لأن إثنين من هؤلاء الأربعة ، قد تميزا إلى جانب إتقان الصوت ، بإتقانهم اللحن والموسيقى أيضا .

وأكثر من ذلك سوف يكتشف المتابع لتفاصيل هذه الرحلة فوق هذه الأوراق أن فنانا مثل عبد الوهاب قد استأثر بصوت أم كلثوم فى فترة ما بعد الستينيات . . من بعد نجاح لحنه العظيم «انت عمرى» . . الأمر الذى دفع بالغيرة الفنية إلى داخل عقل وقلب وصدر فنان آخر مثل فريد الأطرش ، مما جعله يسعى جاهداً لتحقيق نفس الخطوة ، ولكنه فشل فى ذلك . . مع أنه كان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ذلك الحلم . إذ اتفقت معه أم كلثوم بأن يلحن لها إحدى أغنياتها ، وبعد أن أنجز فريد الأطرش ذلك اللحن . . تدخل أولاد السوء الذين أوهموا أم كلثوم بخطورة التعامل مع فريد الأطرش !!

وكذلك واجه فريد نفس المصاعب فى التعامل كملحن مع الفنان عبد الحليم حافظ الذى استأثر بصوته الفنان محمد عبد الوهاب فى بعض الأوقات . وأخذ يلحن له العديد من الأغنيات التى كان لها الفضل الكبير فى زيادة مساحة شهرته محلياً وعربياً . لذلك نجد أن فريد الأطرش قد ظل يعمل ملحناً لنفسه ولبعض المطربين الآخرين . من غير زملائه داخل دائرة العظمة ، سواء لمحمد عبد الوهاب لأنه كان أيضا ملحناً ماهراً . . أو لأم كلثوم وعبد الحليم اللذين رفضا ألحان فريد الأطرش !! .



الفصل الأول

أولاد المشايخ.. ثلاثة
وابن الذوات... واحد !

لدينا أربعة نماذج بشرية متشابهة إلى حد بعيد . . رغم اختلافهم فى كثير من نواحى الحياة ، سواء من حيث الميلاد أو النشأة أو حتى النوع ! . ثلاثة من هؤلاء حكمت عليهم ظروف المعيشة فى ظل فترة تاريخية معينة أن يلتحقوا بالعيش داخل بيئة شعبية متواضعة ، سادت مصر لسنوات طويلة . هذه الفترة المعنية امتدت حتى أوائل الخمسينيات . وقد ارتبط بالعيش بداخلها مجموعة من الطبقات الاجتماعية التى تكونت آنذاك وعلى مدى تاريخ مصر القديم والحديث . . وكان من أشهرها طبقة المشايخ ومعظم الذين داروا فى فلك الأزهر ، وهم كذلك من الذين التحقوا بالعمل بالمساجد أو الكتاتيب ! . وكانوا يمثلون فى ذلك الوقت قطاعاً عريضاً من المجتمع . سواء فى القرية أو فى المدينة .

والثلاثة الذين نقصدهم بهذا الحديث هم بالترتيب وفق شهادات الميلاد . . موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب وسيدة الغناء العربى أم كلثوم والعندليب الأسمر عبد الحليم حافظ . . حيث كان والد كل منهم يعمل خادماً لأحد المساجد مستغلاً صوته الجميل فى ترديد آذان الصلوات الخمس يومياً .

فوالد الموسيقار محمد عبد الوهاب . . هو الشيخ «عبد الوهاب محمد أبو عيسى» الذى لم يستطع على حد قول عبد الوهاب نفسه وفى مذكراته أن يستكمل تعليمه الأزهرى ، فالتحق بالعمل خادماً بمسجد الشيخ الشعرانى بحى باب الشعرية بوسط القاهرة . رغم أن عمه الشيخ «محمد أبو عيسى» قد ظل بالأزهر الشريف عالماً حتى نال إجازة العالمية . وكذلك كان والد سيدة الغناء العربى أم كلثوم «الشيخ إبراهيم البلتاجى» الذى كان يعمل هو الأخر خادماً فى مسجد قريته «طماى الزهايرة» ، وقد استغل أيضا صوته الجميل فى ترديد آذان الصلوات الخمس إلى جانب تلاوة

القرآن الكريم فى بعض المناسبات الدينية . وأيضا عمل والد العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ الشيخ «على إسماعيل شبانه» مؤذنا لمسجد قريته الحلوات بالزقازيق . رغم أنه كان يعمل بالتجارة فى بعض الأوقات وقد استغل هو الآخر حلاوة صوته فى تلاوة القرآن والأذان اليومى من فوق مأذنة مسجد قريته الحلوات ! . وقد تساوى بذلك مع أولياء أمور كل من أم كلثوم وعبد الوهاب . . رغم تفرغهما للعمل بالمسجد فقط . . إلا فى بعض الأوقات ! .

أما النموذج الرابع والذى كان لابد من التوقف أمامه كثيراً فيمثله الفنان الموسيقار فريد الأطرش ، إذ انحدرت إصوله من سلالة ملوك وسلاطين . . لذلك كان علينا أن نطلق عليه «لفظ ابن الذوات» فى مقابل لفظ «أولاد المشايخ» الذى يشمل الثلاثة الآخرين .

هذه البيئات المختلفة التى عاش بها هؤلاء الأربعة لاشك كان لها تأثير السحر على مسيرة حياتهم ! خاصة داخل شارع الفن . ولقد لاحظنا أن سمة الفقر والحاجة قد أحاطت ببيئة الثلاثة عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ . . كما شملت كذلك الفنان فريد الأطرش . . الذى التحق بنفس هذه البيئة بعد سنوات قليلة من وجوده داخل بيئة أولاد الذوات ، من هنا فقد بات ينطبق عليه نفس حديث المشاكل والمصاعب التى واجهتهم سواء فى حياتهم المعيشية أو مع أسرهم مما كان له أكبر الأثر عليهم جميعًا عندما اتجهوا وارتموا فى أحضان الفن .

ولقد أثبتت الأيام أن هذه الصفات الفنية التى اتصف بها والد كل من عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ كانت هى من أهم ماورثه هؤلاء . . كما كانت فى الوقت نفسه دافعًا أساسياً لإتقانهم لفن التطريب والأغنية لفترات طويلة . . وحتى هذا الدافع لم يختلف كثيراً بالنسبة لفريد الأطرش الذى كان صوته الجميل وحبه للفن نابعاً من حبه لإمه الأميرة علياء المنذر ، والتى اشتهرت هى الأخرى بحبها للفن وإتقانها للموسيقى خاصة داخل مجتمعها الأميرى فى لبنان من قبل أن تفد إلى مصر . . كما كانت النتائج أيضا واحدة . . إذ اجتمع هؤلاء الأربعة تحت مظلة فن الأغنية والتلحين والموسيقى حتى باتوا من أشهر من تألق فى هذا الميدان طوال نصف قرن من الزمان .

ولو أننا استعرضنا بالتفصيل المطلوب قصة حياة هؤلاء منذ بدايتها ، خاصة فى فترة النشأة الأولى سوف نلاحظ أكثر من ذلك . ولعل الاقتراب من تلك البدايات ورصدها بدقة يساهم كثيراً فى الوقوف على العديد من الدوافع والنتائج التى أفسحنا لبعضها المجال آنفا . . مع التأكيد على شىء هام نراه ضرورياً فى هذا السياق ، وهو أن الفقر وسوء الحالة المعيشية كانت من أهم ما دفع بهؤلاء فعلاً فى اتجاه شارع الفن . . وهو ما سوف نحرص على بيانه بدقة وبتفصيل واجب فى الأوراق القادمة .

هذا الفقر الذى تحول إلى نعمة أصابت فن الأغنية والموسيقى . . كان هو نفسه من أشد ما واجهه هؤلاء الأربعة من جراء اشتغالهم بالفن . . وإسرهم أيضا . . خاصة بالنسبة لفتاة ريفية مثل أم كلثوم ، وأمير سابق أصابته الحاجة مثل فريد الأطرش .

لقد عاش الموسقار محمدعبد الوهاب بالفعل أيامه الأولى ، بل ولفترة لا بأس بها من شبابه فى حى شعبى اتسمت أحوال ساكنيه بالتواضع رغم ثراء البعض ، مثله فى ذلك مثل ما كان سائدا فى كل أحياء القاهرة الشعبية فى وسط المدينة أو فى أطرافها . . هذا التواضع المعيشى نتج بشكل أو بآخر عن أسباب بعضها يرجع إلى أسرة عبد الوهاب نفسه . والبعض الآخر يعود إلى ظروف المجتمع المصرى آنذاك .

هذا التواضع فى المستوى المعيشى أيضا كان من نتيجته مثلا عدم الاهتمام بتسجيل المولود الجديد فى دفاتر مواليد الصحة . . وقد واجه عبد الوهاب نفسه تلك المشكلة حين كبر سنه ، وأصبح مطالباً باستخراج إثبات شخصية ، بل وسببت له هذه المشكلة صعوبات كثيرة نتجت عن اختلاف تواريخ ميلاده ، سواء بالنسبة لما ذكره عبد الوهاب . . أو ما ذكره عنه النقاد والمؤرخون ! .

إن الشيخ عبد الوهاب محمد أبو عيسى بالفعل لم يسجل اسم ولده محمد فى دفتر المواليد فبقى بلا شهادة ميلاد كملايين غيره من الأطفال المصريين فى القاهرة والأقاليم . . وهو نفس المصير الذى واجهته أم كلثوم إذ لم يهتم والدها الشيخ ابراهيم البلتاجى هو الآخر بتسجيل ميلاد إبنته .

وفى واقع الأمر، فقد سبب هذا التأخير حرجاً شديداً لكل من هذين العملاقين . . عندما شق طريقهما نحو النجومية والشهرة حتى أن كل منهما قد لجأ إلى وسيلة طبية لتحديد سنهما وهو ما يعرف باسم «طريقة التسنين» . . ومع ذلك لم يسلما من حديث تعلق إلى حد كبير بوجود شبهات تزوير فى تاريخ ميلادهما وبسبب تلك الظروف ! .

ففى عام ١٩٢٤ اضطر الموسيقار محمد عبد الوهاب للجوء إلى أحد الأطباء لتسنينه . . كما يقول ذلك الناقد والمؤرخ الراحل كمال النجمى وذلك بمناسبة تعينه معلماً للأناشيد بمدرسة الخازندار الإبتدائية بالقاهرة ، وكان من رأى الطبيب أن عبد الوهاب من مواليد عام ١٩٠٠ تقريبا . . ومنذ هذه اللحظة صار ذلك تاريخ ميلاد عبد الوهاب فى وزارة المعارف التى أصبح من العاملين بمدارسها . . ونظراً لتغير الظروف التى مرت بعبد الوهاب وجعلته يتقدم بسرعة الصاروخ داخل شارع الفن ، ولما كان لعامل السن دوره البارز فى هذا المضمار . . اضطر عبد الوهاب فى فترة الثلاثينيات إلى زيادة تاريخ ميلاده عشر سنوات أخرى وذلك عندما استخرج بدل فاقد لجواز سفره . . فأصبح من مواليد عام ١٩١٠ ! . رغم أنه فى عام ١٩٢٧ قد سجل تاريخ ميلاده عام ١٩٠٠ . . فى أول جواز سفر له يستخدمه بمناسبة سفره إلى لبنان فى صحبة أمير الشعراء أحمد شوقى بك .[1] .

كما ظل عبد الوهاب يجدد هذا الجواز كلما حان وقت تجديده بلا تعديل أو تبديل فى تاريخه ميلاده المعدل والذى استقر فى كل الأوراق الرسمية وغير الرسمية على أنه حقيقة مؤكدة . .!

وقد اضطر عبد الوهاب للتراجع عن تاريخ ميلاده المزور فى عام ١٩١٠ عندما حاصرته الموسوعات الأجنبية بالسؤال عن التاريخ الحقيقى لميلاده فقال : إنه عام ١٩٠٢ .

وأم كلثوم أيضاً قد مرت بنفس الظروف مما اضطرها إلى التحايل على تاريخ ميلادها الحقيقى ، حتى صار لها أكثر من تاريخ ميلاده ، كان آخره عام ١٩٠٤ عندما حضر إلى قريتها طماى الزهايرة لأول مرة مندوبو الصحة العمومية وسجلوا مواليد قريتها أطفالاً وكباراً وصغاراً . باعتبارهم جميعاً من مواليد عام ١٩٠٤ !!

(١) عبد الوهاب مطرب المائة عام - كمال النجمى . .

فأصبحت أم كلثوم كذلك رغم تقدم سنها من مواليد هذا العام . . ولكن الحقيقة التى اتضحت بعد وفاتها . . أنها كانت من مواليد عام ١٨٩٨ .

وكنت أحسب أن هذه المشكلة الشائكة واجهت فقط على كل من عبد الوهاب وأم كلثوم بسبب تواضع الحياة الاجتماعية التى عاشا فى ظلها ، وكذلك حالة الفقر التى شملت إسرتيهما . . لكننى حين رجعت لسيرة حياة فريد الأطرش اكتشفت أيضا هذا التخبط فى تاريخ ميلاده ، وبالتالى لم يكن هذا الأمر متوقفاً عند حدود أولاد البلد وأبناء المشايخ . . بل امتد ليشمل كذلك أولاد الذوات !! .

فقد ذكر فريد الأطرش أنه من مواليد عام ١٩١٥ . . إلا أن هناك من المؤرخين الذين شككوا فى رواية فريد بهذا الخصوص إذ أجمع فريق منهم على أنه من مواليد عام ١٩٠٩ . . وأن سبب هذا الخلاف هو أن الدروز أنفسهم لم يكونوا فى هذه الفترة المبكرة من تاريخهم يهتمون بتدوين تواريخ ميلاد أبنائهم ، وإنما يتذكرون ذلك بالمناسبات والأحداث الجسام ! . فى حين ذكر المؤرخ الموسيقى فكرى بطرس فى كتابه «أعلام الموسيقى والغناء العربى» أن فريد الأطرش من مواليد عام ١٩١٠ . . وأنه من أبوين كريمين هما الأمير الدرزى والأميرة علياء ! . وقد غنى فريد الأطرش لأول مرة وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة حينما كانت والدته علياء تغنى فى إحدى الحفلات العامة وكان يرتدى زياً عربياً بالعقال والعباءة !

***

ولولا إصرار الحكومة ووزارة الصحة العمومية . . قبل فترة عا ١٩٥٢ . . على تسجيل المواليد . . للتعرف على تعداد السكان . . سواء فى المدن أو فى القرى . لظلت تلك المشكلة تطارد أيضا الفنان الرابع فوق هذه الأوراق وهو عبد الحليم حافظ . . لذلك نجد أن حظه فى هذا الشأن كان أكثر توفيقا من الفرسان الثلاثة الآخرين .

لقد عرف الجميع وبلا أدنى خلاف . . أن تاريخ ميلاد عبد الحليم شبانه . . هو عام ١٩٢٩ . . وأنه ولد فى إحدى قرى محافظة الشرقية . . كما سبق وأسلفنا . . ولولا تغير ظروف الحياة الإجتماعية والسياسية آنذاك . . لظل عبد الحليم بلا تاريخ ميلاد ثابت ! . .

ولو بحثنا فى تواريخ ميلاد العشرات من فنانى مصر من الذين ظهروا فى أوائل هذا القرن وما بعده بسنوات . . سوف نلاحظ وجود تلك الخلافات فى هذه التواريخ . وللأسباب السابق الإشارة إليها .

وبخلاف ما أفرزته تلك البيئة الشعبية من مشاكل اجتماعية خطيرة سواء بالنسبة لتأخر تسجيل المواليد أو غياب الرغبة فى تعليم أبناء الأسر المتوسطة . . كانت هناك أيضا مشكلة انتشار المرض الذى هاجم هؤلاء الأربعة فى طفولتهم . . ولولا تدخل القدر لأصابتهم لعنته الشديدة ، والفارس الرابع عبد الحليم حافظ لم يسلم منه إذ إصيب بمرض البلهارسيا فى طفولته . . هذا المرض الذى ظل يطارده بشراسة حتى قضى عليه نهائياً . . وقد تسبب فى رحيله مبكراً ! .

***

ولقد لاحظنا أنه رغم حرص الأربعة الكبار على ذكر تفاصيل حياتهم وبداياتها المتواضعة ، وما واجهوه من مشاكل سواء مع أسرهم أو مع غيرهم . فقد تعمد بعضهم إغفال جوانب كثيرة . . والسبب فى ذلك ربما يرجع وفق تصورنا إلى آفاق النجومية والشهرة التى ذاقوا حلاوتها ، وبالتالى جعلتهم يعيشون فى نعيم دائم ويخافون من استرجاع أيام الفقر التى ولت بسلام ! .

هذا الإغفال المتعمد لا شك قد تسبب فى ظهور خلافات عديدة بين المؤرخين الذين تناولوا حياتهم بالتفصيل . وفى ظل ذلك الإغفال . . نجح عدد كبير من هؤلاء المؤرخين فى إضافة تفاصيل كثيرة عن حياة هؤلاء الأربعة بصرف النظر عن صحتها من عدمه !

هذا الأمر لم يختلف كثيراً بالنسبة لهم جميعاً . . فعبد الوهاب . . فيما كتبه فى مذكراته أو حتى فى أحاديثه الصحفية أغفل جانباً كبيراً من حياته وحياة أسرته ، إلا ما يخدم مسيرة حياته الفنية ، وأصله وأصل أسرته وعائلته ! . فنراه يقول فى مذكراته عن ارتباطه بعالم المشايخ على سببيل المثال : «كان الدين الحنيف يربط الأسرة كلها برباط دقيق ، ويكاد يطبع حياة كل فرد من أفرادها . . حتى أن أبى كان

شيخاً لمسجد الشعرانى ، كما كان عمى إماماً لهذا المسجد ، وأصبح باب الشعرية وحى الشعرانى بالذات مستقر الأسرة الثانى بعد أبو كبير .»[1] .

وداخل هذه البيئة الدينية ولد محمد عبد الوهاب على حد قوله أيضا ونشأ وسط أربعة أشقاء هم الأخ الأكبر الشيخ حسن والأصغر أحمد ، وشقيقتان هما عائشة وزينب ، وقد اختارهما الله إلى جواره .

وفى سن الخامسة من عمره ألحقه والده بكتُاب حى الشعرانى مثل أقرانه من أهل هذا الحى على أمل أن ينشأ هو الآخر نشأة تعليمية دينية تؤهله إلى الأزهر الشريف . ولكن خاب ظن والده . إذ كان عبد الوهاب على حد قوله تلميذاً بليداً يكره التعليم والكتاب كما يكره صاحبه ! .

ومما قاله عبد الوهاب فى هذا السياق : «إن إحساساتى فى الطبيعة كانت فى واد وعلوم الكتابُ فى واد آخر . . ولهذا السبب كنت ذبونًا مستديماً للفلقة التى كانت بعبع تلاميذ زمان» .

ومن المصادفات الغريبة . . أننا حين اطلعنا على قصة حياة أم كلثوم فيما يتعلق بنشأتها الأولى رغم إغفالها للعديد من جوانب هذه الحياة مثلما فعل محمد عبد الوهاب ، وجدنا نفس هذه العقدة التى عانى منها عبد الوهاب – فيما يتعلق بعلاقتهما بالكُتاب وطريقة تعليمها الدينى – لذلك كانت النتيجة واحدة . . حيث لم يكمل هذين العملاقين الكبيرين دراستهما فى ذلك الكتاب ! .

ولأم كلثوم رواية فى غاية الروعة نظراً لتصويرها ما كانت تعانيه فى داخل الكتاب . . حتى أنها لم تصدق موت تلك الشخصية الكريهة التى كانت تعلمها فيه . . فنراها تقول عن ذلك : «كان أول ما خطر فى بالى أن أطمئن على أنه مات بالفعل فجريت إلى بيته فوجدت زوجته تبكى وتصرخ بشدة ، فلم أصدق . . وعدت أجرى مرة أخرى وأدور على باقى منازل أقاربه ومعارفه ، فوجدتهم يبكون ، فرجعت مرة ثالثة إلى بيت الرجل وقررت أن أدخل حجرته لآراه على فراش الموت . . وبالفعل إتسللت بين أرجل المعزين ، ودخلت الحجرة ورأيت سيدنا ممدداً

(١) محمد عبد الوهاب – لطفى رضوان – كتاب الهلال .

على السرير . . ولكننى لم أطمئن إلا بعد أن سرت وراء الجنازة ورأيت المشيعين ينزلون سيدنا إلى القبر ويقفلونه عليه ويعودون من غيره . . فى هذه اللحظة شعرت بالإطمئنان ومضيت أجرى وأقفز فى سعادة ، فقد تصورت أنه بموت سيدنا إنتهى عهد التلمذة والذهاب إلى الكُتاب بالنسبة لى» [1] .

وعلى إثر ذكر سيرة أم كلثوم فى تلك الفترة المبكرة من حياتها نود أن نشير إلى نقطة فى غاية الأهمية - ربما لا يلتفت إليها البعض - وهى أن هذه الفنانة العظيمة كانت على خلاف محمد عبد الوهاب وغيره من فنانين وفنانات عصرها إذ كانت دائما وأبداً تفاخر بالحديث عن فقرها وتواضع حياتها الأولى سواء أثناء إقامتها مع أسرتها بقرية طماى الزهايرة أو من بعد ذلك . إلا أن هذه المصداقية قد توقفت عند فترة زمنية بعينها عندما بدأت الدخول فى دائرة النجومية والشهرة ، وبذلك تساوت فى هذا الأمر مع زملائها الثلاثة الآخرين .

وإذا كان عبد الوهاب قد كتب مذكراته بما فيها من مآخذ . . مرة واحدة . . فإن أم كلثوم قد كتبت تلك المذكرات أكثر من مرة وبعدة روايات أيضاً !! . الأولى كتبتها بخط يدها بناء على نصيحة من الكاتب الصحفى الراحل على أمين ، بدأتها بسيرتها وميلادها ، ثم توقفت فيها عند الحديث عن ذكرياتها الأولى خلال السنوات الأربع الأولى التى أمضتها بمدينة القاهرة والمحاولات التى باءت بالفشل من جانب أصدقاء والدها الشيخ ابراهيم لكى تبقى بالقاهرة بعد الخبر الذى نشرته إحدى المجلات الفنية عن تورطها فى علاقة غير مشروعة مع أحد أبناء قريتها !! .

وأما الرواية الثانية فقد كتبها ابن أختها المهندس ابراهيم الدسوقى ، ونشرتها إحدى الصحف اليومية وإن لم تختلف كثيراً فى التفاصيل عما سجلته أم كلثوم فى رواياتها الأولى ! . وأخيرا كتبت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد قصة أم كلثوم وفق رغبة سيدة الغناء العربى ، وأصدرتها فى كتاب ضخم .

وكما سبق وذكرنا فقد التزمت أم كلثوم المصداقية إلى حد بعيد . . بخلاف ما كان من غيرها من فنانى عصرها ! . بدليل أنها وصفت حالة الفقر الشديد الذى

(١) أم كلثوم وعصر من الفن - د ، نعمات أحمد فؤاد .

عاشته بقولها : «كانت فاطمة – أمها – تقيم فى بيت ريفى صغير من الطوب النىء وكانت له عدة أبواب تطل على حوش . . وكان وراء كل باب حجرة صغيرة طولها ثلاثة أمتار ، وعرضها متران . . تقيم أسرة مكونة من زوج وزوجة وعدة أطفال ، وفى إحدى هذه الحجرات كانت فاطمة المليجى تتلوى فى ألم فى إنتظار المولود . .» .

***

أما بالنسبة لكل من فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ ، فإن الأمر قد اختلف بعض الشىء . . وربما يكون السبب فى ذلك راجعاً إلى كون أحداث هذه الفترة المبكرة من حياتهما لاتهم الكثيرين غيرهم . . وهذا ظن واهم إلى درجة تثير الدهشة . . خاصة إذ آمنا بالقول الذى اعتاد أن يردده البعض من أن قيمة الإنسان ليست بأسرته أو بيئته مهما تواضعت أو ارتفعت . والعبرة فقط بما يحرزه الإنسان فى كفاحه فى الحياة وما يحققه من أمجاد .

ويبدو أن فريد الأطرش بالذات كان من أشد المؤمنين بتلك المقولة إذ كان يعتبر أن ارتباطه بعائلة الأطرش وسلاطينها لا يهمه فى قليل أو كثير . . وقد إمتلأت كتب التاريخ بكفاح أسرته ! . بل وأكثر من ذلك . . فإن ارتباطه باسم عائلته والتى كانت تعيش فى جبل الدروز بسوريا ولبنان كان يمثل بالنسبة له وفى فترة من فترات حياته الفنية مشكلة خطيرة ، وصلت أبعادها إلى حد التهديد بالقتل ! . فنراه يقول عن ذلك : «وعلمت عائلة الأطرش باشتغالى بالغناء أنا وشقيقتى آمال فاعتبرت ذلك خروجاً على تقاليد العائلة ، وأعلنت تبرأها منا وقطعت عنا المرتبات المالية . . وهددونى بالقتل إن ظهرت فى الوسط الفنى بلقب الأطرش!» [1] .

وفى تصورنا . . أنه لولا الظروف السياسية الصعبة التى مرت بها عائلة الأطرش . . مما تسبب فى هجرته وأسرته إلى القاهرة . . لظل هو كواحد من أمرائها من الذين يتولون مقاليد الأمور . . ويمشون فى ركاب الكفاح من أجل التخلص من تبعية الاستعمار الفرنسى آنذاك ، وذلك كعادة كل إسر الحكام الذين يبدأون وباستمرار فى تدريب الأبناء على أصول الحكم والقيادة والكفاح أيضاً .

(١) مجلة دنيا الفن – تاريخ حياتهم بأقلامهم – فى ١٩٤٧/١٢/١٨ .

ولكى نعرف مدى إرتباط فريد الأطرش بطبقة أبناء الذوات . . والتى تحدثنا عنها من قبل . . فى مقابل طبقة أبناء المشايخ التى ينتمى إليها كل من عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ . . كان لابد لنا من إلقاء بعض الأضواء المبهرة على تاريخ أسرته التى استوطنت قرية «القرية» بجبل الدروز والتى ولد بها فريد الأطرش وبقية أخواته .

ومما قيل فى هذا السياق أن عائلة الأطرش تنحدر فى إصولها إلى سلالة الأمير فخر الدين المعنى والأمير سليمان التنوخى . . اللذان هاجرا من لبنان فى عام ١٧٠٠ م إلى سوريا . . ثم استوطنا منطقة الجبل التى تبعد عن دمشق حوالى مائة كيلو مترًا ، والمعروفة حالياً بجبل الدروز أو بجبل العرب .

ووالد فريد الأطرش هو الأمير فهد الأطرش ، الذى كان يشغل وظيفة عالية فى متصرفية أزمير بتركيا قبل الحرب العالمية الأولى . . ثم نقل إلى لبنان وعين متصرفاً فى منطقة حاصبيا ثم قائمقام فى «القرية» بجبل الدروز مسقط رأس ابنه فريد الأطرش حيث ولد بها ، كما تولى والده عدة مناصب قضائية فى عهد الفرنسيين حين كان الانتداب قائما على سوريا ولبنان ، ثم رئيسا لمحكة الاستئناف فى السويداء ثم فى منطقة درعا ! .

وبخلاف حديث المؤرخين وخلافاتهم فيما يخص تاريخ ميلاد فريد . . فقد اختلفوا كذلك فى أسباب هجرته وأمه وإخوته إلى مصر . . فقالوا عن ذلك إن والده قد تزوج مرتين بخلاف أمه الأميرة علياء ، وكان هذا الزواج أحد أسباب الخلافات الكبيرة فيما بينهما . . مما أدى إلى نزوحها إلى مصر هرباً من بطشه ! .

فى حين ذكر فريد الأطرش فى مذكراته عن أسباب نزوحه إلى مصر وأسرته فى عام ١٩٢٣ أسباباً أخرى . . ومما قاله عن ذلك :

«إن أهم أحداث حياتى . . رحلة فى القطار ذات يوم عام ١٩٢٣ . إنه قطار حيفا الذى نقلنى من الحياة التى كان يمكن أن تجرى فى مجرى غير الذى رسمه القدر» .

وفى موضع آخر من مذكرات فريد الأطرش يقول عن نفس الموضوع : «كان من المفروض أن أكون واحدًا من هؤلاء ، أقاتل وراء أبى فهد الأطرش بزعامة عمى

سلطان الأطرش ، ولكن قطار حيفا - القاهرة عبر بى جسر هذا المحتوم إلى مستقبل آخر - إننى ما زلت أذكر تفاصيل تلك الليلة الحافلة من عمرى . . فقد كنا فى بيروت . . وقد تقدم الليل ونحن نيام . . ثم تبدد سكون الدنيا حين سمعنا دقات عنيفة على الباب . . ولم يكن أبى معنا فقامت أمى مذعورة من النوم وهى تسأل من وراء الباب المغلق بصوت يدعى الشجاعة : من الطارق ؟! . وقد طار النوم من عينى فقمت لأسمع ما يجرى بكل فضول الخائف ، قال الطارق : هل هذا بيت فهد الأطرش ؟! . . فقالت أمى بحدة : من أنت وماذا تريد ؟! .

فقال بلهفة : أنا ابن العشيرة . . أنا درزى . . لقد سمعت أن الفرنسيين ينوون إلقاء القبض على أسر فهد الأطرش ، فقلت أبلغكم حتى تفروا فى الوقت المناسب! . . ففتحت أمى الباب والمصباح فى يدها ، وسقط الضوء على وجه طارق الليل ، فتأكدت من قسمات وجهه أنه صادق ، وكنا نعرف أن الفرنسيين يطاردون أبى لأنه انضم إلى ثوار الجبل فى ثورتهم ضد الفرنسيين . . والقبض علينا كرهائن أمر متوقع حتى أن عمنا سليم الأطرش آثر أن نبقى فى بيروت بعيداً عن دمشق .[1] .

ومهما يكن من أمر ذلك الخلاف الذى نشب بين المؤرخين وبين فريد الأطرش فيما رووه أو ما رواه . . فقد وصل هذا الفنان العظيم إلى مصر لينضم إلى كوكبة الفنانين والفنانات من المصريين ومن غيرهم من الذين كانت قبلتهم مدينة القاهرة عاصمة الفن فى هذه الفترة . . ونحن نرى أنه مهما كانت الدوافع التى جعلت من فريد الأطرش وأسرته يلجأون إلى مصر . . فقد كانت كلها خير . . سواء عليه أو على أخته الفنانة أسمهان أو على تاريخ فن التطريب والموسيقى . . وسيظل فريد الأطرش عنواناً للتحدى الذى إجتاز به كل العقبات . . وجعلت منه أحد أبناء الذوات الذين دخلوا شارع الفن من أوسع أبوابه ، وإن كانت تلك الصفة قد زالت بعد سنوات قليلة قضاها هناك فى قصر والده بلبنان . . عندما التحق بقافلة الفنانين الفقراء . . وبزملائه الثلاثة . . عبد الوهاب وعبد الحليم وأم كلثوم .

---

(١) لحن الخلود - فريد الأطرش - فوبيل لبيب .

ويتبقى لنا من حديث أولاد المشايخ وابن الذوات . . حديث ختام . نقترب من خلاله من حياة الفنان الرابع - عبد الحليم حافظ - كى نعرف موقعه داخل دائرة هؤلاء الذين حكمت عليهم الظروف لكى يرتبطوا بخدمة المساجد . . وهى مهمة كانت فى الأصل تطوعية . . يمارس أصحابها بجوارها مهناً أخرى . . مثل التجارة أو البيع !

ويقول دفتر أحواله الاجتماعية . . وكذلك دفتر المواليد أنه من مواليد عام ١٩٢٩ . . لذلك نراه أصغر من كل من عبد الوهاب وأم كلثوم بتسعة وعشرين عاماً على اعتبار أن كل منهما من مواليد عام ١٩٠٠ . . كما كان يصغر أيضا فريد الأطرش بأربعة عشر عاماً إذا ما أخذنا فى الاعتبار تاريخ ميلاد فريد الأطرش الذى ذكره فى أوراقه الخاصة وهو عام ١٩١٥ .

وقد لعب صغر سن عبد الحليم حافظ بالنسبة لزملائه الثلاثة الكبار دوراً هاماً فى حياته . . على الرغم من أنه قد لحق بهم فى قطار المجد . . بدءاً من عام ١٩٥٤ ! . إذ مكنته هذه السن الصغيرة من تقديم ألوان من فنون الأغنية اختلفت كثيراً وفق آراء المؤرخين والنقاد عما كان يقدمه هؤلاء الثلاثة . .

هذا التفرد . . قد عجل بالتحاقه سريعا بقطار الشهرة . وهو الذى كان وكما سوف نعرف فيما بعد . . يتمنى فقط مجرد رؤية فنان كبير مثل عبد الوهاب أو يتحدث ولو بالتليفون لفنانة عظيمة مثل أم كلثوم !

وكما أن عبد الوهاب كان هو الأخ رقم أربعة داخل أسرته . . كما سبق وأسلفنا فإن عبد الحليم حافظ أيضا كان ترتيبه داخل أسرته الرابع والأخير . . ! بعكس أم كلثوم التى كانت هى وأخيها خالد ثمرتان وحيدتان داخل أسرتها «بطماى الزهايرة» . أما فريد الأطرش فكان ترتيبه الميلادى الثانى بعد أخيه فؤاد . . وأخته الصغيرة آمال أو أسمهان . كما كان له أخ رابع . . مات مبكراً ! .

وكان والد عبد الحليم حافظ - الشيخ على إسماعيل شبانه - يعمل هو الآخر مؤذنا لمسجد قريته «الحلوات» إحدى قرى الزقازيق والتى تبعد ٨٠ كيلو متر شمال شرق القاهرة . وهناك من يقول إن هذا الشيخ كان يعمل إلى جانب ذلك . . تاجراً للجلود ! .

وقد ولد الطفل عبد الحليم فى الوقت الذى كانت فيه أمه «بهانة أحمد عكاشة» تتأهب لمغادرة الحياة متأثرة بحالة النزيف الشديد الذى وافق أو أعقب ولادته فى زمن كانت فيه الخدمات الصحية متخلفة جداً .

ومن يومها بات عبد الحليم شبانة يتيم الأم . . ومن بعد وفاة والدته ألح الجميع على الشيخ اسماعيل والده لكى يتزوج . . إذ كان لابد من بعد رحيل أم إسماعيل أن تقوم إمرأة أخرى برعاية أولاده الصغار وهم إسماعيل الذى جاء مولده فى عام ١٩١٩ وعليه عام ١٩١٧ ومحمد فى عام ١٩٢٣ وبالفعل تزوج والد عبد الحليم . .

ويرى بعض المؤرخين أن زوجة أبيه هذه كانت شديدة الحنو عليه ، وظلت ترضعه إلى أن توفى والده بوقت قصير ! . عندئذ رحلت هذه الزوجة إلى أهلها . . وبالتالى عادت تلك الأسرة إلى الضياع من جديد . . ولم يكن أمامهم من سبيل حينئذ إلا أن يشدوا الرحال إلى مدينة الزقازيق للعيش فى كنف خالهم الحاج «متولى أحمد عكاشة» الذى لم يكن دخله الشهرى يتجاوز ٤ جنيهات من وظيفته فى بنك التسليف الزراعى . (١) .

وقد أراد هذا الرجل أن يزيد من دخله الشهرى لكى يتمكن من الإنفاق على أولاده وأولاد أخته المتوفاة ففتح مكتبة لبيع الأدوات المدرسية أطلق عليها اسم «مكتبة عكاشة» . . كان يتناوب فى إدارتها أبناء شقيقته الثلاثة وابنه أحمد شحاتة ، أبو زيد ابن خالتهم ، الذى تخصص فيما بعد هو ومحمد شبانة . فى إدارة المكتبات ! .

ويصور لنا عبد الحليم حافظ هذه النشأة الأولى فى كلمات مؤثرة . . تدل دلالة واضحة على تأثيرها المباشر على مسيرة حياته . . كما توضح لنا الجو العام الذى عايشه ذلك الفتى اليتيم . . وكيف كانت تلك الظروف الصعبة سبيله للإنطلاق إلى عالم أحسن ، يحفه الطرب من كل جانب .

ومما قاله فى وصفه لهذه الصورة : «ولدت وحيداً أسمع كلمات الشفقة من حولى . . مسكين ماتت أمه وهى تنجبه ، حكمت عليه الأقدار ألا يرى أمه التى أسلمت روحها فى نفس اللحظة التى خرج فيها إلى الحياة ! . . ولم تمر سوى أشهر

---

(١) عبد الحليم حافظ مداح القمر - محمد السيد شوشة .

قليلة حتى مات الأب أيضا . . فأصبح الطفل البرئ يتيماً بلا أب أو أم. وكان عليه أن يشق حياته وحيداً وأن يبدأ رحلته فى بحر العواصف داخل مركب رقيقة الشراع تحاول أن تواجه الأمواج القاتلة وأن تصل إلى بر الأمان بدون خسائر كبيرة ! . ومع كلمات العطف والإشفاق التى بدأت أسمعها فى هذه القرية الهادئة - الحلوات - إحدى قرى الزقازيق - فهمت حجم المأساة التى أعيشها . . شىء مؤلم أن يشعر الإنسان أنه غير مرغوب فيه . وكأنه جاء زائداً على الحاجة (١) .

وبعد أن عاش عبد الحليم حافظ فى كنف خاله وإخوته لمدة تسع سنوات ألحقوه بأحدى ملاجىء الأيتام بمدينة الزقازيق . . وقد لاحظنا وجود خلافاً كبيراً بين المؤرخين وبين النقاد من الذين تناولوا بالتفصيل قصة حياة عبد الحيلم حافظ فيما يخص الهدف والتوقيت بشأن مسألة إلحاقه بملجأ الأيتام .

ومما قاله فى هذا الشأن الناقد الفنى الراحل محمد السيد شوشة : « لقد شهدت نقاشاً بين ذلك المدرس وبين شقيقه إسماعيل ، قال فيه محمود حنفى ما سبق أن قاله حليم ، بأنه إلتحق بالملجأ حباً للموسيقى ، بينما قال إسماعيل إن أخاه كان متعلقاً بحب الموسيقى حقيقة . لكن دخل خاله المتواضع وقتئذ ، لم يكن يسمح له بالإنفاق عليهم بجانب أسرته ، فألحقه بالملجأ كصبى يتيم » ! .

ومن قبل مرحلة الملجأ هذه . . خاض عبد الحليم نفس تجربة كل من عبد الوهاب وأم كلثوم مع كتّاب القرية . . وقد قاسى منه ما قاساه هذين العملاقين من قبل . . وكانت أيضا النتيجة واحدة وكذلك الأسباب . .

فقد بدأ عبد الحليم رحلته مع التعليم كسائر معظم أبناء الشعب المصرى بالالتحاق بالكتاب لحفظ القرآن الكريم وكانت البداية فى كتاب الشيخ «أحمد الحريرى» الذى كان يقع فى ضاحية من ضواحى مدينة الزقازيق إسمها «عزبة الحريرى» . . غير أنه لم يمكث فى هذا الكتاب طويلاً ، لأنه رأى شيخ الكتاب يعاقب أقرانه من التلاميذ بتعليقهم من أقدامهم فيما كان يعرف آنذاك

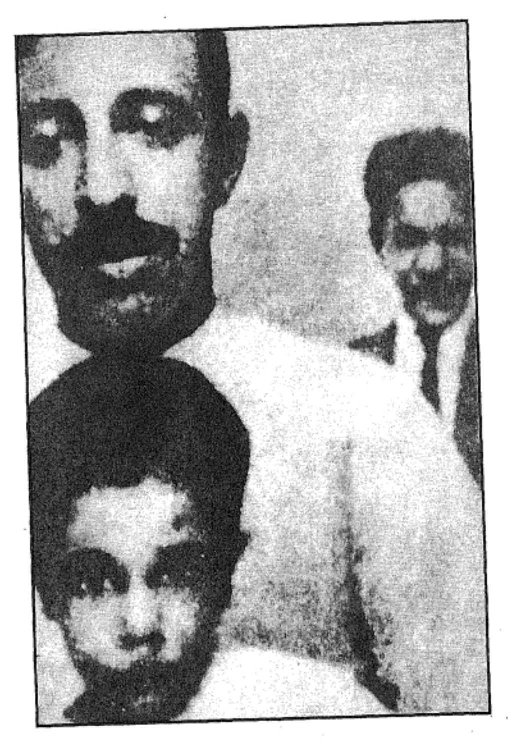
---

(١) عبد الحليم حافظ - زمن الرومانسية - إيريس نظمى - آخر ساعة العدد الصادر فى ١٩٩٥/٣/٢٩ .

«بالفلقة»! ثم ينهال عليهم ضرباً ، فجعله ذلك يهرب من الكتاب لأنه لم يستطع أن يتحمل رؤية مشاهد القسوة والعنف .

وهروب عبد الحليم حافظ من الكتُاب . . كانت فرصة ذهبية له . . رغم ظروف معيشته الصعبة فى ظل ما عاناه من يتم وحرمان . . إذ دفع به خاله الحاج أحمد عكاشة للعيش فى ملجأ الأيتام من أجل أن يتعلم . . ويأخذ شهادة الابتدائية . وكان القدر متربصاً به وراء جدران هذا الملجأ عندما اكتشف أحد مدرسى الموسيقى حبه وميله الشديد للموسيقى . . فأخذ يعلمه أصولها . . وكانت تلك هى البداية الحقيقية لإقتراب فنان مثل عبد الحليم حافظ من شارع الفن فى صورته الأولى ! . . عندما أخذته بعد فترة موهبته المتأصلة فيه بعيداً عن ميدان الموسيقى الذى عشقه وهو لا يزال صغير السن . . وتحول مع الأيام والسنين إلى أحد هؤلاء الأربعة الكبار فى ميدان الطرب والغناء .

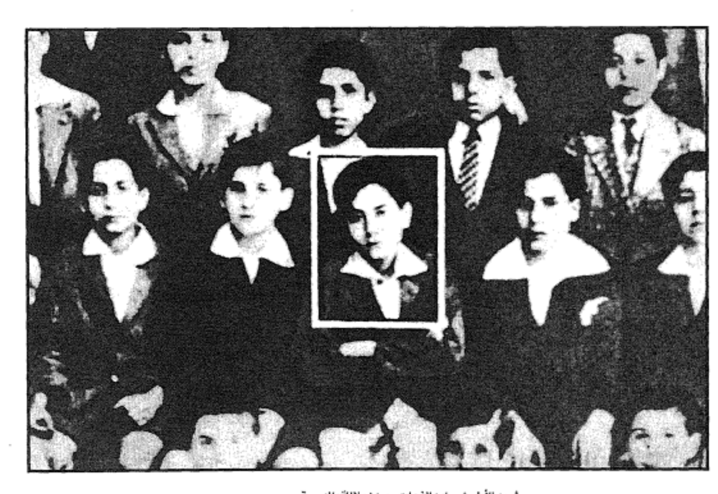




● الطفل محمد عبد الوهاب يقف خلف والده الشيخ محمد أبو عيسى



● أم كلثوم.. فى طفولتها بعدما خلعت الكوفية والعقال



فريد الأطرش - ابن الذوات - بين زملائه بالمدرسة

● عبد الحليم شبانه الأول من اليمين وسط أفراد إسرته بعد رحيل والده ووالدته

الفصل الثانى

الفقر والفن.. ليس فى حياة هؤلاء الأربعة فقط

قد يكون الدافع الأساسى فى تمسكنا للحديث عن هؤلاء الأربعة الكبار ، من حيث علاقة الفن بالفقر فى حياتهم ، هو الوقوف من قبل على بعض ظروفهم المعيشية خاصة فى فترة النشأة الأولى ، والتى قضوها سواء فى ظل طبقة المشايخ أو فى رعاية الأمراء والسلاطين .

وقد يكون هناك سبب آخر لذلك ، رغم أنه لا يرتبط بهؤلاء الأربعة فقط إذ لاحظنا أن آفة الفقر هذه كانت من أكبر الدوافع لإشتغال المئات غيرهم بالفن ، ليس فى مصر وحدها بل وفى كل دول العالم . على الرغم من وجود الموهبة التى كانت بمثابة جواز المرور الرسمى لقهرهم ذلك الفقر . . وفى التاريخ مئات من الحكايات التى حدثتنا ولا تزال عن تأثير الفقر فى حياة العديد من الفنانين ، وقوة نفوذه وسلطانه الذى دفعهم إلى ساحة الإبداع حتى وصلوا إلى درجات عالية من الإتقان . .

ومن أشهر ما رواه التاريخ عن حياة الفنانين الذين بدأوا فقراء . . قصة الفنان العبقرى «شارل شابلن» ، وهى قصة عظيمة لا زالت ماثلة فى الأذهان بكل تفاصيلها . . ذلك الفنان الذى نشأ فى بيئة فقيرة وداخل أسرة فقيرة ، وقد استطاع رغم فقرة بما كان يملكه من مواهب متعددة ومن قوة إرادة أيضا من أن يصبح من أشهر فنانى القرن العشرين فى فنون التمثيل . وكذلك الرسام العالمى بيكاسو والموسيقار بتهوفن وآخرين .

لقد رفض هؤلاء وأمثالهم عيشة الفقر وتمردوا على سلطانه ، ولم يستسلموا لضغوط البيئات المتواضعة التى نشأوا بها ولا لضغوط أسرهم التى كانت تدفعهم للإلتحاق بأعمال أخرى من أجل المساهمة فى المعيشة ! . ونراهم قد اتخذوا من

فقرهم دافعاً قوياً للإنطلاق فى رحاب الشهرة حتى وصلوا من خلالها إلى أقصى غاياتهم مادياً ومعنوياً ! .

وكان لهؤلاء الأربعة . . أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد وعبد الحليم ما كان لبقية أقرانهم من الذين رفضوا الفقر وجعلوه منصة انطلاق إلى أسمى الغايات ، ولذلك رأينا من الضرورى الاقتراب أكثر من تفاصيل حياة هؤلاء الكبار . . وكذلك من البيئة المتواضعة التى عاشوا بها على الأقل فى فترة صباهم الأولى والتى كانت تستوجب منهم الالتحاق بأى عمل يعرض عليهم لأجل الحصول على المال القليل الذى قد يساهم فى تحسين أحوالهم وأحوال أسرهم إما تأسياً بأخواتهم أو تحت ضغط وإرهاب الحاجة ! .

وقد يحسب من سوف يصاحبنا خلال أوراق هذا الحديث . . أن فريد الأطرش الذى خرج من بيئة أولاد الذوات ، كان بعيداً عن الفقر وعن مشاكله وضغوطه . . بل بالعكس ، إذ حولته ظروفه المعيشية الجديدة . . إلى أحد الفقراء الذين لم يجدوا أمامهم سوى العيش فى إحدى البيئات الشعبية المتواضعة فى مدينة القاهرة . . وفى حى باب البحر بالذات الذى لم يكن يبعد سوى مسافات قليلة من حى باب الشعرية ، وحى الشعرانى الذى نشأ فيه الفنان محمد عبد الوهاب . .

وحتى لا تأخذنا الشفقة حين الحديث عن هؤلاء من دون غيرهم . . بعد أن نعرف تفاصيل حياة الفقر فى مسيرتهم . . كان لابد وأن نعرف أن حالة الفقر هذه كانت من أبرز صفات بل وسمات الشعب المصرى الذى كان يعيش معظم أبناؤه بالفعل تحت خط الفقر ، وذلك لظروف سياسية واجتماعية فى غاية التعقيد ، وقد ظلت هذه السمة الكريهة أحد معالم تاريخ ذلك البلد لأكثر من خمسين عاماً .

ولا شك أن من يقرأ تاريخ مصر منذ مطلع القرن العشرين . . وحتى منتصفه تقريبا لابد له وأن يعرف ذلك وبتفاصيل أكثر . . وقد رجعنا بالفعل إلى بعض هذه التفاصيل لإرتباط ذلك بمسيرة حياة هؤلاء الأربعة حيث عاشوا ونشأوا وسط هذه الظروف المعاكسة .

***

لقد عانت مصر مع مطلع هذا القرن ووفق ما سطره المؤرخون من مشاكل سياسية عديدة كان فى مقدمتها سيطرة الأجانب على ثرواتها ، وتقلب هؤلاء الأجانب فى أشكال وصور مختلفة . بدءاً من ظهور محمد على وإسرته فى الساحة السياسية منذ عام ١٨٠٥ مروراً بأسباب الاحتلال البريطانى ، ومن قبله الحملة الفرنسية .

هذه السيطرة الأجنبية بأشكالها وصورها المختلفة قد ساهمت إلى حد بعيد فى إبعاد أبناء الشعب عن الاستفادة بموارده الحقيقية . . لذلك كان المستفيد الأول آنذاك هم طبقة الأجانب أو من كانوا يسيرون وراءهم .

وبطبيعة الحال . . لم تكن أسر ولاعائلات هؤلاء الأربعة الكبار ببعيدة عن هذه المشاكل وأثارها الاجتماعية الخطيرة . . وكانوا كمثل آلاف الأسر المصرية من المضارين بتردى الأحوال الاقتصادية . . وقد عرفنا من قبل أن والد أم كلثوم الشيخ إبراهيم البلتاجى ، حكمت عليه نفس الظروف لأن يعمل مؤذناً فى أحد المساجد وبأجر ضئيل . . وفى أوقات فراغه كان يعمل أيضا منشداً دينياً . . بهدف زيادة دخله الشهرى . . ليس هذا فقط . . بل ونراه يصطحب معه فى حفلات الإنشاد الدينى ابنه خالد ومن بعده صاحبته ابنته الصغيرة أم كلثوم .

وكذلك كان والد كل من الفنان محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ . وكذلك والدة فريد الأطرش التى اضطرتها ظروف الفقر والحاجة للعمل بالفن فى مسارح روض الفرج الشعبية . . وهى الأميرة زوجة الأمير ! .

***

وللأسف فإن هذه الظروف لم تتوقف فى حياة هؤلاء ولا فى حياة أسرهم عند حدود الفقر . . بل تعدى ذلك إلى ما عانوه من إهمال فى مجال الصحة . . حيث كانت الأمراض منتشرة فى ظل غياب رعاية صحية صاحبت هذه الظروف المتواضعة .

كما أثبتت وقائع هذه الأيام بظروفها المعاكسة ، أن القرية المصرية كانت من أكثر الأماكن تأثراً بهذه الحالات الاجتماعية والاقتصادية المتردية . خاصة وأن هناك أماكن بعينها داخل بعض المدن الكبيرة مثل القاهرة والاسكندرية وبعض عواصم

المحافظات الكبيرة قد نجحت فى الإفلات من هذه الهموم . . وقد لاحظنا ووفقا لهذا الاختلاف أن وقائع حياة كل من أم كلثوم وعبد الحليم حافظ كانتا من أكثر الحالات تأثراً بأحوال الفقر وغياب الرعاية الصحية عما واجهه كل من عبد الوهاب وفريد الأطرش ! .

حتى محمد عبد الوهاب نفسه والذى قضى عمره كله بأحد أحياء القاهرة ، لم يكن ببعيد عن تأثير تلك الظروف الصعبة . . بدليل أن والده الشيخ عبد الوهاب أبو عيسى . . اضطرته نفس الظروف للهجرة من قريته أبى كبير بمحافظة الشرقية . . على أمل العثور على مصدر رزق واسع يضمن له جانبا معقولاً من الحياة الكريمة .

وعلى أية حال . . فلم يكن أمام مثل هؤلاء النازحين إلى القاهرة سوى الإرتماء فى أحضان مساجد أولياء الله الصالحين والعمل فى خدمتهم هرباً من الفقر . والغريب . . وكما مر علينا من قبل كانت الظروف نفسها هى التى دفعت بإسر كل من أم كلثوم وعبد الحليم وفريد للهجرة إلى القاهرة ! . وكان الهدف من وراء ذلك واحداً . . إذ تمثل لهم فى صورة وسيلة النجاة المضمونة للهروب من الفقر ، والقفز من أمامه حيث مناطق أكثر آمنا ! .

وكذلك لم يكن هؤلاء الأبناء ببعيدين عن حلم الاشتغال بالفن كمصدر مضمون لتحقيق تلك الأهداف ، وقد ساعدهم على تحقيق ذلك الحلم ما كانوا يتمتعون به من مواهب سواء فى حسن الأداء أو الصوت الجميل أو الأحاسيس المرهفة .

إن ما كانوا يملكونه من مواهب فى هذا المجال . . قد ترك تأثيرًا قوياً على إسرهم فاستجابوا لهم تحت ضغط ظروف المعيشة الصعبة ، وبالتالى سمحوا لهم بالزحف ناحية شارع الفن . ومع ذلك لم تسلم هذه الاستجابة من عراقيل ومصاعب وضعت عنوة فى طريقهم . . بالإضافة إلى ما كان سائداً آنذاك فى مجتمعنا وتلك النظرة المتخلفة للفن ولكل العاملين به ! .

ولقد أثبتت الأيام أن هؤلاء الأربعة كانوا بالفعل من أصحاب المواهب المتفردة فى مجال الصوت والموسيقى . . هذه المواهب نفسها قد ورثوها عن آبائهم ، وإن حولوا تلك المواهب إلى مسار آخر . . فبدلاً من استخدام الصوت الذى تفردوا به . .

فى تلاوة القرآن الكريم وإحياء الحفلات الدينية . . لجأوا بذلك الصوت إلى شارع الفن . . وقد حسبوا ذلك وسيلة مضمونة تمكنهم من الإنتشار السريع .

***

إن الحديث عن الفقر والحاجة ومستوى المعيشة المتواضع ، لا شك سوف يبين لنا مدى ما واجهه هؤلاء من صعوبات . . كانت من المفترض أن تقضى عليهم وعلى تلك المواهب ، وعلى أحلامهم . وعلى متعتنا نحن أيضا ، باعتبارنا الجمهور المتلقى الذى كان يسعده كثيراً ولا يزال أن يعيش مع كلمات هؤلاء ومع ألحانهم ! .

وإذا كان الفقر الذى فرض نفسه كسمة أساسية على مقدرات المجتمع المصرى فى فترة وجود هؤلاء الأربعة ، قد فرض سلطانه وأجنحته على كل ربوع مصر - إلا من أحياء قليلة كان يقطنها الأجانب وبعض كبار القوم - فقد أخذ فى فرد أشرعته بلا موانع . . داخل الأحياء الشعبية وداخل القرى والنجوع . . ولم تسلم من ذلك مدينة القاهرة . وهى عاصمة الحكم والفن آنذاك . وكان من أغلب سمات ذلك الفقر داخل تلك الأحياء . . هو فقدان كل عناصر الحياة الطبيعية . . سواء فى المسكن أو الملبس أو المأكل . .

أضف إلى ذلك ضعف مستوى الحياة إقتصاديا لمعظم سكان هذه الآحياء . . وتواضع إمكانياتهم المادية ، ولولا سهولة الحياة ورخصها فى هذه الفترة . لما تمكنت معظم الأسر المصرية التى كانت تسكن تلك الأحياء الفقيرة من مواصلة العيش الكريم . .

ولا شك كانت أسر هؤلاء الأربعة . . من بين معظم الأسر المصرية التى عانت كثيراً فى سبيل العيش الكريم . . خاصة فى هذه الفترة المبكرة من حياتهم ومن نشأة أولادهم . وكان عبد الوهاب بحكم مولده بالقاهرة سباقاً وأسرته للعيش فى ظل هذه الظروف الاقتصادية الصعبة . . ثم لحقت به أم كلثوم التى هاجر والدها إلى القاهرة مع مطلع العشرينيات ، وكذلك فريد الأطرش . . وعبد الحليم حافظ ، الذى نزح هو الآخر مع أسرته ليعيش فى حى السيدة زينب فى عام ١٩٤١ .

ولم يكن الفقر وحده هو أصعب ما واجهه هؤلاء الأربعة فى الفترة نفسها ، بل كان عليهم مواجهة نظرة المجتمع المتخلفة للفن ولكل المشتغلين به . هذه النظرة فى واقع الأمر لم تتوقف عند حدود بعينها . بل امتدت لتشمل كل سلوكيات الناس تجاه من كان يعمل بالفن . على الرغم من إقبالهم على مشاهدة أعمالهم وإعجابهم بما كانوا يقدمونه من ألوان الفنون . وقد واجه هؤلاء الأربعة تلك التحديات بشجاعة نادرة . . وحاولوا وفق ما كانوا يملكونه من مواهب تغيير نظرة الناس للفن . . وإثبات دوره وأهميته فى حياتهم .

ويا ليت أمر هذه النظرة المتخلفة قد توقف عند حدود الناس داخل مجتمعهم الكبير ، بل امتدت لتشمل كل أقاربهم . . وأهليهم . . ولعل ذلك يتضح بجلاء إذا ما رجعنا إلى ظروف الفترة الزمنية التى ظهروا بها وتعمقنا فى دراسة تلك الظروف الاجتماعية القاسية التى كانت سائدة مع مطلع القرن العشرين ! ، أو تلك المشاكل التى كانت تصادفهم عند دخول أحدهم شارع الفن ولو على سبيل المشاهدة !! .

ويكفى أن نذكر فى هذا السياق أن المرأة أو الفتاة لم يكن ليسمح لها بأن ترتاد مثل هذه الأماكن . . إلا فى القليل النادر ومن وراء حجاب . . وكذلك كان ينظر إلى المترددين على تلك الأماكن على أنهم من القوم الفاسقين ! .

ولنا كذلك أن نتخيل فى ظل نفس هذه الظروف موقف ومكانة فتاة مثل أم كلثوم . . إذ استطاعت بشجاعة أن تخترق ذلك الحصار الإجتماعى الذى ضُرب حول المرأة . . ثم تفرض سلطانها وسلطاتها وسلطات صوتها على كل من كانوا حولها من عناصر ذلك المجتمع . . وبلا تفرقة ، هذه السيطرة لم تتوقف عند حدود بعينها ، بل زحفت لتخترق كل مكان فى المجتمع . حتى دخلت قصور الأمراء والحكام . .

ولم يكن أمام الشيخ إبراهيم البلتاجى والد أم كلثوم من مفر للخروج من أزمته مع الفقر ، ومن نظرة المجتمع المتخلفة للفن وللعاملين به سوى إلباس طفلته الصغيرة زى الصبيان ! . هذا الزى الذى ظلت ترتديه أم كلثوم لسنوات طويلة حتى بعد

قدومها للقاهرة لأول مرة . وقد شاهدها كثيرًا بعض الذين عاصروها وهى ترتدى البالطو والعقال ، عندما كانت تغنى فوق أحد مسارح الأزبكية ! . بل وهناك بعض الصور الفوتوغرافية التى التقطت لأم كلثوم وهى بهذا الزى ! .

***

إن نظرة المجتمع القاسية ولا شك خاصة فى هذه الفترة وفى ظل الظروف الاجتماعية والاقتصادية الصعبة ، قد جعلت من هؤلاء الأربعة وعلى وجه الخصوص أبطالاً لأحداث بدأوا يخوضونها الواحد تلو الآخر ! . وقد بدأت أولى معاركهم بالتصدى لمحاربة الفقر ، ثم انتهت بوقوفهم فى شجاعة ضد هذه النظرة الاجتماعية المتخلفة للفن سواء ضد أقاربهم أو ضد الآخرين .

ولتأكيد ما كان يعانى منه هؤلاء ، سوف نحاول الاقتراب كثيراً مما سجله بعضهم فى أوراقه الخاصة . . خاصة عن ملامح صراعهم الذى دخلوه رغماً عنهم بسبب الاشتغال بالفن ! .

فقد نقل لنا عبد الوهاب إحدى المواقف الصعبة التى عانى منها من جراء صدامه الأول مع أخيه الكبير «الشيخ حسن» ، عندما قال فى هذا الشأن :

«كان أخى قد علم من بعض أهالى حى الشعرانى أننى أغنى على مسرح «الكلوب المصرى» ، وتطوع بعضهم بمصمصة الشفاة على ضياع أخلاقى وإساءتى بهذا الخروج على الدين الى سمعة العائلة وراحوا يقولون له : إزاى تسيبوه يعمل كده ؟! . وعيب ما يصحش . ولم يكن أخى حسن فى حاجة إلى من ينبهه إلى أن ظهورى على المسرح لأغنى «عذبنى فمهجتى فى يديك» . أمام الجمهور هو فعلاً «عيب وما يصحش» ، فقد كان فى ذلك الحين شيخاً معمماً يتلقى علومه فى الأزهر الشريف . ورأى فى عملى هذا مروقاً وقلة حياء . . كمان ! . وعنها . . فوجئت ذات ليلة وأنا أغنى على المسرح بأخى حسن يجذبنى من ذراعى ، ثم يربطنى بحبل متين من يدى وقدمى ! . . وحاولت أن أفهم منه سبب غضبه علىّ دون جدوى . فقد راح فى هدوء «يجرجرنى» فى الطريق وأنا مكتوف اليدين والقدمين ، على مرأى من المتفرجين والمارة «ومسح» بى الشوارع إبتداء من حى

الحسين حتى حارة الشعرانى . . وما أن وصلت البيت حتى كنت كالخروف المذبوح حين ينقلونه من السلخانه إلى مكان الجزار» . [١]

وفى المقابل ، كان تحايل الشيخ إبراهيم والد أم كلثوم على الواقع ، وهروبه المؤقت من المواجهة الاجتماعية سواء داخل مجتمعه الصغير فى القرية أو فى المدينة . . يمثل نوعاً من التحدى ، واللجوء إلى وسائل معترف بها لمحاربة الفقر . وقد تحمل وحده عبأ أن يحول إبنته الصغيرة إلى صبى ، فى سبيل العيش الكريم . . ولم تكن تلك الخطوة بالأمر الهين على نفس هذا الشيخ الذى كان يحب إبنته وولده الكبير . . إذ حكمت عليه ظروف المعيشة الصعبة أن يجبر إبنته على تغيير جنسها فى الظاهر !! ، وأن يفرض عليها نوعاً من الأعمال الشاقة رغم صغر سنها آنذاك .

ولأم كلثوم روايات كثيرة ذكرتها فى أوراقها الخاصة . . عن مدى المعاناة التى واجهتها فى فترة طفولتها وصباها . . وحتى من قبل أن يقتنع والدها بموهبتها الفطرية . . واكتشافه فى صوتها كنزاً سوف يعوضه عما يلاقيه من صعوبات اجتماعية .

ومما روته أم كلثوم فى هذا السياق قولها : «كان والدى يمارس الغناء ، وكنت أنا وشقيقى نتردد على كتاب القرية حتى إذا شب أخى ، أراد والدى أن يعلمه هذا الفن ليستعين به فأخذ يلقنه الأدوار والموشحات . . وذات يوم كلفه أن يحفظ موشحاً فلم يستطع حفظه ! . وظل يعيده عليه عدة مرات ولكن أخى لم يحفظ الموشح مما جعل والدى يعنفه ويضربه ، وكنت أنا فى خلال ذلك قد حفظته ووجدت فى نفسى ميلاً شديداً لإلقائه فأسرعت إلى والدى وقلت له ، هل تسمح لى بأن أسمعك هذا الموشح ؟! . وكان أبى محافظاً ولم يفكر يوماً فى أن أمارس الغناء فأجابنى : يا بت إتلهى ! . إللى أخوك ما هو عارف . . هتعرفى إنت ؟! . . ولما يئست من قبوله دخلت غرفة أخرى ، وبدأت أغنى الموشح فأنصت والدى حتى انتهيت منه وكأنه فى هذه الدقائق فقط عرف ما فى نفسى من ميل فطرى للغناء فاستدعانى وطلب منى أن أعيد الموشح فأعدته» .

***

(١) محمد عبد الوهاب . . لطفى رضوان - كتاب الهلال .

وحتى فريد الأطرش الذى لاقى نوعاً من التشجيع فى البداية لدخوله شارع الفن ، خاصة من والدته الأميرة علياء المنذر . قد واجه هو الآخر صعوبات بالغة فى ارتياده لهذا المجال . . وكانت تلك الصعوبات أنكى وأشد حيث واجهها مع بعض رموز المجتمع والمحيطين به . .

وقد وصلت تلك المواجهات فى كثير من الأحيان إلى حد تهديد مستقبله . . وقد كانت آنذاك بالنسبة له . . قضية حياة أو موت . . لأنها ارتبطت بمستقبله الدراسى ! .

وفريد الأطرش يحكى لنا جانبًا هاماً مما واجهه من صعوبات . . فيقول عن ذلك : «وما أن استتب لنا بعض الرزق عند بديعة حتى أصبت بصدمة كبرى . . فقد كان موعد تقديم الشهادة الابتدائية ، وذهبنا نلتقط صوراً ونعدها وعندما شرع تلاميذ الفصل فى كتابة استمارات الامتحان . . قال لى ناظر المدرسة : لن تتقدم للابتدائية مع زملائك ؟! . فارتعدت وسألته : كيف هذا يا حضرة الناظر؟ . فقال :

إننى أعرف أنك تعمل عند بديعة وقد سمعتك تغنى كلاماً جميلاً بالأمس من محطة . «إلياس شقال» . . فهل تعتقد أنك تستطيع النجاح ؟! . قلت يا حضرة الناظر إننى سوف أتفرغ للمذاكرة ، وسترى أننى سأنجح . . فقال بصراحة : لا تضيع وقتك ووقت زملائك . . لقد أصدرت أمراً وانتهى كل شىء . . فخرجت من المدرسة عدواً إلى البيت باكياً . .» .

ولقناعة فريد الأطرش الشخصية بموهبته أولاً ثم بمقدرته على المواجهة والفوز بالنجاح ثانيا . . فقد ظل يقاوم بإمكانياته المحدودة آنذاك ولم يستسلم حتى تمكن من إجبار ناظر المدرسة لإلغاء ذلك القرار فسمح له بالتقدم للإمتحان مثل بقية زملائه ! .

***

وكذلك كان عبد الحليم حافظ - الفارس الرابع - من الذين واجهوا صعوبات عديدة لأجل أن يشتغل بالفن ، حتى مع أقرب الناس إليه . . وكانت أولى تلك المواجهات مع خاله الذى تولى الإنفاق عليه من بعد رحيل والديه . إذ رفض متعنتاً أن يدخله شارع الفن . على أن يشارك أولاده فى إدارة المكتبة التى كان يمتلكها

(١) مجلة دنيا الفن - تاريخ حياتهم بأقلامهم - فى ١٩٤٧/١٢/١٨ .

لزيادة موارده . . ولولا موقف أخيه الكبير إسماعيل شبانه والذى كان يؤيد عبد الحليم فى اتجاهه للغناء لظل الموقف على ما هو عليه بدون تغيير .

بل وأكثر من ذلك ، فقد اضطر عبد الحليم حافظ للإقامة الدائمة والعيش فى إحدى الملاجيء فى مدينة الزقازيق ، وذلك من أجل تحقيق هذا الغرض . . وقد ظل به من سن السابعة وحتى بلغ السادسة عشرة من عمره . حصل خلالها على الشهادة الابتدائية .

وقد أفصح لنا الفنان إسماعيل شبانه عن بعض المعاناة والمواجهات الأولى فى حياة أخيه عبد الحليم فنراه يقول عن ذلك : « . . كان دخل خاله متواضعاً وقتئذ لذلك لم يكن يسمح له بالإنفاق علينا بجانب أسرته فألحقه بالملجأ كصبى . . كما جعلنى أنا وأخى محمد نعتمد على أنفسنا فى الحياة بالإشتغال عمال فى مصنع الغزل بمدينة المحلة الكبرى» .

كما أكد إسماعيل شبانه فيما رواه عن عبد الحليم حافظ ونقله عنه الناقد الراحل محمد شوشة . . « أن عبد الحليم حافظ انقطع للدراسة فى الملجأ ، فدرس فيه المواد المقررة على تلاميذ المرحلة الابتدائية بجانب الموسيقى والتى لم تكن آنذاك مادة أساسية ، فإن التلميذ اليتيم كان ينبغى عليه أن يتعلم صناعة . . ليقدم بها إنتاجاً للملجأ فى مقابل إقامته فيه فكانت الصناعة التى تعلمها عبد الحليم هى تصليح البسكلتات «الدراجات» والموتوسيكلات وقد حفظ الجميل فيما بعد لأستاذه فى تلك الصناعة واسمه الأسطى حسين على زينهم» [١]

***

ورغم نجاح الأربعة الكبار فى معركتهم ضد نظرة المجتمع المتخلفة للفن . . وفى إثبات الذات والفن والهواية بالإعتماد فقط على المواهب الفطرية . . فقد فشلوا فى تحقيق تلك الخطوة فى معركتهم ضد الفقر وضد ظروف المعيشة الصعبة . . وذلك لأسباب كثيرة . . كان معظمها يرتبط بأحوال المجتمع المصرى فى ذلك الوقت . . ومما لاحظناه عند الكشف عن مواقف هؤلاء وتفاصيل معاركهم مع الفقر . . أن ثلاثة فقط منهم هم الذين اعتنوا فقط بتصوير تفاصيل ما قاموا به من تحديات داخل معركتهم مع الفقر . وكانت أم كلثوم بالذات على رأس هؤلاء الثلاثة . . ثم تبعها فى ذلك فريد

(١) عبد الحليم حافظ – مداح القمر – محمد السيد شوشة .

الأطرش وعبد الحليم حافظ . . أما الموسيقار محمد عبد الوهاب . . فقد أغفل جوانب عديدة . لم يفصح عنها بالشكل المطلوب . وكأنما كان يريد أن يقول لكل من حوله . . إن مسألة الفقر هذه لم تؤثر كثيراً في مسيرة حياته الفنية ! وحتى ما ذكره في هذا السياق قصد من ورائه خدمة بقية مسيرة حياته . . مع أن العكس كان يجب أن يكون هو الصحيح . . خاصة في حالة فريد الأطرش الذي تنحدر أصوله من سلالة سلاطين وملوك . ولسوف نلاحظ أن فريد الأطرش كان أكثر صراحة مع نفسه ومع الآخرين وهو يتحدث عن أيام فقره في ظل تغير ظروفه الاجتماعية .

وكان علينا من أجل بيان ذلك الفارق في طريقة تناول كل من هؤلاء الأربعة لظروف حياتهم المعيشية في ظل الفقر والحاجة . ضرورة أن نقترب مما سجله هؤلاء في أوراقهم الخاصة . والإطلاع على ما سجلوه من كلمات ولسوف يوضح ذلك ما قصدناه من تعليقنا السابق ، في ظل تصوير كل منهم لحالة الفقر التي عاش في ظلها . . وتأثير تلك الحالة على اتجاهه ناحية طريق الفن بلا مساندة إلا من موهبته التي اقتنع بقوتها وقدرتها على إخراجه من دائرة ذلك الفقر !

فأم كلثوم صورت لنا نشأتها المتواضعة في ظل معيشة صعبة وفقر كبير ، وذلك في عبارات بسيطة وتلقائية . ومما روته عن ذلك قولها : «ولدت في قرية متواضعة صغيرة ، قديمة كسائر القرى . . وهي في القاموس الجغرافي اسمها الأصلي طموية وقد جعلها على باشا مبارك في الخطط التوفيقية ، وظلت على هذا الوصف حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وإن طرأ عليها عدة تغيرات . . وظلت بسيطة ومتواضعة ولا يرتفع فوق أرضها إلا بيوت معدودة طلاها أصحابها باللون الأبيض» .

إلى جانب ذلك كانت هناك عشرات الصور التي سجلتها أم كلثوم والتي نستشعر من خلال الوقوف على تفاصيلها حجم الفقر والحاجة التي عاشت في ظلها طفلة صغيرة مثلها . . ومن هذه الصور قولها على سبيل المثال : «ركبنا مرة القطار لمدة ساعتين ونصفاً ، ثم ركبنا الحمير لمدة ساعتين ونصف الساعة ، لكي نصل إلى «الكفر» الذي سنحيي فيه ليلة الفرح . . ولما وصلنا بسلامة الله بعد هذا المشوار الشاق الطويل . . تبين لنا أن الفرح قد تأجل» .

وصورة أخرى ذكرت فيها : «كنا نضطر إلى الانتظار ١٢ ساعة على الرصيف وكان الإنتظار في معظم الأيام وسط البرد الشديد ، أو تحت الأمطار الغزيرة التي

كانت تحرص على استقبالنا فى كل محطة نلجأ إليها» ! كما أوضحت أم كلثوم إلى جانب ذلك، . . مدى صعوبة حياتها المعيشية فى ظل أسرة فقيرة ، كان عائلها لا يكاد يجد النقود للإنفاق عليهم إلا بشق الأنفس فقد قالت :

«كان والدى يعمل إمام مسجد قرية طماى الزهايرة ، وكان مرتبه من هذه الإمامة لا يكفى للصرف على أسرته ، ولهذا كان يقرأ فى الموالد ، وكان دخله من عمله الإضافى وعمله الأصلى لا يتجاوز عشرين قرشا . .»[1]

وكما نعلم جميعا ، فإن الفقر . . معناه فقدان أبسط قواعد الحياة الكريمة ، ليس فى المأكل والملبس فقط . . بل وكذلك فى مجال الرعاية الصحية ! . وفى ظل فقدان هذه الرعاية على المستوى الإجتماعى آنذاك . . فقد عانت أم كلثوم وأقرانها من أبناء القرى والنجوع . . مشاكل صحية خطيرة . . تركت آثارها واضحة على حياتها فيما بعد . . فقد أصيبت أم كلثوم بالفعل وهى طفلة بمرض فى عينها . . ولما لم يجد والدها ثمن الدواء أو العلاج . إضطر لبيع بعض ما كانت تملكه زوجته من بعض قطع الذهب البسيطة . ولولا تدخل العناية الإلهية والإسراع فى إحضار الدواء المطلوب . . لأصيبت أم كلثوم بعاهة مستديمة فى عينها . . ولتحولت مع الأيام إلى طه حسين آخر ! .

ولقد سبق لنا القول بأن فريد الأطرش كان صادقا مع نفسه مثل أم كلثوم خاصة فى حديثه عن حالات فقره والمشاكل التى واجهها فى ظل هذا الفقر ! . رغم أنه كان أميراً . ومن هنا كان علينا أن نواصل الحديث معه من خلال ما سجله عن حالته هذه . . لولا أننا رأينا أن الفنان عبد الحليم حافظ يستحق ذلك التقديم . . وذلك بسبب إرتباطه بالقرية وبالعيش فى ظل ظروفها المعيشية الصعبة . تماماً مثل أم كلثوم . . ولسنا فى حاجة إلى نذكركم فى هذا السياق . . بأن كل من عبد الوهاب . وفريد الأطرش قد عاشا وتربيا فى المدينة . . بعكس كل من أم كلثوم وعبد الحليم اللذان ولدا وعاشا فترة لا بأس بها من حياتهما فى القرية . وذلك من قبل أن يهاجرا إلى المدينة ! .

لقد كانت حياة عبد الحليم حافظ فى قريته «الحلوات» . . فى غاية الصعوبة مادياً واقتصادياً وفى ظل عدد من الأولاد كثير ! ودخل قليل . . ورحيل مبكر لوالده وقد صور

---

(١) مذكرات أم كلثوم – مجلة «هى» وأخبار اليوم .

لنا تلك المعيشة وهذه الظروف فى كلمات فى غاية البلاغة . . فنراه يقول عن ذلك على سبيل المثال : «طفولة تعيسة ، فلم أشعر فيها بطعم السعادة . . وكل ذكرياتها مؤلمة» .

هذه الطفولة التعيسة التى يشير إليها عبد الحليم فى أوراقه الخاصة . امتدت به حتى بلغ سن السابعة من عمره . . عندما دخل ملجأ الأيتام للإقامة به بصفة دائمة ! نظراً لحالة الحاج أحمد عكاشة الإقتصادية وهو الذى تكفل برعايته ورعاية كل أخوته من بعد رحيل والديه ! .

وهناك عشرات المواقف الصعبة التى نتمكن من خلال الوقوف على ما بها من تفاصيل من معرفة حالة الفقر التى اجتاحت حياة هذا الفنان مرهف الحس . . ولازمته حتى وقت قريب من فترة شبابه . هذه المواقف قد أشار إلى معظمها عبد الحليم نفسه فنراه يقول عن ذلك : « . . وحين حصلت على الشهادة الابتدائية من الزقازيق ، أصبح هدفى الأول أن أواصل تعليمى مهما كانت الظروف والعقبات ، وأن أزيل هذه الأشواك التى تدمى قلبى وقدمى» .

كما أشار إلى بعضها العديد من أصدقاء عبد الحليم حافظ من الذين التقوا به فى هذه الفترة المبكرة من حياته ، وها هو الكاتب الصحفى مفيد فوزى يقول فى وصفه لإحدى هذه الصور : «قابلت عبد الحليم ذات مساء فى يوم ٨ أغسطس عام ١٩٥٣ ، والتقينا وتصادقنا ، فقد كان كل منا والقياس مع الفارق يحلم ، وكانت أحلام يقظتنا كبيرة . . وكنا نمشى أنا وهو من المنيل إلى شبرا حيث كنت أسكن فى شارع رائف بالترعة البولاقية»[1] .

ولا ننسى أن نشير فى هذا السياق إلى أن حالة الفقر التى عاشها عبد الحليم وأسرته قد أثرت تأثيراً كبيراً على صحته ، إذ اصيب فى بداية حياته بمرض البلهارسيا . . ولم يكن يجد المصاريف للعلاج . . حتى أتى عليه هذا المرض فى نهاية حياته ، وتسبب فى رحيله مبكراً .

وعبد الحليم نفسه قد وصف لنا بداية إصابته بمرض البلهارسيا . . حين قال : «لا أنسى يوم أن تخليت عن ترددى وخوفى أمام الأطفال وخلعت ملابسى وألقيت بنفسى فى مياة الترعة . . هذا التشجيع الذى وجدته منهم والذى دفعنى لتكرار

(١) صباح الخير – أفقر الفقراء – مفيد فوزى ، ١٩٧٧/٤/٢١ .

المحاولة . . قد جعلنى من عشاق النزول فى غيطان الأرز التى تغرقها المياه الراكدة . . وفى مياه الترع وشعورى بأننى مثلهم جرىء . . لكن صداقات هؤلاء الأطفال فى الحلوات جلبت لى المتاعب . . وكان ذلك حين دخلت مرة إلى دورة المياه واكتشفت أننى أنزف دماً . . إنها البلهارسيا اللعينة . . وكانت تلك بداية رحلتى مع المرض . . فقد كتب على أن أعيش داخل المستشفيات ولم يتجاوز عمرى العاشرة» .

***

وحين يأتى الحديث عن الفارس الثالث من هؤلاء الفرسان الكبار . . ونعنى به فريد الأطرش . . نجد أن ظروف الفقر التى عصفت به ، قد لاحقته وهو فى سن مبكرة من طفولته ، وكان من قبل قد عاش قسطاً يسيراً من حياته . . داخل أحضان قصور والده أمير الرروز بجبل لبنان . وقد وصف لنا فريد الأطرش حياته هذه فى بعض الصور التى عايشها ، وذلك من قبل أن يدركه الفقر وأسرته الصغيرة . فنراه يقول عن ذلك : «ولدت فى عائلة الأطرش المعروفة والتى كانت ولا تزال تتزعم قبائل الدروز ، وألحقنى كبقية أبناء العائلة ، أنا وشقيقتى آمال وشقيقى فؤاد بروضة الأطفال ولم يحدث شىء يذكر يمكن أن يكون شيئاً أثناء حياتنا الدراسية فى روضة الأطفال حتى شبت الثورة بين الفرنسيين وبين قبائل الدروز . . وخشى والدى أن يصيبنا أذى فأشار على والدتى بأن تصحبنا إلى مكان هادىء فانتقلنا إلى مصر فى عام ١٩٢٤» (١)

هذا العيش الطيب فى رحاب القصور والزعامة . . لم يدم إلا ثمانى سنوات فقط . . وبعدها ركب فريد وأسرته قطار الفقر السريع بدءاً من عام ١٩٢٤ . . ليلحق بذلك بالثلاثه الآخرين . . هذا القطار الذى لم يتوقف بهم فى محطة آمنة إلا بعد سنوات قضوها داخل أحد الأحياء الشعبية . . وذلك فى ظل معاناة شديدة نجمت عن إنتهاء المخزون المالى الذى جاءت به أمه من الشام . . وقد عبر فريد الأطرش عن تلك المعاناة أصدق تعبير . . فنراه يقول بلا مواراة أو خجل : «مرقنا إلى باب البحر ، وأمضينا أكثر النهار نبحث عن مسكن ، وبنات البلد مطلات من النوافذ ، يتناقلن عبارات غريبة على أسماعنا ، وما كانت تردده إمى ، التى بدت متعبة من كثرة التجوال والسؤال . . وتقدمت إلينا ذات الشهامة منهم فدلتها على شقة من حجرتين وملحقاتها والأجرة ستون قرشاً ! . وما كادت إمى تستريح حتى عادت

(١) مجلة دنيا الفن – الصادرة فى ١٩٤٧/١٢/١٨ .

إلينا لكى تشترى لنا الطعام ، ولما طالت غيبتها إحتجت أمال بالدموع . . أما أنا فسألت فؤاد شقيقنا الذى كان يكبرنى بخمسة أعوام . . فؤاد ماذا حدث ؟! . وهل سنسكن هاتين الحجرتين . . بدلا من قصرنا فى بيروت»[1]

وأمام هذه الظروف الجديدة التى فرضت نفسها على حياة فريد الأطرش وأسرته الصغيرة . . لم يكن أمامه سوى الإستسلام لمشيئة القدر . . والعيش فى كنف تلك الظروف ، على أمل أن يتغير الحال ، ويعود أميراً من جديد ! . ولما طالت هذه الأيام ، وأخذت الأحلام تتبدد وتفر من بين الأصابع خلسة ! . إضطر بقبول الواقع صاغراً .

ومما قاله فى هذا الشأن : « . . ومع مرور الأيام بدأنا نوطن النفس على الحياة الجديدة ، حين بدأت إمنا تطبخ وتغسل ، وتقوم بأعمال البيت ، خفيفها وثقيلها . أما نحن فنشترى الفول فى أطباق من الصاج والخبز من مخبز على قارعة الطريق . .» .

لقد كانت فى حياة فريد الأطرش ، كما كانت فى حياة كل من أم كلثوم وعبد الحليم حافظ صوراً أخرى كثيرة ، وقد أوضحت لنا تلك الصور كيف كان يعيش هو وأسرته فى ظل حالة الفقر التى إنقلبت فى حياتهم . . ما دفعه مثل الآخرين فى طريق الفن . . وقد سبقته إمه الأميرة علياء إلى ذلك الطريق . . هذا الفن الذى كان يمثل بالنسبة لهم جميعا . . طوق النجاة الذى ساهم كثيراً فى هروبهم من شبح الفقر ، وركوبهم قطار الشهرة والجاه والأموال . .

***

وأخيراً يتوقف بنا حديث الفقر والحاجة – فوق هذه الأوراق أمام حالة الفنان الذى هرب من دائرة الفقر حتى وهو يكتب مذكراته . . وقد سبق وأوضحنا كيف تمكن محمد عبد الوهاب وبإقتدار من إغفال جانباً كبيراً من حياته ، حيث نشأ فقيراً ووسط أسرة فقيرة ، مما جعل العديد من النقاد ومن المؤرخين يتولون هذه المهمة بدلاً منه ، ولولا شهرة فنان كبير مثله وأهمية دوره فى دفع عجلة تاريخ الفن ، لما اجتهد هؤلاء وأجهدوا أنفسهم لإظهار ما فى حياته من خفايا ارتبطت بنشأته الأولى . .

وكان فى مقدمة من قدم لنا معلومات جديدة عن حياة محمد عبد الوهاب ؛ وعلاقته بالحارة . . هو الناقد والمؤرخ الفنى الراحل كمال النجمى الذى ذكر أن الفنان محمد عبد الوهاب ولد فى حارة برجوان بحى باب الشعرية بالقاهرة . . وهى

(١) لحن الخلود – فريد الأطرش – فوميل لبيب .

حارة كانت فى الماضى البعيد مكاناً يجتمع فيه المغاربة الوافدين إلى القاهرة والمهاجرين إليها . وكان والده الشيخ الفقير عبد الوهاب أبو عيسى يعمل مؤذناً فى مسجد الشعرانى بنفس حى باب الشعرية ، وهو يستكمل رزقه القليل من تلاوة القرآن الكريم فى مآتم الحى أحيانا . . ثم أضاف كمال النجمى بخلاف ذلك قوله : «ووالد الفنان محمد عبد الوهاب . قد نزح من قريته الصغيرة بمديرية الشرقية طلباً للرزق فى القاهرة الواسعة . . ووجد بعد معاناة . . وظيفة مؤذن فى مسجد الشعرانى ، فاستقر بتلك الوظيفة واتخذ من القاهرة مؤئلاً وموطناً» .

كما أشار كمال النجمى أيضا فيما يخص حياة عبد الوهاب الأولى أن بعض الذين كتبوا عن هذا الفنان العبقرى وربما بإيحاء منه قد أشاروا إلى الشيخ الشعرانى ووصفوه بأن الجد الأعلى لمحمد عبد الوهاب . . وفى الحقيقة ، فإنه لا صلة على الإطلاق بينه وبين نسب الشعرانى - صاحب المسجد - إلا الصلة الروحية التى شهدت طفولته وصباه وباكورة شبابه . وقد حاول عبد الوهاب نفسه طلباً لمزيد من محبة الناس له أن ينتحل هذا النسب حيث سمعناه فى مرة يقول فى حديث إذاعى ؛ جدى هو الشيخ الشعرانى الكبير .[1]



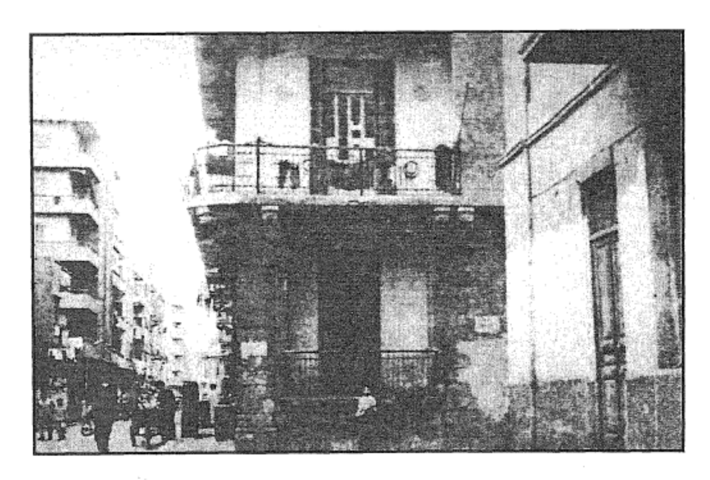
(١) محمد عبد الوهاب مطرب المائة عام - كمال النجمى .



● الفنان محمد عبد الوهاب يعرض على أخيه الشيخ حسن أحدث أعماله الفنية !!



● الفتاة أم كلثوم .. من طماى الزهايرة إلى رحاب الفن



● المنزل الذى عاش فيه فريد الأطرش فى حى باب البحر



● عبد الحليم حافظ مع إحدى قريباته فى مدينة الزقازيق

الفصل الثالث

التلقى والتقليد ثم التألق ومن بعده الشهرة والنجومية

من خلال الوقوف على قصة حياة هؤلاء الأربعة ، خاصة علاقتهم بالفن . . والاطلاع على العديد من المصادر المروية أو المكتوبة . . رأينا أن هؤلاء الكبار قد ارتبطوا بأربعة مراحل لعبت كل مرحلة منها دورها البارز والمؤثر فى حياتهم الخاصة وفى مسيرتهم الفنية . بل وفى تصورنا فقد تركت آثارها واضحة على مسيرة تاريخ الفن المصرى والعربى فى العصر الحديث بشكل عام .

ويأتى فى مقدمة هذه المراحل ، مرحلة «التلقى والتقليد» ، التى اختلف تأثيرها ومداها الزمنى فى حياة هؤلاء باختلاف الظروف التى مرت بكل منهم ، وكذلك بنظرة المجتمع إلى الفن . كما تميزت هذه المرحلة عن غيرها من المراحل الأخرى بأنها كانت من أصعب المراحل التى لعبت دورها الكبير فى مسيرة حياة هؤلاء جميعاً . كما ارتبطت فى الوقع بإرادة التحدى والمقاومة سواء بالنسبة لما كان سائداً فى مصر خاصة ، سواء فى مجتمعهم الصغير داخل الأسرة أو فى المجتمع الكبير ورموزه ! . كما ارتبطت هذه المرحلة بحالة الفقر التى مروا بها جميعاً .

ومن بعد مرحلة التلقى والتقليد . . تطفوا إلى السطح المرحلة الثانية وهى ما أطلقنا عليها «مرحلة التألق» . وهى التى شهدت بزوغ نجم هؤلاء الأربعة وتمكنهم من فرض سلطانهم الغنائى والموسيقى . . بعدما تصالحوا مع أفراد أسرهم بإقناعهم بدورهم ومواهبهم وإمكانياتهم ! .

وقد بانت ملامح هذه المرحلة فى حياة هؤلاء منذ أن لفتوا الأنظار لما كانوا يقدمونه من ألوان فنية جديدة . . الأمر الذى جعل منهم محط أنظار رجال الإعلام والصحافة الذين سعوا لتسليط المزيد من الأضواء على مواهبهم وعلى نشاطهم وتألقهم الفنى كل فى ميدانه ! .

ولا ننسى أن نشير فى هذا السياق إلى أن هذه المرحلة قد شهدت هى الأخرى تحديات وصعوبات واجهت هؤلاء العظماء . خاصة فى بدايتها . وذلك فى ظل منافسات فنية شرسة ووجود فنانين كبار آخرين كانوا يسعون لتأكيد تواجدهم ضد هذه الموجة الفنية الجديدة . وأكثر من ذلك نقول إن هذه المرحلة قد شهدت أيضا بدايات التنافس والصراع بين الأربعة الكبار بعضهم ضد بعض . حتى أن الواحد منهم كان يسعى للقضاء على الآخر ، سواء بطرق مشروعة أو بغير مشروعة .

ومع مرور الأيام والسنين ، ونجاح هؤلاء الأربعة فى تثبيت أقدامهم داخل شارع الفن . . بدأت ملامح المرحلة الثالثة تظهر فى الأفق ، وهو ما أطلقنا عليه «مرحلة الشهرة» . هذه المرحلة هى التى شهدت بحق اقتراب هؤلاء جميعا ، بلا منافس من كل عقول وقلوب وعيون الجماهير سواء من المستمعين أو من المشاهدين . . وقد باتوا ينتظرون ظهور أعمال فنية جديدة لهم سواء فى الإذاعة أو فى السينما .

وكان من أهم ملامح هذه المرحلة . . زيادة جرعة الشهرة فى حياة هؤلاء نظراً لما كانوا يقدمونه من ألوان من الفنون فاقت ما كان يقدمه غيرهم آنذاك . وبالتالى فقد شهدت إنطلاقهم فى رحاب المجد ودخولهم أفاقاً جديدة مثل العمل بالسينما .

ليس هذا فقط ، بل وتحولوا فى ذات المرحلة إلى مصادر لكل ماهو جديد سواء فى الملبس أو المسكن أو فى ركوب السيارات . . وقد أخذ يقلدهم كل الناس ويمشون وراء ما يقومون به بلا وعى أو تفكير ، ولذلك نحن نعتبر أن هذه المرحلة ، كانت من أطول مراحل حياة الأربعة الكبار . . حيث إنطلقوا من بعدها بسرعة ليدخلوا إلى المرحلة الأخيرة . وهى «مرحلة النجومية» والتى ظلوا بداخلها متربعين فوق كل مقاعدها بلا منافسين حتى يوم الرحيل ! .

ونظراً لأننا نعتبرأن هذه المراحل الأربعة ، هى التى شهدت كل تفاصيل حياة هؤلاء الكبار . . خاصة داخل شارع الفن . . فقد رأينا أن نتحدث أولاً عن مرحلتين فقط ، هى الأولى والثانية . . ويشمل حديثهما كل أوراق هذا الفصل . ثم نستكمل بعد ذلك حديث بقية المراحل . .

وما نود أن نشير إليه هنا . . أن تلك المراحل ، لم يكن يحددها فواصل زمنية معروفة . . وإنما تداخلت أحداثها فى كثير من الأحيان . . مما جعل هناك صعوبات بالغة فى تحديد البدايات أو النهايات . كما كانت بخلاف ذلك غير متساوية فى سنواتها ، وبالتالى فقد كان توقيت دخول هذه المراحل خاصة الأولى والثانية بالنسبة لعبد الوهاب كفنان مبدع وأم كلثوم كسيدة للغناء العربى متقارب إلى حد بعيد ، وكذلك بالنسبة لفريد وعبد الحليم ، اللذين إختلفا فى دخول تلك المراحل زمنياً بحكم فارق السن ، . . وبحكم الفترة الزمنية التى ظهرا خلالها . . كما لاحظنا فى الوقت نفسه وجود آفاق تشابه مشتركة بين هؤلاء الأربعة داخل المرحلة الواحدة ، وربما يعود ذلك إلى تشابه البيئات والظروف الاجتماعية التى عاشوا فى ظلها أو مروا بها .

هذا التشابه الملحوظ قد أخذ فى التباعد والميل ناحية الإختلاف خاصة فى آخر مرحلتين . . إذ لعبت الإمكانيات وقوة النفوذ الفنى والريادة ومعرفة أسرار النجاح داخل شارع الفن الدور الأكبر فى تحديد تلك الاختلافات وبيان أصولها . .

ولا شك أن الوقوف بالتفصيل على أحداث هاتين المرحلتين ومعرفة أسرارهما سوف يوضح لنا الشيء الكثير مما كنا نجهله عن حياة هؤلاء ، وعوامل التأثير والتأثر التى عايشوها فى حياتهم خلال فترة النشأة سواء داخل الأسرة أو حتى خارجها . وكما تعودنا من قبل ، ووفقنا للترتيب الذى ارتضيناه منذ البداية معاً فوق هذه الأوراق . . كان لا بد لنا من أن نبدأ حديث المرحلة الأولى والمرتبط بالتلقى والتألق . . عن الفنان القدير محمد عبد الوهاب . ثم نتبع ذلك بحديث الفنانة العبقرية الأخرى أم كلثوم ومن بعدها كل من فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ .

ومما لاحظناه بخصوص آفاق التشابه المتعددة بالنسبة لتفاصيل هذه المرحلة فى حياة كل من عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد وعبد الحليم- على الرغم من الفارق الزمنى الذى أشرنا إليه من قبل- أن أولى ملامح هذه الآفاق قد تجلت فى تأثر كل من هؤلاء الأربعة بالأب صاحب الصوت الجميل الذى بانت حلاوته فى تلاوة القرآن أو إقامة الآذان للصلوات الخمس .

ليس هذا فقط . . بل وكانت بداية هؤلاء الأربعة وبلا استثناء متوقفة على تقليد غيرهم من فنانى عصرهم ، مع إختلاف ذلك التوقيت وكذلك الهدف . . والعجيب وكما سوف نلاحظ . . أن فنانا قديراً مثل عبد الحليم حافظ . . كان إمامه وإستاذه فى التقليد هو الفنان الموسيقار محمد عبد الوهاب ! . بل وأكثر من ذلك فقد كان إتقان عبد الحليم فى تقليد بعض أغنيات محمد عبد الوهاب أمام لجنة الإستماع بالإذاعة . . هو بمثابة جواز مروره لإعتماده مطرباً بعد ما كان من قبل عازفاً موسيقياً لإحدى الآلات المعروفة .

وكذلك فإن حفظ القرآن الكريم ، وتجويد بعض آياته ، بحكم البيئة الدينية التى عاشوا بها . . كان له تأثير السحر فى إتقانهم لحرفة الغناء . . خاصة بالنسبة لمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم .

ولا ننسى كذلك أن نشير فيما يتعلق بآفاق هذا التشابه فى حياة هؤلاء الأربعة خاصة بالنسبة لمرحلة التلقى والتقليد ، إلى دور البيئة الزراعية التى عاشوا بها حيث الخضرة وراحة البال ، والهدوء ، والتى لعبت هى الأخرى دوراً كبيراً فى تألقهم سواء فيما كانوا يقلدونه أو يجيدونه من تلقاء أنفسهم . وقد عرفنا من قبل كيف وأين عاشوا فى طفولتهم وفى صباهم ، وهى الفترات الأولى التى شهدت ظهور مواهبهم الفنية المرتبطة بحلاوة الصوت .

ولقد أثبتت وقائع حكايات هؤلاء الأربعة أنهم تلقوا مبادئ الفن الأولى داخل أسرهم بطريق غير مباشر . . وكانت بذلك أولى بشائر هذا التلقى فى حياتهم . حيث تأثروا جميعا بحلاوة الصوت الذى كان يتحلى به كل من الشيخ عبد الوهاب أبو عيسى والشيخ إبراهيم البلتاجى والشيخ على شبانه . . وكذلك تأثر فريد الأطرش بحلاوة صوت والدته الأميرة علياء المنذر . بل وأكثر من ذلك فإن فنانة عظيمة مثل أم كلثوم . قد هيأت نفسها ودربت صوتها فى هذه المرحلة لمساعدة والدها فى حفلات الإنشاد الدينى إلى جانب أخيها الشيخ خالد ! . وكذلك فعل فريد الأطرش الذى نزل إلى ساحة الفن مثل أم كلثوم مبكراً وذلك لمساعدة إمه حين كانت تعزف على عودها المشهور آنذاك فى سرادقات الفن بحى روض الفرج بدءاً من عام ١٩٢٥ .

بل وكان فنان مثل عبد الحليم حافظ . . قد استغل فترة التقليد هذه فى كسب لقمة العيش حين كان يشارك وهو لايزال صبيًا فى الحفلات الموسيقية التى كان يقيمها ملجأ الأيتام . . وذلك بالعزف على إحدى الآلات التى تم تدريبه عليها ! .

ورغم هذا التأثير المبكر فنياً فى حياة هؤلاء الأربعة والذى بدأ من داخل الأسرة . . فإنه لولا وجود موهبة فنية متأصلة قد خُلقت معهم حين جاءوا إلى الحياة . . لما تمكنوا من التواصل فنياً . . وما وصلوا إلى ما وصلوا إليه ، والأدلة على ذلك كثيرة : منها على سبيل المثال أن فناناً مثل اسماعيل شبانة . كان قد ظهر قبل ظهور أخيه الصغير عبد الحليم داخل شارع الفن . . ومع ذلك لم يحظ بما حظى به عبد الحليم حافظ . . وكذلك كان الشيخ خالد الأخ الأكبر لأم كلثوم ، والذى فشل هو الآخر سواء وفق إرادته أو إرادة والده فى أن يكون مطرباً مثل اخته الصغيرة . وقد رأيناه من بعد دخول اخته إلى دائرة الشهرة ينسحب من شارع الفن ، مكتفيا بأن يكون مديراً لأعمالها هو ووالده .

أما الفنان فريد الأطرش ، فهو الوحيد الذى خرج عن هذه القاعدة ، عندما تساوت موهبته الفنية مع موهبته اخته الفنانة أمال أو أسمهان والتى أصبحت بعد أشهر قليلة أحد مشاهير الفن الغنائى فى ذلك الوقت . بل وكان لها الفضل الأكبر فى الأخذ بيد فريد بقوة فى داخل شارع الفن . . ونحو المجد والشهرة والنجومية .

***

ومن الملاحظات الواجب ذكرها فى هذا السياق ، هو ضرورة التأكيد على أن مرحلة التقليد فى حياة هؤلاء الكبار . إنما فرضت عليهم فرضا ، إما بسبب البيئة التى عاشوا بداخلها ، أو بسبب الحاجة والفقر ورغبة أولى الأمر فى أن يساعدهم أبنائهم . ومع ذلك فلولا وجود الموهبة ، لما استجابوا بسرعة لمجالات هذا التلقى ، أو تأثروا به . .

ولدينا نماذج قد أثبتت ذلك بوضوح . . وأولها أم كلثوم ثم فريد الأطرش وأخيراً عبد الحليم حافظ . . هذه المواهب ذاتها كانت صاحبة الفضل الأكبر فى انتقالهم جميعا إلى الجزء الثانى من هذه المرحلة . . ونعنى بذلك التقليد الذى لعب الدور الأساسى فى نجاحهم فى وضع أقدامهم على أول طريق الفن ! . كما دفعهم فى

الوقت نفسه للخروج من نطاق سيطرة الأسرة . حيث أصبح المجال أمامهم أوسع وأرحب . كما مكنهم فى الوقت نفسه من البحث فيما هو موجود حولهم وغير مناسب . . إعتماداً على مواهبهم ، وإتقان كل منهم وسائل إظهار حلاوة الصوت ! .

***

ونحن نعتبر مرحلة التلقى هذه كانت من أزهى مراحل حياة هؤلاء الأربعة فنياً . . إذ لم يصادفوا فيها ما صادفوه من مشاكل مع أولياء أمورهم بسبب اشتغالهم بالفن بل بالعكس فقد أدخلت هذه المرحلة السرور على نفوس أولياء أمورهم- وذلك عندما شاهدوا أولادهم يقلدونهم فى التجويد والتلاوة والإنشاد . . إعتقاداً منهم بأن هذه الخطوة سوف تساهم بشكل عملى فى دخولهم إلى نطاق العون والمدد . . إذ سيقبل أولادهم على مساعدتهم فى نفس مجالهم الدينى . وقد بدت بوادر ذلك الترحيب فى حالة أم كلثوم التى كان يصطحبها والدها لمشاركته فى إحياء الحفلات الدينية . والتى ساهمت فى زيادة الإقبال على تلك الحفلات . . وبالتالى زيادة مصادر رزقه .

ولقد أكدت أم كلثوم نفسها وفى أوراقها الخاصة أنها ساهمت فعلاً فى إحياء بعض هذه الحفلات فى مصاحبة أبيها وأخيها فى مقابل قطع حلاوة ، أو الحصول على قرش صاغ أحمر ! .

إن هذه الموهبة المبكرة قد أثلجت صدر والدها الشيخ إبراهيم ، وجعلته يتمسك أكثر بمشاركة طفلته الصغيرة فى كل الحفلات أو المناسبات الدينية التى كان يحييها سواء فى قريته أو فى القرى المجاورة . وقد ظلت أم كلثوم هى الأخرى تسير وفق تقاليد والدها سواء فيما كانت تغنيه من مواويل دينية . أو فى إرتدائها لزى الصبيان ! . كما ظلت كذلك متمسكة بهذه التقاليد حتى من بعد إقامتها الدائمة بالقاهرة .

وكذلك كان تقليد محمد عبد الوهاب لأبيه وأخيه الشيخ حسن ، من الأمور التى فرضت عليه مبكراً حضور حلقات الذكر والإنشاد الدينى التى كانت تقام آنذاك فى حى الشعرانى والأحياء المجاورة . . وكان الصبى عبد الوهاب كثيراً ما يساهم فى هذه الحلقات ، مقلداً لشيوخها . . وقد لاقى فى ذلك تشجيعاً كبيراً من

أسرته ، على أمل أن يروه فى يوم من الأيام منشداً أو قارئاً للقرآن . . مكملاً رسالة والده . . الذى كان يتمتع بصوت جميل .

ولكل من أم كلثوم وعبد الوهاب ذكريات طيبة ارتبطت إلى حد بعيد بمرحلة التقليد هذه . . وهما يذكران ذلك بالتفاصيل . . رغم أنها وقعت وهما فى سن صغيرة . .

ومما ذكرته أم كلثوم عن بداية إرتيادها لهذه المرحلة قولها : «ومن الصور التى تعيش فى ذاكرتى صورة أبى وهو جالس على الأرض يعلم أخى قصة النبى ، والقصائد والتواشيح ليساعده فى عمله الذى يقوم به . . وأذكر أننى لم أكن أهتم بالجهود التى يبذلها أبى لتعليم أخى وتحفيظه هذه القصائد . . لقد كنت فى شغل عنها باللعب مع أجمل فتاة فى الدنيا مع عروسة جدتى . ولكن يظهر أن التكرار بدأ يتحكم فى ذاكرتى لأننى بدأت وعمرى خمس سنوات أقلد أبى من وراء ظهره ، أقلده وهو يعلم أخى خالد . . وفى أحد الأيام اصطحبنى أبىَ ووقف وراء الباب يرقبنى وأنا أقلده ، فلما انتهيت من تقليده قال لى : تعالى معايا حفلة شيخ البلد ، قلت له : مش عاوزة أروح . . فأخذ أبى يغرينى بالكراملة التى أحبها فعاندت ورفضت ، ولكن لما بدأ يلوح بطبق المهلبية الذى أعشقه زاد عنادى ووافقت على أن أذهب معه إلى الحفلة ، وكانت مزدحمة بالناس ، فقد بلغ عدد الذين حضروها حوالى خمسة عشر شخصاً . وكان هذا العدد بالنسبة لى هو الزحام الضخم ! . وطلب منى أبى أن أجلس بجانبه على الكنبة الخشبية وأغنى كما هى عادة المغنيين فى ذلك الوقت . . ولكنى رفضت الجلوس وأصررت الوقوف فوق الكنبة وبدأت أغنى» .

وما ذكره الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب عن تلك الفترة المبكرة من حياته والخاصة بأولى محاولاته فى التقليد . . لم يختلف كثيراً عما ذكرته أم كلثوم إلا فى بعض التفاصيل . . فنراه يقول على سبيل المثال : «فى ذلك الحين الذى تفتحت فيه مداركى ، كنت أرى وأسمع حلقات الذكر التى كان المصلون يقيمونها فى المسجد بعد صلاة الفجر فى بعض الأحيان وبعد صلاة العشاء أحيانا أخرى . . ورغم أننى كنت فى حوالى السابعة ، إلا أننى كنت أشعر كلما سمعت إنشاد المصلين فى أنغام الذكر الرتيب بإنقياد عجيب وكانت أهازيجهم الدينية تطربنى

وتبعث فى أعماقى نشوة لها مفعول السحر . . وهكذا بدأت أتعلق بحضور هذه الحلقات ، فكنت أستيقظ كل يوم قبل الفجر ، ثم أذهب إلى المسجد حيث أروى ظمأى من أناشيد الذكر وأرددها مع المصلين» .

ولا نحسب أن أم كلثوم وعبد الوهاب قد توقفا فى مرحلة التقليد هذه عند حد ترديد ما كان يُتلى عليهما داخل المنزل أو فى محيط الأسرة التى عاشا بها فيه . بل وسوف نعرف تفصيلاً فيما بعد أن هذا التقليد قد خرج عن نطاق الأسرة وزحف ناحية كبار المطربين والمنشدين فى ذلك الوقت ، وكان على رأسهم الشيخ أبو العلا محمد والشيخ سلامة حجازى وآخرين .

هذه الفترة المتأخرة فى مرحلة التقليد ، قد جاءت فى بدايتها على استحياء . . كما لعب الحظ فيها دوره الكبير ، وخاصة بالنسبة لفنانة صغيرة مثل أم كلثوم التى كانت القرية تمثل حتى هذه اللحظة عالمها الكبير . ولولا إجادتها لفن التواشيح وتمرسها بالموهبة وقدرتها على احتواء ذلك الفن الصعب لما استطاعت لا هى ولا حتى زميلها عبد الوهاب من السير قدماً داخل مرحلة التقليد حتى نهايتها .

وإذا كان تقليد أم كلثوم لفنانين غير والدها ، وارتباطها بفن التواشيح التى كانت تسمعها من هنا ومن هناك . . قد لاقى تشجيع والدها الشيخ إبراهيم ، وعمق فى نفسه رغبة أكبر وحلم أعظم رأى فيه أن هذه الصبية ستصبح فى يوم من الأيام إما منشدة دينية ذائعة الصيت . . أو مقرئة للقرآن الكريم وبذلك تجلب له المال الكثير وتساهم بصوتها فى دفع عجلة حياته الإقتصادية نحو الأمام- فإن ذلك الحلم بالنسبة للفنان عبد الوهاب كان يمثل صعوبة شديدة خاصة عندما عرف والده وأخوه باتجاهه للغناء وحبه لحضور الأفراح والحفلات المسرحية ! . إذ بدأ أخوه فى تضييق الخناق عليه وإغلاق كل منافذ إنطلاقه كما وقف ضد كل محاولات قيامه بتقليد غيره من المنشدين وأصحاب حلقات الذكر ! . .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد . . بل زحف إلى وسائل عقابية أخرى ، ومما يذكره عبد الوهاب فى هذا السياق قوله : «هذا الإيمان العميق والشعور بالجوع إلى الموسيقى والغناء هو الذى كان يدفع بى إلى إلتماس المعاذير للهروب من دروس

(١) محمد عبد الوهاب - لطفى رضوان - كتاب الهلال .

الكتاب والانصراف إلى هوايتى المبكرة . وأذكر بهذه المناسبة أن شهرة الشيخ سلامة حجازى كانت فى تلك الأيام قد بلغت مداها ، وأغانيه قد ذاعت على كل لسان ، فكنت أجد لذة لا تعادلها لذة حين أجمع صبيان الحارة وأغنى لهم ما أحفظ من أغانى الشيخ سلامة ، وكانت هذه الهواية تصرفنى عن الذهاب إلى «الكتاب» فى بعض الأحيان ، بينما كنت فى أغلب الأحيان أذهب إلى الكتاب فى الصباح كالعادة ثم أدعى الكذب بوفاة عمى أو عمتى فيمنحنى المدرس إجازة لحضور جنازتها . وسرعان ما يضمنى ركن فى أحد حوارى الحى مع أقرانى وأمضى فى تقليد غناء الشيخ سلامة ، حتى إذا حان موعد رجوعى إلى البيت حملت كتبى وعدت كما لو كنت قد أمضيت نهارى فى تلق الدروس» . .

بل وقال عبد الوهاب أكثر من ذلك : «وأذكر أن شيخ الكتاب لاحظ كثرة إدعائى بوفاة عمتى طمعاً في الإجازة فاستفسر من والدى الذى كذبنى بالطبع ، وكانت علقة ما زلت أذكرها كلما سمعت بوفاة إحدى العمات . ورغم هذه الشدة التى عوملت بها من أسرتى ، فإننى لم أستطع ترك هوايتى للغناء . . بل لقد كنت أعجب أن هذه المحاولات تزيدنى تصميما على السير فى الطريق الذى تدفعنى إليه ميولى الشخصية . ولذلك كنت كلما سمعت عن «فرح» أو «مولد» يقام فى أية بقعة بالقاهرة ، أشمر عن ساقى وأذهب إلى هناك سيراً على الأقدام فى سبيل أن أستمع ولو من بعيد إلى كبار المطربين وهم يغنون وينشدون فى تلك الأفراح والموالد» . .

***

يحدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه الصبية أم كلثوم ترغم والدها على استضافة من كانت تقلدهم . . وتطلب حسن ضيافتهم . . بل وكانت كثيراً ما تقودهم إلى منزلها لهذا الغرض . . والوالدين صاغرين لمطالبها وينفذونها بلا مناقشة ! وهذا فارق كبير بين الحالتين !

ولقد هزت مرحلة التقليد والتلقى هذه حياتها . . هزاً عنيفاً . . مما أسفر عن زيادة تمسكها بالفن . . سواء كان يرحب به الأهل أم يرفضونه وكان من أبرز من قلدتهم وفق رواية أم كلثوم نفسها هو معلمها الأول الشيخ أبو العلا محمد الذى التقت به مصادفة فى محطة السنبلاوين . والذى أثر فى نشأتها الفنية الأولى تأثيراً كبيراً . .

فقد كانت أم كلثوم على حد قولها : «أغنى بلا إحساس ولا شعور . . لقد كنت أردد الأغانى التى أسمعها من أبى بنفس الطريقة التى يردد بها التلميذ الصغير جدول الضرب ، وقواعد النحو والصرف» . !!

وإكراما لهذا الضيف الذى شاهدت أبيها يصافحه باحترام داخل محطة القطار دخلت على أمها فى منزلها وقالت لها : «إن أهم إنسان فى الدنيا سيتناول معنا الغداء . . كل حاجة عندك قدميها له إدبحى الفراخ إللى عندك واللى عند الجيران» .

وبالفعل إرتبطت أم كلثوم إرتباطاً كبيراً بالشيخ أبو العلا الذى نقل إلى والدها إستبشاره خيراً بموهبتها وبصوتها الجميل ، وقدرتها على أن تصبح فنانة مرموقة . وقد أثلج هذا التعليق صدر الشيخ إبراهيم حتى أنه نزل على رغبة الشيخ أبو العلا ، واستجاب لإقتراحه بأن تغزو إبنته سوق الفن والغناء من أبوابه الواسعة حيث مدينة القاهرة .

هذا فى الوقت الذى واجه فيه عبد الوهاب معارضة شديدة من أسرته . . وصلت إلى حد العقاب والضرب . . وقد مر بنا من قبل كيف ربطوه من قدميه وزحفوا به مربوطاً كالحيوان . . حتى البيت ! . . مع أن العكس هو ما كان لابد وأن يحدث . . خاصة فى ظل تقاليد المجتمع المصرى آنذاك . . كما كان عبد الوهاب يقيم فى المدينة وليس فى القرية مثل أم كلثوم ! . وهى التى نزلت إلى شارع الفن بدون حجاب . وملأ صوتها كل الآذان ! .

ونحن نعتقد أن العلقة الساخنة التى حظى بها عبد الوهاب عقاباً له على تقليده لفنان عظيم مثل الشيخ سلامة حجازى . كانت كفيلة فعلاً بردعه وتخويفه . . الأمر الذى يجعله يتراجع عن هذا الطريق الشاق ، ولولا الموهبة والقناعة والقدرة على السير فى الممنوع لتراجع عبد الوهاب فعلاً أمام هذه الضربات . وكذلك أمام ما واجهه من صعوبات معيشية فى الفترة نفسها ! .

لقد عقد الفنان الصغير محمد عبد الوهاب العزم على السير قدماً فى مرحلة التقليد حتى آخرها . . تماماً مثلما فعلت أم كلثوم . ولم يأبه بتلك العقبات

أو الصعوبات التى واجهها آنذاك . . هذا الإصرار ذاته جعله ينجح بالفعل فى تخطى مرحلة التقليد أيضا بعدما ثبت أقدامه بداخلها . .

وهناك مواقف متعددة حكاها عبد الوهاب بصدق شديد . . وقد تمكن بذكائه المبكر من التغلب على ما فيها من مشاكل . . بخلاف موقف أسرته المعارضة ! . خاصة عندما شعر بأن هوايته للموسيقى والغناء كانت أكبر من مشاكله الخاصة . . وبالتالى فقد أخذت صفة التقليد تفرض نفسها عليه بقوة .

كما كانت أغانى الشيخ سلامة حجازى هى التى أحبها عبد الوهاب بصدق . . لأنها على حد قوله كانت تتمشى مع ما يستهويه وتستسيغه نفسه من أنواع الغناء . فقد كانت كلها أغانى مسرحية حديثة فى ذلك العهد ، بينما كان غيرها من الأغانى الشائعة هى أغانى التخت القديم . . بل وأكثر من ذلك ، فقد إنقلب حب عبد الوهاب لأغانى الشيخ سلامة إلى حب للشيخ سلامة نفسه . . إذ أخذت أمنياته آنذاك تتبلور فى إمكانية مقابلة ذلك الفنان . ومع ذلك لم تتحقق تلك الأمنية بسبب رحيل الشيخ سلامة حجازى ! .

هذا التأثر الكبير إلى حد العشق بالنسبة للشيخ سلامة حجازى فى حياة محمد عبد الوهاب يجعلنا نعود أدراجنا للحديث عن ذات التأثير الذى أحدثه الشيخ أبو العلا محمد فى حياة أم كلثوم . . ولذلك نستطيع أن نؤكد فى هذا السياق بأن هذين الشيخين قد لعبا أدواراً هامة فى حياة كل من عبد الوهاب وأم كلثوم .وربما فى آن واحد .

وقد صورت أم كلثوم لنا وللتاريخ الدور الكبير الذى لعبه فى حياتها الشيخ أبو العلا . . حتى أنها لقبته بالعاشق الأول والأخير . كما ظلت كذلك ملازمة له حتى يوم وفاته .

ولم يكن الشيخ سلامة حجازى هو مصدر إلهام ووحى وعشق الفنان الصغير محمد عبد الوهاب . . بل كان هناك غيره . . تماماً كما كان فى حياة أم كلثوم مصادر وحى وإلهام كثيرة فى حياتها ! إذا إرتبطت آنذاك بشخصيات فنية أخرى لعبت هى الأخرى دورها العظيم فى تأكيد موهبتها وتأصيلها . . نذكر منهم على سبيل

المثال الشيخ زكريا أحمد والشيخ يونس القاضى . . أما الموسيقار محمد عبد الوهاب . . فقد ظهرت فى حياته شخصية فنية كانت عى جانب كبير من الأهمية . إذ فتحت أمامه باب الدخول إلى شارع الفن . وكان لا يزال على أبواب التقليد أيضا . . إلا أنها ساعدته كثيراً وفيما بعد فى إنطلاقه فى عالم غنائى فريد ! .

ونترك عبد الوهاب يوضح لنا ملامح تلك الشخصية . . ومدى تأثيرها عليه فنراه يقول عن ذلك : «فى عام ١٩١٧ تقريبا كان المرحوم الأستاذ فوزى الجزايرلى يعمل مع فرقته على مسرح «الكلوب المصرى» فى حى سيدنا الحسين وكنا نحن صبية حى الشعرانى لا نجد لنا مسرحاً مناسباً فقررنا إرتياد هذا المسرح لأن تذكرة الترسو فى مقاعده لم يكن ثمنها يزيد عن قرش صاغ فقط . وذات ليلة ونحن مجتمعين خارج المسرح أخذت أغنى لرفاقى كالعادة إحدى أغانى الشيخ سلامة . وكان أحد ممثلى فرقة فوزى الجزايرلى ماراً فى تلك اللحظة فوقف يستمع إلىّ ، حتى إذا انتهيت من غنائى سألنى إن كنت أريد مقابلة الأستاذ فوزى الجزايرلى ؟! ولم أصدق أذنى فى بادئ الأمر وظننت الرجل يمزح . . أهكذا يسألنى مثل هذا السؤال الخطير فى بساطة . . كما لو كان يسألنى عن إسمى ؟! . إن مقابلة الجزايرلى كانت أمنية عسيرة المنال على كبار الهواة . . فكيف بها تعرض على صبى مثلى فى هذه السهولة ؟! وانتهيت من تأملاتى عندما عاد الرجل يسألنى مرة أخرى عما إذا كنت أحب مقابلة الجزايرلى ؟! . وبالطبع كدت أطير من الفرح لهذا «السعد» الذى هبط لى فجأة وبدون سابق معرفة ، بينما راح زملائى يهنئوننى ويتنافسون فى التوسل إلىّ لكى أصحبهم معى فى هذه المقابلة التاريخية» .

وبالفعل كما ذكر عبد الوهاب نفسه كانت مقابلة تاريخية من حيث المعنى والمغزى والنتائج . إذ اتفق خلالها عبد الوهاب ولأول مرة فى حياته على تقاضى أجر نظير إلقائه بعض أغنيات الشيخ سلامة حجازى أمام الفنان فوزى الجزايرلى ! وكان هذا الأجر هو خمسة قروش !! . بل وأكثر من ذلك كانت تلك الخطوة بداية دخول محمد عبد الوهاب إلى ميدان الفن على سبيل الاحتراف . . عندما طلب

منه الجزايرلى أن يغنى على مسرحه بين الفصول ! . . وعبد الوهاب يقول لنا عن بعض هذه النتائج بحب شديد : «وهكذا انتقلت إلى مرحلة جديدة من حياتى . . مرحلة الأضواء المسرحية الساطعة طالما تمنيت أن يسقطها الحظ علىّ . وبدأت أظهر على مسرح الكلوب المصرى لأغنى وصلتين بين الفصول ، ملقياً بعض قصائد الشيخ سلامة حجازى ، وقدمتنى الفرقة فى إعلاناتها بما يرضى آمالى» ! .

ورغم ظهور هذه الشخصية المهمة فى حياة عبد الوهاب فى الفترة التى حكى لنا عنها . إلا أن فن الشيخ سلامة حجازى كان ولا يزال هو السبيل نحو ظهور هذا الصبى خاصة فى مجال الأغنية . . وقد أتقن عبد الوهاب تقليد هذا الفنان تقليداً جعل من مدير فرقة مسرحية عريقة يختاره ولأول مرة كمطرب محترف يغنى أمام جمهوره ! .

ليس هذا فقط . . بل إن إتقان عبد الوهاب لأدوار الشيخ سلامة حجازى الغنائية وتقليده المتقن لتلك الأدوار كان جوازه مروره الثانى للإنطلاق نحو آفاق أرحب فى عالم المسرح والغناء المسرحى . . وذلك عندما سنحت له الفرصة بعد فترة للإلتحاق بفرقة الفنان عبد الرحمن رشدى التى أنشأها فى عام ١٩١٩ . . وهو فنان كان يهوى التمثيل رغم أنه كان يعمل بالمحاماة . وقد وجد فى تقليد الصبى محمد عبد الوهاب لفنان كبير مثل سلامة حجازى فرصة سانحة له ولفرقته من أجل مزيد من عوامل جذب الجمهور . ويؤكد محمد عبد الوهاب أن عمله فى هذه الفرقة قد انحصر فى بداية الأمر فى الغناء بين الفصول . . ثم حدث أن احتاجوا فى رواية «الموت المدنى» إلى طفلة فى مثل سن عبد الوهاب . . ولما لم يجدوا من تناسب هذا الدور أسندوه إليه . . «فكنت أظهر على المسرح فى هذه الرواية بملابس فتاة صغيرة . . ثم أغنى كالعادة بين الفصول بشخصيتى الطبيعية . وظللت أعمل بفرقة عبد الرحمن رشدى حتى إندلعت نيران الثورة وصدرت الأوامر بإغلاق المسارح» ! .

ولقد ظل التقليد فى حياة عبد الوهاب تماماً مثل أم كلثوم . . مؤثراً حتى فترة طويلة من حياته الفنية . . وإن كانت أم كلثوم قد بدأت تخفف من ألوان هذا

التقليد عندما التقت بكل من الشيخ أبو العلا محمد وشاعرها المفضل أحمد رامي! . وقد سبق وأشارت لنا فى مذكراتها أنها طلبت من شاعر الشباب أن يؤلف لها القصائد والأغنيات التى تنقلها من مرحلة التقليد إلى مرحلة التجديد .

بعكس الفنان محمد عبد الوهاب الذى لم يتمكن من الخروج من مجال هذا التقليد إلا عندما نجح فى وضع موسيقى أحد فصول المسرحية الغنائية «أنطونيو وكيلوبترا» بالإشتراك مع الموسيقار الخالد سيد درويش والتى مثلتها منيرة المهدية فى عام ١٩٢٦ . . هذه التجربة مكنت عبد الوهاب من موهبته والإحساس بصوته وبقيمة ألحانه . . ثم إزداد ذلك فى حياته أكثر بتعرفه على أمير الشعراء أحمد شوقى ، وكان عبد الوهاب قبل هذه التجربة ، قد اشترك مع فرق مسرحية أخرى مع على الكسار ونجيب الريحانى ، وسيد درويش الذى استعان بعبد الوهاب لأداء دور البطولة فى إحدى مسرحياته الغنائية .

ثم تأتى بعد ذلك فترة إرتياد عبد الوهاب مجال دراسة الموسيقى أكاديمياً بناء على رغبة ونصيحة أمير الشعراء شوقى . عندئذ بدأ عبد الوهاب يضع أولى بصماته الفنية داخل شارع الفن . . حتى أن أمير الشعراء شوقى كان يؤلف القصائد لكى يغنيها عبد الوهاب . وهذه القصائد كانت هى الأخرى من عوامل تألق عبد الوهاب وتأكيد شهرته بعد إنتقاله من مرحلة التقليد بنجاح .

وهذا يعنى فى المقام أن كل من الشاعرين الكبيرين شوقى ورامى ، كان لهما الفضل الكبير فى انتقال كل من أم كلثوم وعبد الوهاب من مرحلة التلقى والتقليد إلى مرحلة التألق والشهرة . ذلك لأن هذا التحول قد ظهرت فيه بوضوح مواهب هذين العملاقين بلا رتوش أو تقليد ، وإن كان عبد الوهاب قد تفوق على أم كلثوم فى هذه الفترة ، إذ إنفرد عنها بموهبته فى الغناء والتلحين ، وهو يتشابه فى هذا الشأن ، وكما سوف نبين ذلك مع الفنان فريد الأطرش الذى تفوق هو الآخر على زميله الفنان عبد الحليم فى المجال نفسه .

ولن نجد أية آثار كبيرة للشعراء الآخرين فى حياة كل من فريد وعبد الحليم مثلما لاحظناه وبوضوح فى حياة أم كلثوم عبد الوهاب . بخلاف الشاعر الكبير كامل الشناوى الذى كان له الفضل فى بعض الوقت ، ليس فى انتقال عبد الحليم من

مرحلة التقليد إلى مرحلة التألق . بل وكان له الفضل الأكبر فى دخوله إلى ميدان النجومية وبشكل عام ! .

* * *

هذا الأمر يجعلنا نتحدث كذلك بالتفصيل عن مرحلة التقليد والتلقى ثم التألق والشهرة فى حياة كل من فريد الأطرش وعبد الحليم بإعتبارهما وفق الإتفاق المسبق بيننا . . قد عاشا داخل مربع العملاقة الذى دخله من قبلهما كل من أم كلثوم وعبد الوهاب .

وبالنسبة لحالة الفنان فريد الأطرش فنحن نراها حالة فريدة تماماً مثل اسمه ! إذ بدأ مرحلة التلقى والتلقين والتقليد مبكراً على يد والدته الأميرة علياء المنذر التى كانت تجيد العزف على العود . وهذا خلاف لما حدث لكل أقرانه داخل دائرة عمالقة الغناء .

بل وأكثر من ذلك فقد ظل هذا التلقى والتقليد للطفل فريد الأطراش حتى من بعد وصوله إلى مصر مهاجراً أو هارباً . . إذ كانت تصحبه والدته الأميرة وهى تغنى وتعزف على عودها فى شوادر الفن المشهورة آنذاك بحى روض الفرج! . . وفريد الأطرش فى هذه الفترة لم يكن قد وصل إلى سن التاسعة من عمره !

وعندما لاحظت الأم ميول إبنها المبكر لدخول شارع الفن . . كانت كثيراً ما تنهيه عن ذلك . . بل وكانت تخفى عنه عودها حتى لا تصيبه لعنة الفن ، وحرصاً على دراسته . ومع ذلك فقد ظلت تلك اللعنة تطارده حتى تمكنت منه وبالتالى فرض نفسه وموهبته على إمه . فأخذ فعلاً يقلدها علانية فى العزف على العود دون خوف . . وذلك من قبل أن يكتشف هو نفسه أن صوته أيضاً جميل ! .

ويبدو أن فريد قد اكتشف أن أمه تتحلى أيضا بصوت جميل مثلما هى تجيد العزف على العود . . فنراه يقول عن ذلك : «كانت إمى قد وثقت صداقتها مع السيدات السوريات فى حى الفجالة القريب من باب البحر وعرفت منهن أسلوبا فى التزاور عجزت عن أن نتعلمه . . كانت كل واحدة منهن تخصص ليلة من ليالى الأسبوع تستقبل فيها سائر الصديقات ، فيمضين الوقت من الأصيل حتى منتصف الليل فى الغناء والطرب والرقص أحيانا . ولم تكن إمى تستطيع أن تدعو الصديقات إلى بيتنا لأننا نسكن شقة من حجرتين ضيقتين . . وكانت إمى لذلك تذهب إليهن وتغنى وتأخذنى معها أو تأخذ آمال ، أو تصحب فؤاد . . وفى تلك

الليالى سمعت إمى تغنى وتضرب على العود . . ولم تكن سعادتى فى تلك الليالى بالطعام وحده . بل كانت سعادتى الكبرى بصوت إمى وأنين العود بين يديها» ! .

وأكثر من ذلك فقد كان قرار إمه بإحتراف الغناء فى مسارح روض الفرج مثار دهشته وإخوته . . ورغم هذه الدهشة فقد كان يصاحبها أثناء تواجدها هناك تغنى وتعزف على العود . وفى تصورنا أن هذه الصورة الفنية . كانت من أولى الصور التى إلتصقت بذهن فريد الأطرش . . بل وكانت فى الوقت نفسه بداية ارتباطه تقليداً وتلقيناً بأصول فن الغناء والموسيقى . وكان مصدر ذلك الإرتباط هو إحساسه بأن هناك تقارباً خاصاً بينه وبين إمه ! . هذا التقارب جعله يعشق صوتها ويعشق الطريقة التى كانت تتخذها حين تعزف على العود . . بل وجعله كذلك يعشق نفس العود التى كانت كثيراً ما تبث إليه شكواها ! .

ومما ذكره فريد فى مذكراته عن تلك العلاقة الحميمة بين إمه وبين العود من ناحية وبينه وبين إمه وعودها من ناحية أخرى قوله : «كنت أحس أن العود له علاقة مع أمى تتفوق فى علاقتها مع فؤاد ، فؤاد ينظر إليها كأم . . لها علينا ما ينبغى من إجلال وحب ، أما أنا فكنت أضيف إلى هذا أننى معجب بها ، معجب بأناملها التى تتحرك على الأوتار أو بصوتها يحاكى النغم ، ولطالما حفظت الأدوار التى تغنيها من موشحات ومواويل وكثيراً ما صعدت فوق مقعد وأحضرت العود من فوق الخوان لأضرب عليه . .» .

ليس هذا فقط . . بل إن ذلك الإرتباط وهذا التقارب جعل من فريد الأطرش يعيش حياته الفنية الأولى مصاحباً للعود . . من قبل شهرته فى مجال الأغنية ، وربما اقترب بهذه الخطوة من بداية حياة عبد الوهاب الذى جاءت شهرته الأولى كملحن وليس كمطرب . ذلك لأنه واصل مشواره بعد ذلك كملحن وكمؤلف للموسيقى أكثر من تواجده داخل الساحة الفنية كمطرب . كما يلتقى فريد الأطرش فى هذه الخصوصية كذلك مع مطربنا مرهف الإحساس عبد الحليم حافظ الذى جاءت بداياته الفنية داخل ملجأ الأيتام على يد أحد أساتذة الموسيقى . . إذ لجأ فريد الأطرش لأحد مدرسى الموسيقى والأناشيد بمدرسته لكى يلحقه بفرقة المدرسة بعدما ضيقت إمه عليه الخناق للإبتعاد عن العود وعن الفن كلية خوفاً على مستقبله . .

وقد أصبح بعد أشهر معدودة رئيساً لذلك الفريق ، وبالتالى قفز اسمه بين تلاميذ المدرسة بإعتباره صاحب صوت متميز وموهبة فنية . وياليت ذلك ما مكان . . إذ جر عليه أولى مشاكله ، عندما تعرض للطرد من المدرسة . . ولم يكن ذلك فى واقع الأمر بسب إتقان فريد لفن التراتيل ، وصوته الجميل . . بل بسبب اكتشافق إدارة المدرسة إسمه الحقيقى الذى أخفاه فترة طويلة بسبب الظروف السياسية .

ومع تمسك فريد بموهبته واقتناعه بقدراته فى العزف على العود أو فى الغناء . . فقد حظى بفرصة للإلتحاق بمعهد الموسيقى العربية لإتقان موهبته فى العزف على العود . . وكان أستاذه الذى أشاد به وأرشده لمزيد من الإتقان هو الموسيقار رياض السنباطى ! ومن بعده الفنان فريد غصن الذى ألحقه معه عازفا بفرقة الفنان إبراهيم حمودة ! . ثم إلتحق بعد ذلك بالعمل مع فرقة بديعة مصابنى . . كما اشتغل بالإذاعة الحكومية عازفاً على العود وكان يذاع له حفل مرة كل أسبوع ! .

وظل فريد الأطرش فى إطار مرحلة التلقى والتقليد هذه متمسكاً بموهبته – خاصة فى مجال العزف والموسيقى – حتى تمكن من إقناع القائمين على الإذاعة آنذاك بموهبته فى الغناء إلى جانب الألحان وقد ظل بهذه الصفة الجديدة يتألق يوماً بعد يوم – حتى تمكن من التفرد فى الألحان وفى الغناء وبالتالى بات له لون خاص اشتهر من خلاله حتى يوم رحيله ! .

***

ونتوقف معاً عند المحطة الأخيرة فى صحبتنا لهؤلاء العمالقة الكبار مع الفارس الرابع وهو عبد الحليم حافظ ، لنعرف كيف تأثر هو الآخر بمرحلة التلقى والتقليد حتى دفعت به بقوة إلى داخل مرحلة الشهرة والتألق ثم النجومية .

ولقد سبق وبينا كيف إلتقى كل من فريد وعبد الحليم فى هذه المرحلة وما كان بينهما من آفاق متشابهة . . على خلاف ما كان بين كل من أم كلثوم وعبد الوهاب ، وقلنا فى هذا السياق إن عبد الحليم قد بدأ مشوار حياته الفنية متلقياً ومقلداً فى ميدان الموسيقى أولاً ، تماما مثلما كان فريد الأطرش ، وقد أجاد العزف عل آلة «الأبوا» التى أهلته لدخول معهد الموسيقى . . تماماً مثل فريد الأطرش الذى كانت آلة العود سبيله لتحقيق ذلك ، كما التحق الاثنان بقسم الموسيقى وليس بقسم الأصوات . وقد

التقى عبد الحليم بإستاذه عبد الوهاب فى بعض آفاق هذا التشابه . حيث عمل كل منهما مدرساً للموسيقى بوزارة المعارف العمومية ، ثم تركاها للتفرغ للعمل الفنى . .

كما رأينا أن هناك فى سياق هذا الحديث . . العديد من الشخصيات التى أثرت فى حياة عبد الحليم الفنية . بدءاً من أخيه اسماعيل وانتهاء بالموسيقار عبد الوهاب . . وكذلك والده الذى ورث عنه صوته الجميل . تماما مثل عبد الوهاب وأم كلثوم ! ويبدو أن هذا الميراث الصوتى قد انتقل إلى عبد الحليم من والده عن طريق أخيه الفنان إسماعيل شبانة . . الذى فتح أمامه آفاق مرحلة التقليد . . . عندما كان يراه مهتماً بالفن . .خاصة فن الغناء والموسيقى . ورغم أن الموسيقى كانت بداية حياة عبد الحليم فى مرحلة التقليد إلا أنه كان مقتنعا بموهبته فى الصوت . . ولولا إحساسه بأنه صوته جميل فعلاً . . لما تمكن من إقناع الآخرين ممن كانوا حوله بذلك . وبالتالى ربما استسلم للعيش فى مرحلة التقليد عند مجال الموسيقى فقط .

ومن بعد تأثر عبد الحليم فى هذه المرحلة بأخيه إسماعيل . . قاده الحظ للإلتقاء بأحد مدرسى الموسيقى بالملجأ الذى عاش فيه سنوات طويلة من حياته ! . وقد أخذ هذا المدرس يلقنه أصول الموسيقى والعمل بها . حتى بات من أعمدة فريق الموسيقى بالملجأ ذاته .

ويقول المؤرخ الفنى الراحل محمد السيد شوشة أن هناك أسماء عديدة ترددت بخصوص من تعلم على أيديهم عبد الحليم الموسيقى . . وكان من أوائل هؤلاء إستاذ الموسيقى محمد ندا الذى قال عنه عبد الحليم حافظ فى مذكراته : «وفى الملجأ كان الأستاذ محمد ندا مدرس الموسيقى هو صاحب الفضل الأول فى اكتشاف موهبتى وصوتى ، حيث شعر أن هذا الصوت مميز عن زملائى الآخرين» .

وعندما التحق عبد الحليم بمدرسة عبد العزيز رضوان الابتدائية بالزقازيق . . واصل مشواره خلال مرحلة التلقى هذه ، إذ شارك فى فرقة أناشيد المدرسة كما كان أحد أعضاء فرقتها الموسيقية ، هذه الفرقة التى كان يشرف عليها فنان آخر . وقد أثر كثيراً فى حياة عبد الحليم الفنية . وهو عازف الكمان المعروف والمدرس السابق فى قسم الدراسات الحرة بالمعهد للموسيقى الفنان محمود حنفى ، الذى

يرجع إليه الفضل فى تأكيد موهبة عبد الحليم سواء فى مجال الموسيقى أو فى مجال الغناء . عندما كان يعمل أيضا مدرساً للموسيقى والأناشيد بملجأ أيتام الزقازيق . . وقد كانت فرصة ثانية لكى يرتبط به عبد الحليم . وقد تعلم على يديه مبادئ العزف على البيانو وعلى العود .

ولم يكن مدرسو الموسيقى هم وحدهم من أصحاب الفضل الأكبر فى اكتشاف موهبة عبد الحليم الفنية فى هذه الفترة المبكرة . . والتى ارتبطت إلى حد بعيد بمرحلة التلقى والتقليد . . وإنما كان هناك فنانون آخرون ساهموا فى ذلك وقد تأثر بهم عبد الحليم وبالتالى أخذ يقلدهم . . والغريب فيما يرويه المؤرخون بهذا الخصوص . أن الموسيقار محمد عبد الوهاب وتقليد عبد الحليم لصوته ، كان من أسباب تأكيد موهبة الغناء عنده ! . وعلى أية حال . . فقد بدأ مشوار عبد الحليم فنياً فى مجال الموسيقى ، بعدما التحق بالمعهد فى عام ١٩٤٥ . . وكان التحاقه بقسم الموسيقى وليس بقسم الأصوات ! .

ومن بعد تخرجه عمل مدرساً للموسيقى بإحدى المدارس مدينة طنطا . . ورغم إنشغاله آنذاك بالسعى وراء لقمة العيش فى ظل ظروفه الاجتماعية الصعبة والتى سبق وأشرنا إليها . . فقد كان يسعى دائما لإظهار مواهبه فى الموسيقى والغناء بالمشاركة فى الحفلات العامة وفى إحياء بعض الأفراح .

وقد استسلم عبد الحليم حافظ آنذاك لحكمة القدر التى أجبرته على الإقامة خارج القاهرة ، لمدة بلغت أكثر من سنتين . ولما نجح سعيه فى الانتقال إلى القاهرة مدرساً للموسيقى أيضا . بدأ الأمل يراوده فى دخول عالم الأضواء ليس ، كعازف لإحدى الآلات الموسيقية فقط بل وكمطرب أيضا . حيث بدأت تلك الخطوة فى مجال المشاركة فى الغناء بصوته فى بعض الحفلات وفى بعض الأفراح . . وكان صوت الموسيقار محمد عبد الوهاب هو الذى كان يقلده فى مثل هذه الحفلات . . إذ كان كثيراً ما يردد إغنياته .

ونظراً لانشغال عبد الحليم بموهبته الموسيقية . . وتغيبه كثيراً عن الحصص ! . . وصله خطاب رفت من وزارة المعارف . . ولم يعد أمامه آنذاك من سبيل سوى المزيد من السعى لبلورة موهبته والكسب أكثر من ورائها . . وكان عمره آنذاك الثانية والعشرين .

ووسط هذا الكفاح الذى بذله عبد الحليم لأجل قمة العيش ، ثم إشباع موهبته فى الموسيقى والغناء ، ساق إليه القدر . . التعرف على زميل دراسته كمال الطويل . . الذى كان فى معهد الموسيقى يدرس بقسم الأصوات !! . وقد سعى كمال الطويل لدى صديق والده الإذاعى حافظ عبد الوهاب . لكى يعين عبد الحليم عازفاً فى فرقة موسيقى الإذاعة ، وبالفعل نجحت تلك المساعى فعين عبد الحليم عازف لآلة «الأبوا» فى أوائل عام ١٩٥١ . وقد شارك عبد الحليم بهذه الصفة فى كثير من الحفلات الغنائية والتسجيلات الإذاعية التى ارتبطت فى ذلك الوقت بالفنانين عبد الغنى السيد ومحمد عبد المطلب .

ومن داخل أروقة الإذاعة بدأ عبد الحليم شبانه . . يبحث عن موضع قدم لموهبته ليس فى مجال الموسيقى ، بل وفى مجال الغناء والطرب ، وكان وجوده بجانب العديد من فنانى عصره فرصة لتحقيق تلك الخطوة . كما ساعدته أيضا العديد من الأحداث السياسية فى أن يكون مطرباً . . وكان آنذاك لا يزال يقلد عبد الوهاب فى كل أغانيه .

ولما بدأ عبد الحليم فى إعادة ترتيب أوراق حياته الفنية بعدما تأكد بأن بداخله فنان ذات صوت جميل أخذ يعد نفسه للإنتقال إلى مرحلة التألق والشهرة . . متساوياً فى ذلك بالثلاثة الآخرين .





● محمد عبد الوهاب .. على أعتاب النجومية



● ام كلثوم .. النجم المتألق



● فريد الأطراش ورحلة مع العود منذ البداية



● عبد الحليم حافظ في أولى رحلاته إلى الأسكندرية مع أفراد عائلته.

الفصل الرابع

ومن الشاشة البيضاء.. بدأ أول مشوار النجومية.. حتى نهايته

لقد رأينا من باب التشويق كمدخل لحديث لجديد . . عن حياة هؤلاء الكبار . . وفى منعطف هام من منعطفات حياتهم . . ضرورة الإشارة إلى أسماء الأفلام السينمائية التى ساهموا فيها بها . وذلك للأهمية الكبيرة التى تحملها تلك البداية . . سواء فى مسيرة حياتهم أو فى مسيرة حياة هذا الفن الوليد سواء فى مصر أو فى العالم العربى .

وقد كان أول فيلم يمثله عبد الوهاب هو فيلم «الوردة البيضاء» ، أما فيلم «وداد» . . فكان باكورة أعمال أم كلثوم الفنية فوق الشاشة الفضية . وكذلك كان فيلم «إنتصار الشباب» بالنسبة لفريد الأطرش أيضا أول أعماله فى هذا الفن الجميل . وبالنسبة لعبد الحليم حافظ . . فقد مثل أولى أفلامه التى عرضت له تحت عنوان «لحن الوفاء» . .

ومما يجب الإشارة إليه – من قبل أن نعيش المزيد من التفاصيل عن مشوار حياة الأربعة الكبار فى مجال الفن السينمائى– أن هؤلاء العملاقة . . قد استعانوا بالعديد من الوسائل التكنولوجية لتحقيق المزيد من الشهرة ومن النجومية . . بعدما انتقلوا إلى مرحلة التألق . هذه الوسائل كانت من الأهمية . . بحيث ساهمت بالفعل فى زيادة مساحة الانتشار داخل عقول وقلوب وصدور الجماهير سواء من المستمعين أو من المشاهدين . ولقد تأرجحت هذه الوسائل ما بين دخول عصر الفونوغراف عندما ذاع شهرته بدءاً من عام ١٩٢٦ ثم وقوفهم أمام ميكروفون الإذاعة ، وهو الإختراع الثانى الذى مهد لهؤلاء كثيراً لدخول عالم الشهرة من أوسع أبوابه . . وكان نشاطهم من قبل ظهور الراديو قاصراً على المشاركة فى الحفلات الغنائية فوق مسارح الأزبكية وروض الفرج وعماد الدين ، ولذلك فقد كان مجال انتشارهم آنذاك محدداً بعدد المترددين على تلك الحفلات .

وعلى الرغم من انتشار اختراع الإسطوانات أو جهاز الفونوغراف . إلا أنه لم يساهم فى انتشار هؤلاء الأربعة بالصورة التى حلموا بها قبل ظهور اختراع الراديو ، ثم جاءت السينما . التى بدأت تغزو عالم الفن فى مصر مع بداية الثلاثينيات من هذا القرن . . لتضفى على شهرة هؤلاء آخر ما كان يحلم به كل منهم . . وقد حققت لهم ولزملائهم من الفنانين . . كل آمالهم فى مجال الصوت والصورة والموسيقى . . وكذلك الجاه والسلطان والأموال . . وسطور وعبارات كثيرة عن جهودهم فى إحياء هذا الفن . . خاصة فى كتب تاريخ الفن الحديث ! .

ونظراً لأهمية هذه الوسائل الثلاث فى حياة هؤلاء الأربعة كان لابد لنا من متابعة مشاويرهم الفنية فى ضوئها . . والوقوف على مدى تأثيرها . . واختلاف ذلك التأثير بإختلاف الظروف والمواقف المواهب .

ووقوفنا على أهمية هذه الوسائل . . ودورها فى نشر الفن والموسيقى والثقافة بشكل عام . . قد دفعنا دفعاً للبحث فى تاريخ اختراعها . . والتعرف على مدى دورها وارتباطها بالعديد من مصالح الأجانب المقيمين فى مصر آنذاك . . وكانت فى المقام الأول مصالح اقتصادية وتجارية بحتة . وكان أغلبهم من اليونانيين والإيطاليين . ولما راجت تجارتهم من وراء هذه المخترعات أدرك ذلك المصريون ، خاصة العاملين فى مجال الفن . . ولذلك فقد بدأوا فى تقليدهم فى تكوين شركات مصرية لإدارة أعمالهم سواء فى مجال ملأ الإسطوانات أو فى مجال الإنتاج السينمائى . . وكانت الإذاعة بعيدة كل البعد عن مجال المنافسة بعد انتقال الإشراف عليها إلى الحكومة بدءاً من عام ١٩٣٤ . وكانت من قبل تحت إشراف بعض الأجانب من الذين امتلكوا المحطات الإذاعية الخاصة .

ولقد سبق لنا القول بأنه وفق الترتيب الزمنى لتعامل هؤلاء الكبار مع تلك الوسائل الحديثة . يأتى الفونوغراف فى المرتبة الأولى من حيث توقيت اختراعه وبالتالى من حيث تعامل هؤلاء وغيرهم معه كإختراع جديد ، كان له صدى طيب فى نفوسهم . وتقول سطور التاريخ أنه يرجع الفضل إلى العالم الأمريكى «توماس أديسون» فى اختراع ذلك الجهاز العجيب . الذى يطلق عليه فى اللغة العربية اسم «حاكى الصوت» بإعتباره جهاز يستخدم فى تسجيل الأصوات ثم إعادة إذاعتها

مرة أخرى . وكلمة «فونوغراف» هى فى الأصل كلمة معربة من اللغة اليونانية . . كما يؤكد مؤرخو العلوم أن هذا الجهاز تم إختراعه فى عام ١٨٧٧ . . و تم إدخال العديد من التعديلات الفنية عليه حتى وصل إلى الشكل الذى كان عليه وقت أن تعامل معه هؤلاء الكبار .

كما يؤكد هؤلاء المؤرخين أيضا . . أن الفونوغراف لم يتم استخدامه بشكل تجارى إلا فى عام ١٩٠٠ ، عندما سارعت العديد من الشركات الأجنبية العاملة فى مصر للسعى من أجل استخدامه تجارياً . . مما ساهم فى تنمية الحياة الفنية آنذاك . كما ساهم فى الوقت نفسه فى الإسراع بدخول هؤلاء الأربعة وغيرهم من فنانى عصرهم إلى مجال الشهرة والنجومية بعد تألقهم فى مرحلة التلقى والتقليد . وكانت من أشهر الشركات الأجنبية العاملة فى حقل استخدام الفونوغراف هى شركة . كبولينون وكايروفون وأدويون وكالدرون وكولومبيا وباتيه وبيضافون . . وكان أصحابها ينتمون إلى مختلف الجنسيات الأجنبية مثل اليونانية والإيطالية . كما سعت كل شركة من هذه الشركات للإستحواذ على أصوات المطربين المشهورين فى ذلك الوقت لتجعل منهم . . رأس ما لها فى المجال الفنى . . ولذلك نراها قد قامت بكل ما فى وسعها من جهود للترويج لصاحب هذا الصوت وبالتالى الترويج لبضاعتها من الإسطوانات المسجلة ! .

وكان من نصيب شركة بيضافون الإستئثار بصوت منيرة المهدية وشركة كولومبيا بصوت فتحية أحمد . . كما وضعت شركة الجرامفون عينها للاستحواذ على صوت أم كلثوم . ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش . وكانت العلاقة بين هؤلاء الفنانين وبين أصحاب هذه الشركات ، فى واقع الأمر علاقة قائمة على تبادل منافع . . فأصحاب تلك الشركات قد سعوا فى تنافس واضح للإستحواذ على أصوات هؤلاء الفنانين . . وكذلك كان هؤلاء الفنانين بما لديهم من طموحات ، يتمنون الإقبال على مثل هذه الخطوة . . لتحقيق بقية طموحاتهم الفنية والمادية . من حيث سعة الانتشار ووفرة الرزق! . . ومن أجل ذلك حاولوا إثبات إجادتهم لفنونهم سواء فوق المسارح العامة أو فى الحفلات الغنائية الخاصة !

ومما هو واضح من خلال متابعة متأنية لتاريخ تعامل هؤلاء الأربعة مع جهاز الفونوغراف . .نجد أن الموسيقار محمد عبد الوهاب كان من أوائل هؤلاء الفنانين . . ثم تبعته أم كلثوم بعد ذلك . وبعد مرور أكثر من عشر سنوات على تعامل هذين العملاقين مع الفونوغراف . . لحق بهما فريد الأطرش ، عندما دخل منافساً خطيراً فى سوق فن الغناء بعد ما أقبل عليه أصحاب شركات الفونوغراف . وكان عبد الحليم حافظ آخر هؤلاء الكبار من الذين تعاملوا مع هذا الإختراع . . بسبب تأخر دخوله شارع الفن إلى ما يقرب من ثلاثين عاماً .

كما لاحظنا فى السياق نفسه . . أن كل من عبد الوهاب وعبد الحليم على وجه الخصوص . قد سعيا لإنشاء شركات اسطوانات خاصة بهما . . بعدما عرفا أسرار هذه التجارة ، ودورها جماهيرياً وفنياً ! . . وكان حظ عبد الوهاب فى هذا المجال أكثر توفيقاً إذ مكنته الظروف من التعامل مع أصوات الثلاثة الأخرين من العمالقة الكبار . . وبالتالى أخذ يسجل لهم الإسطوانات لبيعها لحساب شركته «مصرفون» ! والتى إسسها فى الأربعينيات .

ليس هذا فقط . . بل وكان محمد عبد الوهاب من أكثر الفنانين الذين ارتبطوا بإختراع الفونوغراف . . من حيث الذيوع والإنتشار ، وساعده على ذلك . . اللقب الذى حمله . . رغماً عنه وهو لقب «مطرب الأمراء والملوك» . وقد أبدع عبد الوهاب إبداعاً غير مسبوق فى تزويد شركات الإسطوانات بإغنياته التى غزت الأسواق . . وبالتالى دخلت كل بيت فى مصر وفى العالم العربى . ولم يكن بذلك مطربًا فقط . . بل كان أيضا ملحناً مشهوراً تمكن بإقتدار من المزج بين الصوت والألحان فى إسطوانة واحدة ! . وكان يتقاضى أكبر الأجور فى مقابل تسجيل الإسطوانات بصوته . وقد ظل على هذه الصفة وهذه المقدرة . . حتى دخلت معه أم كلثوم منافساً خطيراً .

ولا ننسى أن نشير كذلك إلى ما أشار إليه العديد من المؤرخين سواء المصريين أو الأجانب عن مدي تأثير إسطوانات عبد الوهاب وأم كلثوم ودورها فى الحرب الدعائية التى سادت آنذاك أثناء الحرب العالمية الثانية . إلى درجة أن قرر رجال المخابرات فى كل من المعسكرين المتحاربين إلقاء القبض على كل من أم كلثوم وعبد الوهاب وجمع كل إسطواناتهما من الأسواق !! .

وبالنسبة لأم كلثوم فإن علاقتها بشركات الاسطوانات تعود إلى ما قبل اسقرارها فى القاهرة فى عام ١٩٢٥ . وذلك حين داعبتها الآمال لكى يكون لها صوت مسجل ، بعدما استمعت لهذا الإختراع العجيب فى فونوغراف العمدة . وكانت أولى الاسطوانات التى استمعت إليها آنذاك ، هى اسطوانة الشيخ أبو العلا محمد التى سجل عليها أغنيته المشهورة «الصب تفضحه عيونه» .

ولقد ظل هذا الأمل يراودها طويلاً حتى من بعد استقرارها فى مدينة القاهرة ، وانتشار صيتها الفنى داخل المجتمعات الراقية وداخل المسارح العامة . عندئذ وجدت أم كلثوم نفسها أمام منافسة قوية للإستحواذ على صوتها وفنها من أكثر من شركة لملأ الأسطوانات . من الذين زحفوا وراء ذلك الصوت فى كل مكان تواجد فيه .

وما يذكره المؤرخون عن علاقة أم كلثوم بالفونوغراف . . قولهم . . بأن أول أجر حصلت عليه كوكب الشرق من شركة أوديون للإسطوانات كان ٥٠ جنيها عن كل إسطوانه ، وقد وصل بعد عدة سنوات إلى أكثر من ألف وخمسمائة جنيه عن الإسطوانة الواحدة . . كما سجلت أم كلثوم فى أول مشوارها فى هذا المجال . . حوالى ٥٠ إسطوانة ، وقد ملأتها بأحدث ما غنته من كلمات وألحان . . وكانت شركة أوديون تبيع إسطوانة أم كلثوم بـ ٢٨ قرشاً !! . هذا المبلغ كان فى أوائل الثلاثينيات يعد مرتفعاً بالقياس لظروف المعيشة فى ذلك الوقت ! .

ونظراً للإقبال الجماهيرى على صوت أم كلثوم ، وسعيهم لإقتناء الاسطوانات المسجل عليها أغنيات بصوتها . . فقد تنافست عدة شركات للاستحواذ على صوتها مهما كان الثمن مرتفعاً . وبالفعل عرضت عليها شركة «الجرامفون» . . مبلغ ألفى جنيه شهرياً بشرط إحتكار صوتها إلى الأبد . فوافقت أم كلثوم على الفور . . وفى عام ١٩٥٠ بلغ دخل أم كلثوم من شركة «الجرامفون» عشرة آلاف فى الشهر .

***

ولم يكن فريد الأطرش ثالث هؤلاء العمالقة ببعيد عن آفاق ذلك الحلم ، الذى ظل يراوده طويلاً من أجل تحقيق نفس الأهداف والغايات التى وصل إليها زملاءه من الفنانين الكبار . وكان دخوله إلى عالم الإسطوانات والفونوغراف ، مواكباً لبداية

شهرته كمطرب يشارك بصوته فى إحياء الحفلات العامة والغنائية ، وليس كعازف للعود . . كما كانت لإخته أسمهان الفضل الأكبر فى دخوله هذا الميدان . . وميدان السينما أيضا .

والملاحظة الواجب ذكرها فى هذا السياق أن تعامل فريد الأطرش مع الإذاعة . خاصة الأهلية منها . . كان سباقاً على دخوله ميدان الفونوغراف والإسطوانات ! . وذلك عكس ما كان من أمر كل من عبد الوهاب وأم كلثوم ! . إذ ساهمت عوامل إنتشارهما عن طريق الفونوغراف فى الانتقال إلى الإذاعة . وكذلك كان عبد الحليم حافظ الذى تصادف أن يتعامل هو الآخر مع الإسطوانات قبل تعامله مع ميكروفون الإذاعة ! . كما جاء تعامله فى هذا الميدان ولأول مرة مع شركة اسطوانات كان يملكها محمد عبد الوهاب ، وهى شركة مصرفون ! .

ولقد روى فريد الأطرش فى أوراقه الخاصة حديث طويل عن بداية تعامله وأخته أسمهان مع الإسطوانات . . ومما ذكره فى هذا السياق قوله : «ذات يوم طرق الباب طارق . . نقل أسمهان من مرحلة حياتها إلى مرحلة . . لقد كان الرجل رومياً ، وكان مدير شركة كولومبيا للإسطوانات . وجاء ليوقع مع أسمهان عقدا بتسجيل خمسة عشر إسطوانة مقابل عشرين جنيها للإسطوانة الواحدة» . .

ثم قال عن علاقته الخاصة بالفونوغراف بعدما ذاع صيته كمطرب . . وليس كملحن أو كعازف عود : «وبعد عام ١٩٣٤ أغرقتنا عقود الإسطوانات ، فلا يكاد يمر شهر إلا وأسجل أنا وأسمهان أو نحن معاً . أما احتضان طلعت حرب لنا فقد وسع من الرزق وأفاض ، فأسمهان قد افتتحت الإذاعة والدكتور بيضا اتفق معنا على تسجيل اسطوانات تبيعها شركة بيضا» .

***

أما بالنسبة لعبد الحليم حافظ . . فرغم ما مر علينا وما ذكرناه بشأن تعامله مع الإسطوانات من خلال الفنان الموسيقار عبد الوهاب صاحب شركة «مصرفون» . . إلا أن انتشاره من خلال هذا الاختراع لم يؤثر كثيراً على مسيرته الفنية . . حيث كان مشغولاً آنذاك بالجرى وراء الحفلات العامة والمشاركة فى الأركان الإذاعية الخاصة . وكان معه كل الحق . . إذ كيف له أن يسجل إسطوانة تباع فى الأسواق

فى ظل تلك المنافسة شديدة . وهو آنذاك بلا رصيد جماهيرى ولم يكن قد اكتسبه بعد فى هذه الفترة المبكرة من حياته الفنية . فقد كان حلمه الأكبر من بعد اعتماده مطرباً بالإذاعة بواسطة صديقه كمال الطويل ومن بعد تألقه كعازف لإحدى الآلات الموسيقية . . أن يؤكد وجوده فى الشارع الفنى . وكان سبيله إلى ذلك المشاركة فى حفلات الإذاعة التى كانت تقام فى المناسبات الوطنية بعد ثورة يوليو . وبالفعل تحقق له ما كان يحلم به إذ لعبت الإذاعة الدور الأكبر فى إنتشاره . . وقد لحق بذلك بقطار الشهرة الذى ركبه من قبله كل من عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش ! .

***

والحديث عن الإذاعة ودورها فى التعجيل بشهرة فنان مثل عبد الحليم حافظ . . كان لا بد وأن يجرنا للحديث عن تأثيرها فى حياة الثلاثة الأخرين . . إذ كان يتوقف عليها القدر الأكبر فى زيادة مساحة شهرة هؤلاء جميعا فى شارع الفن المصرى والعربى . . بل والعالمى .

ولقد رأينا من قبل أن نبدأ هذا الحديث ، ضرورة أن نسوق بعض المعلومات التاريخية عن هذا الاختراع وهو الذى ساهم بحق ليس فى شهرة هؤلاء فقط بل وفى تنمية حياتنا الثقافية والفكرية ، والأدبية والفنية والسياسية أيضا .

وقصة اختراع الإذاعة أو الراديو والاسلكى إنما فى تصورنا قصة الحضارة الحديثة بأكملها . . إذ ساهم هذا الاختراع فى تحقيق الكثير من المكاسب للإنسانية ، وبالتالى لعب دوراً بارزاً فى تقدم البشرية . . وهو لذلك يساوى فى تأثيره ما أحدثته الثورة الصناعية وظهور البخار والكهرباء فى حياة الإنسان .

ويرى العديد من المؤرخين من المهتمين بتاريخ العلوم أنه من الصعب أن نضع أيدينا على مخترع بعينه يعود إليه الفضل فى ذلك . حيث شارك فى وجوده العديد من العلماء وكان من أبرزهم «ماركونى» الإيطالى الذى توصل إلى فكرة نقل الإشارات التلغرافية عن طريق موجات راديو قوية فى عام ١٨٩٦ ، وكذلك العالم الألمانى «هنريج هيرتز» والعالم الأمريكى «لى دى فورست» .

أما بالنسبة لأول استخدام جماهيرى للإذاعة وعلى نطاق واسع فلم يتم إلا فى عام ١٩٢٠ عندما أذيع فى هذا العام تقرير عن انتخابات الرئاسة الأمريكية .

ومن بعد هذا التاريخ بدأ الراديو فى الإنتشار فى كل الدول تقريبا خاصة فى أمريكا وإنجلترا . فى حين دخل مصر مع أوائل عام ١٩٢٣ وذلك عن طريق بعض الهواة الأجانب من الذين كانوا يستخدمون الأجهزة اللاسلكية فى الاتصالات ، وكان ذلك إيذانا ببدأ البث الإذاعى عن طريق محطات إرسال صغيرة يملكها أفراد بعينهم . كما كان هناك عدد من الأجانب قد امتلكوا تلك المحطات الإذاعية الصغيرة . ومما يقال أيضا أن أقدم أجهزة اللاسلكى هو ما تلقاها شخص يدعى أحمد صادق الجواهرجى فى عام ١٩٢٣ كهدية له من صديقه الألمانى الذى كان يدرس اللاسلكى ، إلا أنه هذا الجهاز لم يجد من يستمع إليه لعدم وجود أجهزة إستقبال . [١]

لذلك نجد أن المحاولات الأولى للبث الإذراعى وكما يقول الدكتور حلمى أحمد شلبى قد قامت على يد مجموعة من الهواة ، ولم يكن هناك أى شكل من أشكال التجارب حول دور هذه الطاقة أو هذ الاختراع أو لأى غرض يمكن إدخال هذه الأجهزة اللاسلكية فى مصر .[٢]

وأول مرسوم حكومى صدر بشأن تحديد شروط الأجهزة اللاسلكية فقد صدر فى عام ١٩٢٦ . ومن بعد صدور هذا المرسوم الملكى بدأ الأثير ينبعث فعلا فى مصر لأول مرة من محطات أهلية فى القاهرة والإسكندرية لمستوطنين أوربيين أغلبهم من الإيطاليين واليونانيين . وكان من أهم هذه المحطات راديو الأميرة فوزية - راديو صايغ وراديو مصر الحرة . وقد سعى أصحاب تلك المحطات وراء أصحاب الأصوات المشهورة لنقلها إلى المستمعين . وقد تساووا فى هذه المهمة مع من كان يقوم به من قبلهم من أصحاب شركات الإسطوانات والفونوغراف ، مع الفارق طبعا فى الأرباح وفى الأهداف أيضا .

---

(١) فوزية فهيم - نظرة على تاريخ الإذاعة فى العالم - مجلة الفن الإذاعى عام ١٩٥٩ .
(٢) تاريخ الإذاعة المصرية - د . حلمى أحمد شلبى .

ومنذ عـام ١٩٢٦ بدأ تنافس من نوع جـديد بين أصـحـاب هذه المحطات على الإستحواذ على أصوات فنانى ذلك العصر ، مما أتاح فرصة كبيرة للانتشار الكبير والواسع لتلك الأصوات .

ومما هو ملاحظ وبشكل مؤكد أن اختراع الراديو وظهور تأثيره على الجماهير إنما قد بدأ مع ظهور وانطلاق هؤلاء الأربعة . وكان بذلك الوسيلة الثانية والهامة لتأكيد شهرتهم جميعاً محلياً وعربيا من بعد ظهور الفونوغراف .

ونظراً لهذه الأهمية الكبيرة فقد لاقى الراديو والتعامل معه ومع محطاته سواء الأهلية أو الحكومية إهتماماً غير عادى من كل من أم كلثوم وعبد الوهاب على وجه الخصوص . ثم لحق بهم على هذا الطريق الهام الفنان فريد الأطرش . . وذلك لتحقيق نفس الغايات ونفس الأهداف . بخلاف الفنان عبد الحليم حافظ . الذى كان ولا يزال بعيداً عن الساحة الفنية حين ظهور هذا الإختراع والتعامل معه ! . وقد لحق به بعدما إستقرت للراديو الأمور وانتقل إلى يد الإشراف الحكومى بدءاً من عام ١٩٣٤ ! . وكان الانتقال الإشرافى من الأهالى إلى الحكومة فعلاً بمثابة نقلة حضارية جديدة فى حياة هؤلاء جميعاً وفى حياة غيرهم من الفنانين .

لقد واكب محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش بدايات البث الإذاعى سواء الحكومى أو الأهلى . . حيث تركز نشاط هذه المحطات فى نقل الحفلات الغنائية العامة . . إذ حرص أصحاب هذه المحطات وكذلك المشرفين عليها من جانب الحكومة على الإستعانة بكل من عبد الوهاب وأم كلثوم فى نقل وقائع هذه الحفلات الغنائية التى كانت تقام آنذاك فى الحدائق العامة وفوق المسارح . وكان من نصيب أم كلثوم . . المشاركة فى عام ١٩٣٤ فى أول حفل غنائى نقلته الإذاعة الحكومية لأول مرة رسميا . وقد وجدت آنذاك تنافساً كبيرًا فى هذا المجال مع الفنان محمد عبد الوهاب الذى كان فى هذا الوقت يحمل لقب مطرب الملوك والأمراء . وكان سعيه الدائم وزحفه ناحية الأثير من القوة والنفوذ بحيث أخاف العديد من رفاقه فى شارع الفن . .

وفى ظل هذه المنافسة كان على أم كلثوم أن تفكر فى اتباع أفكار جديدة حتى تتمكن من الصمود . . وكان من أولى هذه الأفكار إقامتها الحفلات الشهرية كل يوم خميس من أول كل شهر ! . وجاءتها هذه الفكرة بمحض الصدفة حين تعاقدت معها شركة ماركونى التى كانت تدير الإذاعة المصرية فى ذلك الوقت . . على إحياء إحدى الحفلات الغنائية وتصادف أن يكون موعد هذا الحفل يوم الخميس ٣١ مايو عام ١٩٣٤ ، وقد استمر غناؤها فى تلك الليلة ٤٠ دقيقة ، ومنذ ذلك اليوم صار يوم الخميس من كل أسبوع موعد حفلتها الجديدة . . ولعلها على حد قول الدكتورة نعمات فؤاد قد تفاءلت بيوم الخميس لذلك تمسكت به حتى يوم رحيلها ! .

ولما شعر عبد الوهاب بقوة أم كلثوم وقوة تأثيرها حتى عبر الأثير . . من خلال ذلك الإستقبال الحافل من الجماهير المصرية والعربية . . أدار إنشغالاته الفنية فى اتجاهات أخرى . وكان من أخصها وكما سوف يمر علينا بعد قليل هو العمل فى السينما والتفرغ لتلحين أغنياته وفرض شروطه لإذاعتها يومياً . . وذلك حسب ما يطلبه المستمعون ! ، إلى جانب تفرغه لإدارة شركة الإسطوانات التى كانت تدر عليه أرباحاً ضخمة .

فى حين نرى أن مطرباً آخر من الأربعة الكبار وهو فريد الأطرش كان يبذل جهداً كبيراً لأجل توصيل صوته وموهبته الفنية عبر الإذاعة . سواء المحطات الأهلية أو الحكومية . . وقد صادفه فى هذا الطريق عقبات كثيرة . . كان مصدرها الأول عدم اقتناع أصحاب تلك المحطات بموهبته كمطرب . . إذ كان فى ذلك الوقت لا يزال معروفاً لديهم بأنه عازف عود فقط ! . لذا كانت بدايته الحقيقية مع البث الإذاعى من خلال هذه الصفة ، حيث تعاقد معه أصحاب هذه المحطات ليعزف على عوده مرة كل أسبوع ! . إلا أنه وبعد محاولات استمرت عدة أشهر . . استطاع إقناع مديرى هذه المحطات ، خاصة المحطة الحكومية التى كان يشرف عليها آنذاك الموسيقار مدحت عاصم . بأنه مطرب وأنه يستطيع أن يقدم أغنياته وألحانه بصوته . وقد نجح بالفعل فى إتمام تلك الخطوة رغم ما كان يتقاضاه من أجر ضئيل لم يكن يكفى حتى لأجور الموسيقيين الذين كانوا يصاحبونه فى تسجيل أغنياته ! . هذا

الأجر قد توقف عند ٤ جنيهات فقط . . فى حين كانت أم كلثوم تتقاضى من الإذاعة وفى الفترة نفسها ثمانين جنيها . وهو من أكبر الأجور التى كان يتقاضاها آنذاك كل المتعاملين مع الإذاعة ! .

وفى حقيقة الأمر . . لم يكن ضعف الأجر أو ارتفاعه بالنسبة لفريد الأطرش أو لأم كلثوم يهم فى قليل أو كثير . . حيث كان الهدف الأكبر من وراء نجاحهما فى تحقيق تلك الخطوة المهمة هو الوصول لقطاع كبير من المستمعين وتوسيع نطاق شهرتهما . . وقد أكد ذلك فريد الأطرش نفسه حين قال بالحرف الواحد : «هذا الجمهور هو رأس مالى الحقيقى» .

***

وأهمية الإذاعة ودورها الكبير فى مسيرة الفنانين لم يكن بعيد عن فنان ذكى ومرهف الحس مثل عبد الحليم حافظ . الذى جاء تألقه متزامناً مع انتشار إقامة الحفلات الغنائية العامة التى قررتها ثورة يوليو منذ قيامها عام ١٩٥٢ ، واستفاد منها معظم الفنانين المصريين سواء من المبتدأين مثل عبد الحليم حافظ أو من المخضرمين من أمثال عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش .

ولقد ظلت احتفالات الإذاعة الشهرية أو الأسبوعية والتى تألقت بعد ثورة يوليو . . هى المصدر الأول لزيادة رصيد هؤلاء الأربعة بلا تفرقة داخل عقول وقلوب وصدور كافة المستمعين . ولذلك نجد أن كل من هؤلاء قد حرص بشدة على المشاركة الفعلية فى تلك الاحتفالات . وكانت فرصة لإستعراض ما كان يملكه كل منهم من مواهب فنية سواء فى مجال الطرب والغناء أو فى مجال الموسيقى والألحان . كما ظل هذا التقليد مستمراً حتى وفاة كل منهم . خاصة بالنسبة لأم كلثوم وعبد الحليم وفريد الأطرش بعد انسحاب محمد عبد الوهاب من ميدان الحفلات العامة سواء المذاعة أو غير المذاعة ! .

وكانت تلك الحفلات أيضا من أهم المهرجانات الفنية التى تقام سنويا والتى كان يستغلها هؤلاء للإفصاح عن أحدث إنتاجهم الفنى .

ليس هذا فقط بل وظلت الإذاعة من خلال تسجيلاتها للحفلات العامة من أهم المصادر المادية التى جلبت الربح السريع لهولاء بلا تفرقة وحتى من بعد

رحيلهم إذ لا يزال الورثة يحصلون من جمعية المؤلفين والملحنين على حقوقهم عن الأداء العلنى لهؤلاء الأربعة الراحلين . وهذه الحقوق قد تصل فى كثير من الأحيان إلى عشرات الآلاف من الجنيهات ! .

***

وعلى سبيل ذكرنا لما قدمه هؤلاء الإربعة من فنون رفيعة المستوى فوق الشاشة البيضاء ، وهو ما بدأنا به الحديث عبر هذا الفصل . . نجد أن السينما كانت الوسيلة الثالثة التى لجأ إليها هؤلاء من بعد الاسطوانات والإذاعة ! . وكانت تلك بحق مسك الختام فى مشوار شهرتهم جميعا . إذ ساعدهم عنصر الإبهار الذى تتحلى به السينما كفن فى استكمالهم طريق الشهرة والمجد حتى نهايته ! .

بل وأكثر من ذلك فقد ساهمت السينما فى حصولهم على المزيد من الجاه والسلطان والأموال .

ومما هو ملاحظ فى سياق الحديث عن السينما . . أن حظ كل من هؤلاء الأربعة فى التعامل مع هذا الفن الجديد . . قد تفاوت من حيث الوقت والأموال والشهرة والإستحواذ على كل ألوان الفنون .

ومما يجب التوقف عنده من قبل الانطلاق فى رحاب عالم السينما وعلاقة أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد وعبد الحليم بها . ضرورة معرفة بعض الذى قيل عن تاريخ ذلك الفن الجميل . حيث كانت البدايات الحقيقية لانتشار الفن اليسنمائى فى مصر وفى العالم العربى على يد هؤلاء الأربعة خاصة عبد الوهاب سواء من حيث التمويل مادياً أو فنياً . فقد تحمل عبد الوهاب عبأ الترويج لهذا الفن لما كان يحمله من حب للسينما . . الأمر الذى جعله يصرف عليه الأموال الطائلة .

وفى تصورنا أن عبد الوهاب لم يكن يحسب لهذه الخطوة حسابات مادية ، وإن كانت قد أثمرت فى حياته أموالاً طائلة تمتع بها فى حياته . ويكفيه فى هذا السياق القول بأنه كان من أوائل رواد السينما الاستعراضية والغنائية فى العالم العربى . وقد تبعه فى ذلك فريد الأطرش الذى أكمل المسيرة ومن بعده تولى هذه المهمة الفنان عبد الحليم حافظ .

وبما أشار إليه النقاد والمؤرخون فى هذا السياق أنه ومنذ بداية السينما الناطقة فى مصر ، فقد فرضت السينما كفن نفسها ووجودها وانتشرت فى كافة أرجاء العالم العربى عن طريق الكوميديا الغنائية ،وقد شجعت شركات الإسطوانات القديمة مثل أوديون وبيضافون المغنيين التى كانت تحتكر جهودهم للظهور فى أفلام السينما الغنائية . . وكانت تلك الأفلام من إنتاجها . وبالتالى فقد اجتذبت السينما فنانين لهم شهرتهم .

كما ساهمت فى الوقت نفسه فى زيادة رصيدهم من الشهرة بشكل واضح . ومن أكثرهم أم كلثوم وعبد الوهاب . وليلى مراد الذين تربطهم علاقة قوية بهذا الفن . . الأمر الذى جعلهم فى فترة قصيرة يتربعون على عرش الكوميديا الغنائية منذ نهاية الأربعينيات .[١]

ولأهمية هذا الفن فى حياة هؤلاء الأربعة بالذات . . فقد . لاحظنا اهتمامهم الزائد بالحديث عن السينما حتى فى أوراقهم الخاصة . إذ صوروا لنا بداية مشوارهم فوق الشاشة البيضاء . . وكيف تواجدوا بقوة فى قلب هذا الفن الجديد الذين علقوا عليه آمالاً كبيرة لتحقيق المزيد من أحلامهم الفنية وغير الفنية .

كما لاحظنا كذلك ومن خلال الوقوف على ما سطروه من كلمات عن رحلتهم مع السينما . . مدى اختلاف حظ كل منهما سواء من حيث وجود العقبات من عدمها . . أو من حيث ما غنموه من الأموال الكثيرة . وكان ذلك راجعاً فى الأصل إلى طبيعة البدايات التى صادفت هؤلاء مع فن السينما .

فقد وجد بعضهم الطريق ممهداً . . بينما خاض آخرون فى أشواك دامية حتى تمكنوا من هذا الفن وأقنعوا العاملين فيه بأهمية موهبتهم وتميزها عن مواهب غيرهم .

والغريب وكما سوف نبين ذلك فيما بعد أن هؤلاء الأربعة قد دخلوا إلى عالم السينما عن طريق المغامرة غير المحسوبة ! . وهى التى قادتهم إلى عالم من الأضواء ظلوا بداخله رغم تقدم أعمارهم وقلة إنتاجهم الغنائى ! .

أضف إلى ذلك وجود العديد من المتشابهات والمتناقضات فى حياة كل منهم فوق الشاشة البيضاء ! .

---

(١) السينما العربية – إعداد موفى براج وآخرون – ترجمة مى التلمسانى .

ولا شك أن الرجوع لكل ما دونه هؤلاء الأربعة فيما يخص مشوارهم السينمائى سوف يوضح لنا الصورة أكثر . . وهى تحمل فى طياتها تاريخاً واقعياً . . يمثل أهمية كبرى شارك فى صنعه هؤلاء الأربعة . إذ صادف دخولهم إليه بداياته المتواضعة التى كانت فى حاجة إلى جهود هؤلاء ، وقد ساهموا فعلاً بتلك الجهود فى رفع شأن هذا الفن الذى كان جديداً حينئذ .

وكان دخول كل من عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وفق ترتيب تواجدهم داخل السينما . . خير ختام لرحلتهم الفنية الطويلة ، والتى قطعوها على مدى أكثر من خمسين عاماً ، وخلال مراحل حياتهم الفنية المختلفة ، مقلدين ومتلقين ومجددين ومشهورين ونجوماً كبار ! .

ولقد رأينا من الضرورى الوقوف على ما سطره بعض المؤرخين عن دور الأربعة الكبار فى مجال الفن السينمائى وتزويده بالطاقات الفنية . . ومما قالوه فى هذا الشأن : أن أم كلثوم قامت بالتمثيل فى عدة أفلام من إخراج أحمد بدرخان مثل دنانير عام ١٩٣٨ وفاطمة عام ١٩٤٧ . وكانت تلك الأعمال ميلو دراما غنائية أكثر من كونها كوميديا غنائية . . ذلك لأن أم كلثوم فى الأصل - والكلام لا يزال للمؤرخ الفنى عباس فضل إبراهيم - تنحدر من تقاليد الغناء العربى القديم الذى يعتمد على التطريب . . لذلك كانت أفلامها راكدة مملة فى عيون المشاهدين من غير المعجبين بها ، ولكن هل حقاً كان هناك من المشاهدين من لم ينجذب إلى صوت لم يضاهه صوت قط مثل صوت أم كلثوم ؟!

أما عبد الوهاب فقد تميز بكونه أكبر ملحن فى الموسيقى العربية ، وقد استطاع بحذق أن يزاوج بين الموسيقى التقليدية وبين إيقاعات الموسيقى الغربية مثل الفالس والجاز حيث أضفى على أفلامه نوعاً من المرح الذى كان ينقص أفلام أم كلثوم . . لكن موهبة عبد الوهاب التمثيلية لم تكن فى مثل موهبته الغنائية مثله فى ذلك مثل أم كلثوم ، وقد أخرج له محمد كريم معظم أفلامه مثل الوردة البيضاء فى عام ١٩٣٣ ويوم سعيد عام ١٩٤٠ ورصاصة فى القلب عام ١٩٤٣ ولست ملاكاً فى عام ١٩٤٦ .

وفى فترة الحرب العالمية الثانية ظهر فريد الأطرش وأخته أسمهان فى فيلم إنتصار الشباب عام ١٩٤١ من إخراج أحمد بدرخان وكان هذا الفيلم سببا رئيسياً فى شهرته

الواسعة . واستمر فريد الأطرش الذى كان موسيقاراً مثل عبد الوهاب فى مشواره الفنى بعد وفاة أخته . . وكان يوسف شاهين من أوائل من أخرج أفلام فريد الأطرش وهى ودعت حبك عام ١٩٥٦ . وأنت حبيبى عام ١٩٥٧ . وبركات فيلم لحن الخلود عام ١٩٥٢ وصلاح أبو سيف رسالة من إمرأة مجهولة عام ١٩٦٢ . وحلمى حليم فيلم حكاية العمر كله عام ١٩٦٥ وعاطف سالم فيلم زمان يا حب عام ١٩٧١ .

وفى هذه الأفلام حمل فريد الأطرش اسم وحيد تماماً كما كان فى حياته واكتست أفلامه بالأسى ، وكانت أحيانا تمثل نوعاً من السيرة الذاتية مثل فيلم «ودعت حبك» ، الذى يودع فيه الحياة ، وقد أصابه مرض لا شفاء منه . . كما ودع الحياة فى الحقيقة بعد هذا الفيلم بعدة سنوات ! .

ثم جاء عبد الحليم حافظ منافساً خطيراً لفريد الأطرش حتى فرق بينهما الموت ، وكانت لأفلام عبد الحليم كما يقول ذلك النقاد جانبها الذاتى مثل فريد الأطرش كفيلم حكاية حب ، فحياته فى هذا الفيلم صراع مستمر مع المرض الذى انتصر عليه فى النهاية فى عام ١٩٧٧ ، أى بعد ٣ سنوات من وفاة فريد الأطرش وسنتين بعد وفاة أم كلثوم ، ولمثلهم كان الحداد عاماً على مستوى الأمة ، فموت هؤلاء العمالقة الثلاثة كان إيذاناً بإنتهاء عصر الكوميديا الغنائية كنوع سينمائى لم يعد متميزا حتى من قبل وفاتهم ، إذ كانوا قد تعدوا مرحلة الأدوار الشابة . [١]

ولسنا فى حاجة إلى أن نكرر أن الوقوف على ما سطره هؤلاء فيما يتعلق بعلاقتهم الخاصة بالسينما يوضح لنا ماسبق وأشرنا إلى بعضه من ملامح لصورة جميلة ظلت معلقة فوق القلوب وداخل الصدور حتى هذه اللحظة .

ولنبدأ رحلتنا فى هذا السياق بما قاله عبد الوهاب الذى يعتبر من أكثر الفنانين المصريين الذين اعتنوا عناية خاصة بالحديث عن مشواره السينمائى . . فقد ذكر عبد الوهاب أنه فى عام ١٩٣٢ وفى مدينة الزقازيق عندما كان فى زيارة خاصة لصديقه الكاتب الصحفى المعروف فكرى أباظة تعرف على المخرج محمد كريم . . وبعد أن تم التعارف بينه وبين محمد كريم «أخذنا نتجاذب أطراف الحديث عن صناعة السينما وفجأة وبلا سابق إنذار سألنى :

---

(١) السينما العربية – مصدر سابق .

- ليه يا أستاذ ما تعملش فى السينما ؟! .

ورغم ما أكد عليه عبد الوهاب فى بقية ما رواه فى أوراقه الخاصة من أنه لم يكن يتصور فى يوم من الأيام أن يظهر على الشاشة ، إلا أن فكرة العمل بالسينما بدأت تراوده وتلح عليه بشدة ، خاصة وأنه اكتشف على حد قوله : «بأن الأفلام سجل دقيق يحفظ الأعمال الفنية فى الأيام القادمة ، وما دمت قد آليت على نفسى أن أقدم جديد بإستمرار وما دمت كذلك أحترم إنتاجى الموسيقى ، فلابد من أن أتيح له سجلاً يبقيه» .

وما أن جاء عام ١٩٣٣ حتى بدأ عبد الوهاب يعد نفسه فعلاً لدخول عالم السينما التى قدم فيها عدة أفلام غنائية ناجحة ، وقد فتحت أمامه آفاقاً جديدة من الشهرة والنجومية . . وكما عرفنا سلفاً كان باكورة إنتاجه فى السينما فيلم الوردة البيضاء . . من خلال شركة إنتاجه الخاص «عبد الوهاب فيلم» . وقد مثل عبد الوهاب وأنتج سبعة أفلام كان أخرها فيلم «لست ملاكاً» فى عام ١٩٤٦ .

***

وفى الفترة التى دخل فيها عبد الوهاب شارع السينما ، لحقت به أم كلثوم ، لأجل تحقيق نفس الأهداف ونفس الغايات . . وقد لعب الحظ دوره الكبير فى دخول أم كلثوم هذا الميدان الفنى الجديد ، إذ لم يكن يخطر على بالها ولا على بال كل من كانوا حولها إتمام مثل هذه الخطوة التى دفعها إليها ذلك التنافس الشرس مع غريمها الفنى آنذاك محمد عبد الوهاب ! .

وكانت بدايات أم كلثوم السينمائية فى عام ١٩٣٥ ، أى بعد دخول محمد عبد الوهاب الميدان ذاته بعام واحد فقط . وقد مثلت أم كلثوم فيلم «وداد» الذى أرسل قصته الشاعر أحمد رامى إلى المخرج أحمد بدرخان ، وكان آنذاك فى بعثة فى باريس . . ومن بعد عودته بدأ بدرخان فى إخراج «وداد» لأم كلثوم . لكنه اختلف مع أحمد سالم مدير ستديو مصر فى ذلك الحين . . فترك بدرخان الفيلم ليكمله المخرج الألمانى لى كراسب .

أما لماذا اختارت أم كلثوم قصة «وداد» لكى تكون أولى أعمالها الفنية فوق الشاشة البيضاء . . فقد قالت عنه فى بعض أوراقها الخاصة :

«لم يكن من المعقول أن أختار لنفسى دور ملكة مثلا أو سيدة بيت تطلع على الجمهور من غير مناسبة بالغناء الذى لا يمكن أن يصدر إلا من محترفة ولها دراية بأحوال الغناء وفنونه . .» .

وتؤكد الدكتورة رتيبة الحفنى أن علاقة أم كلثوم بالسينما ترجع إلى ما قبل تاريخ اشتراكها فى فيلم وداد بعامين . . ففى عام ١٩٣٢ وعندما نجح فيلم الورد البيضاء لمحمد عبد الوهاب فكرت كوكب الشرق فى أن تنتج فيلماً سينمائياً لحسابها ، تقوم ببطولته ، ولكنها تراجعت عن هذه الفكرة عندما بلغها أن تكاليف فيلم الوردة البيضاء بلغت ١٢ ألف جنيه ، وقد عرض عليها «بولس حنا باشا» وهو أحد أغنياء الصعيد القيام بإنتاج هذا الفيلم على أن تكون شريكة له . . بمجهودها الفنى . .

فى البداية وافقت أم كلثوم وقررت أن تكون قصة وداد الأحمد رامى . هى أولى أفلامها ، لكنها عادت وفسخت العقد . ثم قامت شركة مصر للتمثيل والسينما بإنتاج فيلم وداد . وعرض الفيلم لأول مرة فى عام ١٩٣٦ . . ثم توالت أفلام أم كلثوم ، فظهرت فى ستة أفلام منذ عام ١٩٣٥ وحتى عام ١٩٤٥ وكانت كلها من إنتاج شركات السينما الكبرى .

ولا يفوتنا أن ننوه فى هذا السياق إلى ملحوظة هامة ترتبط إلى حد بعيد بمشوار كل من أم كلثوم وعبد الوهاب فوق الشاشة الفضية ، ففى الوقت الذى دخل فيه عبد الوهاب السينما فى عام ١٩٣٣ لحقت به أم كلثوم بعد ذلك بعامين فقط . . وقد خلف وراءه سبعة أفلام فى حين تركت أم كلثوم لنا ستة أفلام فقط . وعندما ترك عبد الوهاب ميدان السينما عام ١٩٤٦ . . سارت وراءه أم كلثوم على نفس الدرب . . إذ تفرغت هى الأخرى ومثله تماماً للأغنية فقط ، وإشباع حبها للشهرة وللمجد من خلال المشاركة فى الحفلات الغنائية سواء الاسبوعية أو الشهرية .

ولقد حاول الإقتصادى الكبير طلعت حرب أن يجمع بين هذين العملاقين الكبيرين فى عمل سينمائى واحد ولكنه فشل فى تحقيق تلك الخطوة التى تمنى تحقيقها غيره من رجال الإقتصاد والسياسة سواء من قبل فترة ثورة يوليو أو من بعدها ! .

***

ثم يلحق العملاق الثالث فريد الأطرش بكتيبة النجاح فى عالم السينما . . إذ راوده هذا الحلم طويلاً من أجل أن يكمل من خلاله مشوار الشهرة والنجومية .

بعدما ذاع صيته كفنان مطرب وملحن ، وقد دخل فريد الأطرش ميدان السينما على سبيل التحدى مثلما فعل مع الأغنية والألحان من قبل . وجاء أول أفلامه «انتصار الشباب» مدوياً فى الأفق . . عندما تعاقدت معه شركة أفلام النيل على القيام ببطولة هذا الفيلم فى عام ١٩٤١ فى مقابل ٣ آلاف جنيه مناصفة مع أخته الفنانة أسمهان .

وكان فيلم «انتصار الشباب» بحق نقطة تحول حقيقة فى حياة فريد الأطرش ، إذ قرر على إثر نجاح هذه التجربة خوض تجربة الإنتاج السينمائى لحسابه الخاص ، وقد شاركته الراقصة سامية جمال معظم أفلامه .

ويحكى لنا فريد عن قصة دخوله عالم السينما بقوله : «كنا على موعد سعيد مع القدر . . ذات ليلة ونحن نستعد للخروج سمعت طرقات على الباب ، فقلت لأسمهان قبل أن تصل إلى الباب ، لو كانوا ضيوفاً فقد ضاعت السهرة ، ولما فتحت رأيت الرجل الذى كنا نتفاءل به ، كان «ميشال بيضا» صاحب شركة إسطوانات بيضافون ، وصاحب آياد علىّ وعلى إختى أسمهان . . وكان الرجل معه أحد من رجال السينما هو «تلحمى» . . ونحن نعرفه وهو من أهل الفن . وجلسنا ومضينا إلى الهدف المباشر . . قال بيضا : آن الأوان يا فريد أن تنتقل لمرحلة أخرى فى حياتك ، قد شبعت غناء عند بديعة ، ولعل أسمهان تتردد الآن على مارى منصور ، وقد أكدت أرقام بيع الاسطوانات التى سجلتها خلال العامين الماضيين أنكما تقتربان من الأرقام القياسية . وسكت قليلاً فأمسك تلحمى طرف الخيط وقال : ولهذا فكرنا فى إنتاج فيلم تقومان ببطولته أنت وأسمهان» .[1]

وعلى إثر نجاح فيلمه الأول دخل فريد الأطرش دائرة الضوء . . . ، وبالتالى أخذ يواصل مشوار نجاحه عبر الشاشة الفضية بدءاً من عام ١٩٤١ وحتى عام ١٩٧٥ ، وقد تمكن خلال هذه الفترة من إنجاز واحد وثلاثين فيلما غنائيا واستعراضياً ، كان أخر هذه الأفلام «نغم فى حياتى» من إخراج هنرى بركات . وقد عرض بعد عدة أشهر من وفاته . كما ساهم فريد الأطرش نفسه فى إنتاج ثلاثة عشر فيلماً من هذه الأفلام .

***

(١) المصدر السابق .

وإذا كانت الصدفة وحدها هى التى حددت مصير فريد الأطرش فوق الشاشة الفضية . فقد كانت كذلك بالنسبة للعملاق الرابع عبد الحليم حافظ - الذى تمكن هو الآخر من دخول هذا الميدان ليلحق ببقية العمالقة الكبار ، محققاً نفس الأهداف ونفس الطموحات . وكانت أولى أفلامه فى هذا المجال فيلم «لحن الوفاء» فى عام ١٩٥٤ من إخراج إبراهيم عمارة .

وكان عبد الحليم حافظ قبل هذا التاريخ بعامين على الأقل يأمل أن يبدأ مشواره فوق الشاشة الفضية عندما تعاقد معه محمد عبد الوهاب لإحتكار جهوده الفنية سواء فى مجال الأغنية أو فى مجال التمثيل ! . والغريب كما كان يتردد آنذاك من أن عبد الوهاب كان يهدف من وراء تحقيق تلك الخطوة تأخير ظهور عبد الحليم حافظ حتى الوقت الذى يحدده هو كمحتكر لجهوده الفنية .

وكانت جلسة الصلح التى تولى تدبيرها الشاعر الراحل كامل الشناوى لتقريب وجهات النظر بين عبد الوهاب وعبد الحليم بداية طيبة فى حياة الأخير خاصة فى مجال السينما ، عندما تعاقد معه المخرج إبراهيم عمارة للقيام ببطولة أولى أفلامه «لحن الوفاء» .

وعلى إثر نجاح هذا الفيلم الغنائى الهام إنطلق عبد الحليم حافظ بسرعة الصاروخ فى اتجاه السينما الغنائية والعاطفية ، فتعاقد فى عام ١٩٥٥ على القيام ببطولة فيلم «أيامنا الحلوة» . ثم توالت بعد ذلك مساهماته فى السينما حتى بلغت ١٦ فيلماً كان آخرهم فيلم «أبى فوق الشجرة» الذى مثله عام ١٩٦٩ .

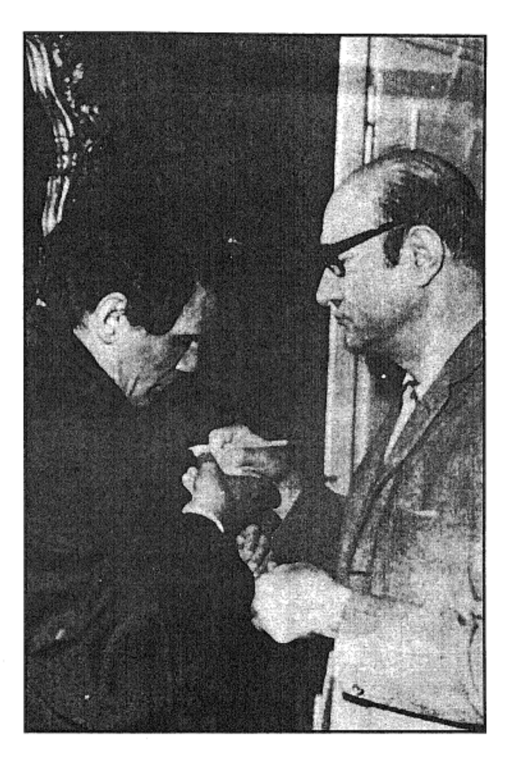




● عبد الوهاب فى استراحة قبل تصوير أولى أفلامه



● قبلة على يد كوكب الشرق.. دليل النجاح



● عبد الوهاب يوقع على عقد احتكار كل أعمال عبد الحليم حافظ!



● مبروك النجاح . وبالأحضان فى الظاهر فقط !!

الفصل الخامس

قصص حب بالجملة.. والزواج ممنوع.. لأسباب خاصة

لقد لاحظنا أن الأربعة الكبار قد تحدثوا بإسهاب عن مسيرة حياتهم الفنية مع الإشارة على استحياء لبعض لقطات إرتبطت بحياتهم الخاصة . . سواء ما يتعلق من ذلك بأحوالهم العاطفية أو قصص الحب والزواج فى حياتهم ! . .

ولما كنا قد عقدنا العزم منذ البداية على أن تكون كل هذه الأوراق هى حديث مفصل بكل أمانة عن كل هؤلاء سواء عن مسيرتهم الفنية أو عن غيرهم . . فقد رأينا تحقيقا لصفة الحياد العلمى الذى يجب أن يتصف بها كل المؤرخين . . من الضرورى الإقتراب من هذا الجانب الخفى فى حياة هؤلاء أو معظمهم ! .

ولقد حاولنا تحقيق ذلك منذ البداية . حين تحدثنا عن نشأتهم وأصولهم وأماكن ولادتهم . . وخلال الأوراق القادمة سوف نتحدث كذلك وبشكل مفصل أكثر عن ارتباط هؤلاء الأربعة بالمغامرات العاطفية وقصص الزواج فى حياتهم . . سواء من استطاع منهم أن يحقق تلك الخطوة مثل عبد الوهاب وأم كلثوم . . أو من لم يستطع منهم ذلك مثل فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ .

كما اكتشفنا فى هذا السياق أن الحب والعاطفة والغراميات ، وكل شىء ارتبط بأحوال قلوبهم ، قد ساد كل حياتهم ، حتى أنهم لم يتمكنوا من التفرقة فى ذلك ما بين متطلبات الصديق أو الحبيب أو الزوج ! . واكتشفنا كذلك أن هؤلاء الأربعة ومن شدة إتقانهم لأدوار الحب والوقوف على أسراره ووسائله ، كانوا يتعمدون بثه فى قلوب غيرهم سواء بالليل أو بالنهار وذلك من خلال حسن اختيارهم للكلمات وللموسيقى التى تهز الوجدان وبالتالى تساهم فى ترويج ذلك الحب ! . مما جعل غالبية الناس ينظرون إليهم وكأنهم هم الحب نفسه ! . وذلك مخالفة للحقيقة التى

سوف نعرفها بعد قليل حيث لم يعرف أيا منهم ذلك الحب . . بل لم يعرفوه إلا لأسباب تجارية بحته ! .

ولقد رأى بعضهم أن سر شقائه فى الحب والذى ننظر إليه نحن على أنه نوع من الفشل . . كان بالنسبة له نجاحاً باهراً ، وقد ساعده على إحراز المزيد من الإجادة فى اتجاه القلوب وترويج العواطف . ومن هنا إعتبر أغلبهم أن الزواج بعد الحب لا يمكن أن يكون أحد البنود الخاصة فى قوانينهم العاطفية ، كما كان يُعد بالنسبة لهم ظاهرة متخلفة تعوق إنطلاقاتهم الفنية التى يحملون بها .

ورغم تلك النظرة التى لم تفارق أذهان ، هؤلاء الأربعة . . إلا أن إثنين منهما قد ارتبط زواجاً . وظل الاثنان الآخران يعيشان تحت مظلة ذلك الوهم ، وبلا زواج حتى آخر العمر ، وهما فريد وعبد الحليم . . رغم ما قيل ويقال من أنهما كانا ينويان الزواج لولا الظروف التى تدخلت فى الوقت المناسب لكى تمنعه . وكان على رأس هذه الظروف أحوالهما الصحية والمرضية .

وحتى من تزوج من هؤلاء الأربعة . . زواج المضطر . . . ظل كذلك يردد مقولة : «أن زواج الفنان يعطل من نشاطه !» ، بل وأكثر من ذلك كان عبد الوهاب يردد تلك المقول حتى من بعد زواجه الأول الذى كان سبب فشله وقوعه فى قصة حب جديدة !

***

ولا شك أن الحديث المفصل عن الأربعة الكبار وفق ما سقناه من أحاديث سابقة عن حياتهم العامة والخاصة . لم يكن ليكتمل بالمعنى المطلوب من دون الوقوف على أسرار حياتهم فيما يخص الحب والزواج . وهم أصحاب حكايات وحكايات تروى وكأنما هى ألف ليلة وليلة !

ولن نبتعد عن الحقيقة حين نقول إن المشاكل الاجتماعية الصعبة التى تعرض لها هؤلاء . . سواء داخل أسرهم أو داخل المجتمع . . كانت بحق دافعاً قوياً لإرتمائهم فى أحضان الحب بلا تمييز ، وهو ما أدى بهم فى نهاية المطاف إلى تكوين شبكة

واسعة من العلاقات الخاصة والعامة على مستوى الجنسين ، وإن جاءت المرأة فى المقدمة حتى فى حياة أم كلثوم نفسها !! .

بل وكانت الظروف النفسية الصعبة التى واجهها هؤلاء فى ظل فقدان حنان الأم ورحيل الأب مبكراً وغياب الحنان والحب البديل هى الأخرى من دوافع وقوعهم سريعاً فى الحب بحثا عن ذلك الحنان المفقود وسط زحام حياتهم ومشاكلهم المتنوعة .

ولا يفوتنا أبداً أن ننوه فى هذا السياق إلى ما كان يتمتع به هؤلاء الأربعة الكبار من أحاسيس ومشاعر رقيقة وفياضة . . اختزنوها مع مرور الأيام . . وهى التى أفرزت داخلهم كل المواهب الفنية وغير الفنية التى أمتعونا بها على مدى عمرهم كله . ولولا وجود هذه الأحاسيس حتى فى ظل وجود الموهبة المتأصلة لم يكن أبداً لهؤلاء الوصول إلى قمة الإبداع الفنى . وتلك الأحاسيس كانت من جانب آخر تمثل هماً كبيراً حملوه على أكتافهم وحاولوا التخلص منه فى دروب مظلمة داخل صدور وعقول من اقتربوا منهم ، وقد أصابت فناناً كبيراً مثل فريد الأطرش فى مقتل حين واجه الغدر فى معارك الحب . . ومات فداء لذلك الحب الذى فشل معه طوال حياته .

وعلى فكرة فلابد وأن يكون واضحاً للأذهان . . أننا لن نستطيع التحدث بحرية مطلقة عن علاقة هؤلاء الأربعة الكبار بالزواج مثلما تحدثنا أو سوف نتحدث عن علاقاتهم بالحب وبالأصدقاء ، ذلك لأن كل منهم قد نظر إلى الزواج على أنه مجرد وسيلة وليس غاية . وبذلك تحددت نظرته وقيدت خطواته فى الاقتراب من موضوع الزواج . وكذلك انحصرت تلك النظرة فى المزج بين الحب وبين الزواج ، الأمر الذى جعلهم لا يريدون من ورائه إلا ضمان النظرة الاجتماعية البعيدة عن قواعد الشواز ، ولم يكن هدفهم أبداً هو إقامة أسرة مستقرة وإنجاب أطفال على غرار غيرهم من الرجال ومن النساء الأسوياء . . وقد شذ عن ذلك محمد عبد الوهاب ولكن فى مرحلة متأخرة من حياته !! . وكذلك أم كلثوم التى نظرت هى الأخرى للزواج نظرة مختلفة سواء من حيث الأهداف أو الدوافع . إذ رأت فيه خطوة ضرورية لإنقاذها من مشاكلها الصحية والجسمانية . . وقد نبهها إلى ذلك الأطباء المعالجون الذين

أشاروا عليها بضرورة الإقدام على تلك الخطوة مهما كانت الأسباب . . حفاظاً على كيانها الجسدى على الأخص فيما يتعلق بأحبالها الصوتية !

ولقد دفع بها ذلك فى طريق أحد الأطباء المعالجين لها فتزوجها فى عام ١٩٥٤ ، وكانت قبل ذلك قد ارتبطت برجل آخر قيل إنها أحبته وكانت تتمنى أن تتزوجه . . ولكنها لم تستطع لأسباب سوف نذكرها فى حينها ! .

لقد تزوج عبد الوهاب مرتين وفق الأوراق الرسمية . . الأولى كانت متزوجة من قبله ولديها طفل . . وقد أحبت عبد الوهاب من كلمات أغنياته ولما طُلقت من زوجها الأول تزوجت من عبد الوهاب ؛ وظلت معه طوال عشر سنوات أنجب منها كل أولاده الموجودين الآن . . وكما كان الحب هو السبب فى هذا الزواج . . كان هو أيضا السبب فى إنهائه . . وذلك عندما أحست تلك الزوجة بأن عبد الوهاب قد أحب غيرها . . فطلبت الطلاق الذى تم بالفعل وفق إرادتها ! . كما اتخذ عبد الوهاب من عاطفته سبيلا جديداً للاقتران بسيدة أخرى ، وهى التى ظلت بجواره حتى يوم رحيله ! .

وعبد الوهاب من واقع هذه الخصوصية التقى مع أم كلثوم ، التى قيل إنها قد تزوجت مرتين . . ومن رجلين كانا متزوجين قبلها . الأول تردد أنه خطبها لمدة ٣ أشهر فقط . وكانت زوجته تعرف بأمر هذا الزواج . . والثانى ظل زوجاً لها حتى رحيلها . . وكان أيضا زوجاً لسيدة ظل على ارتباطه بها . . رغم زواجه من أم كلثوم ! .

أما الفارسين الآخرين ، فريد الأطرش وعبد الحليم فكان حظهما من الزواج أقل من حظهما من الحب ! . وقد أخذ كل منهما يردد أنه لولا حالته الصحية السيئة لأصبح بالفعل زوجاً ناجحاً فى حياته ! . كما أشار الآخر إلى أن الحب هو السبب فى فشل كل تجاربه التى كان يقدم عليها من أجل الزواج ! .

ودعنا نقول فى سياق هذا الحديث . . أن السبب الرئيسى وراء إتقان هؤلاء الأربعة لمهنة الحب . . أكثر من إتقانهم لمهنة الزواج . . هو ما اتصفوا به من شاعرية غريبة ملكت عليهم أنفسهم . . الأمر الذى جعلهم يعيشون حتى النخاع فيما كان يكتب لهم من كلمات وما كان يوضع لهم من ألحان عن الحب والغرام والآهات . والهجر والغدر . . وكل ما ارتبط بالحب من مشاكل ومتعة ! . هذه الآهات وهذه التنهدات ،

تركت بصماتها فى غاية الوضوح ليس على مسلك حياة هؤلاء فقط . . بل وامتدت لتشمل جيل بأكمله سواء من الشباب أو الشيوخ . . من الذين عاصروا الأربعة الكبار . . وكانوا يسهرون مع كلامهم فى الحب حتى الصباح ! .

ولدينا أمثلة كثيرة تحدث البعض عنها . . ورأينا البعض الآخر منها رأى العين فما من مرة يذيع الراديو أو التليفزيون أغنية عاطفية لعبد الحليم حافظ أو فريد الأطرش أو حتى عبد الوهاب وأم كلثوم ، إلا وتجد الفتيات والنساء ، بل والرجال من الشباب والشيوخ ينصتون بإهتمام بالغ . . ثم تجد أغلبهم يغيب عن دنياه . . إذا ما استمع لكلمة حب أو آهات أو تنهيدة عاشق . . وقلما تجده يعود من جديد إلى واقعه حتى من بعد إنتهاء الأغنية أو مشاهدة الفيلم ! .

بل وأكثر من ذلك فإن هناك عشرات الأفلام الرومانسية التى أتقنها خاصة عبد الحليم وفريد الأطرش ، ولازالت تجد صدى كبيراً فى نفوس عشاقهما إذا ما إذ ذيعت عبر الشاشة الصغيرة أو فى محلات الفيديو ! ، ويحتل فيلم «أبى فوق الشجرة» لعبد الحليم حافظ ، وفيلم «لحن الخلود» لفريد الأطرش المرتبة الأولى داخل مملكة الفيديو حتى هذه اللحظة ! . ورغم مرور عشرات السنين على عرضهما لأول مرة ! .

هذا التأثير الكبير ، وهذا الانتشار غير المسبوق ، إنما يرجع سببه فى الأساس إلى عوامل الاتقان التى التزم بها هؤلاء الأربعة إلى حد المصداقية ، خاصة فيما يتعلق بالحب والعواطف وما يصاحبهما من طرق مشوقة تتسبب فى إهتزاز أوتار القلب بسهولة . هذا الإتقان نفسه كان أحد الأسباب المباشرة لوقوع هؤلاء الأربعة فى قصص ومغامرات الحب والعاطفة فى أفلامهم . إلا إذا ارتبط بقصة حب !! .

ولعلنا بطريقة بسيطة نستطيع أن نضع أيدينا على هذه الظاهرة ، إن جاز لنا أن نعتبرها ظاهرة . . عندما نقوم بإحصاء سريع لعناوين الأفلام التى مثلها هؤلاء خاصة عبد الحليم وفريد الأطرش . وكذلك عناوين الأغنيات والقصائد التى أنجزوها فى كل مراحل حياتهم الفنية .

وللأسف الشديد . . لم يلتفت أحد من المؤرخين أو من الباحثين لدراسة هذه الظاهرة والخروج منها بنتائج يمكن من خلالها معرفة أسباب قضايا ومشاكل اجتماعية كثيرة لا زالت تفرض نفسها بيننا حتى الآن ! .

ولا شك أن الوقوف على علاقة هؤلاء الأربعة سواء بالحب أو الزواج وبشكل تفصيلى سوف يبين لنا ذلك ، . . وعلى من يريد استكمال مشوار البحث والدراسة أن يتبعنا خلال السطور القادمة ! .

***

ولنبدأ الرحلة فى هذا السياق مع الموسيقار محمد عبد الوهاب . . ولا داعى هذه المرة أيضا من ترديد حيثيات هذا الاختيار . . وهذه البداية المعنية لا يمكن أن تكون بالصورة التى نتمناها إلا من خلال الاستماع لما سطره عبد الوهاب عن رأيه أولاً فى الزواج .

ومما قال محمد عبد الوهاب فى هذا الشأن : «لن أتزوج ولو شنقونى ، ذلك لأننى أعتقد أن الزواج يقضى على الفنان الذى يريد أن يحس وأن يحلم وأن يحلق كل ساعة فى سماء الخيال . . إن الزواج رابطة مملة مهما كانت الزوجة ومهما حسنت نية الزواج . . أرونى زوجة عمرت فى بيتها الأحلام بعد سنة واحدة من الزواج ؟! . إن الفنان فى حاجة إلى عين لا تنضب من الخيال والحس والشعور بمختلف العواطف من حزن وفرح وبغض وحنان ولذة وألم وحب وكراهية ؛ إلى آخر الألوان التى يصورها كل يوم بموسيقاه والتى تتدافع فى صدره وتخرج منه أنغاماً تشجى وتبكى . . والزواج يقتل هذا كله ، وعلى من يعارضنى فى هذا الرأى أن يمد إصبعه ويشير على فنان واحد استطاع فنه أن يعيش كاملا بعد الزواج» . [1]

وقد صاحب نشر هذا الحديث . . كلمات توحى بأن عبد الوهاب قد كتبه رداً على ما أشيع عن زواجه !! إلا أن عبد الوهاب وأمام متطلبات الحياة ونداء جسده لم يستطع أن يسير وفق هذا الرأى لسنوات طويلة . . فإضطر فى عام ١٩٤٣ أن يتزوج من السيدة إقبال نصار التى كانت متزوجة من قبل ولها طفل .

وفى عام ١٩٥٣ كرر عبد الوهاب التجربة وتزوج للمرة الثانية من السيدة نهلة القدسى زوجة أحد رؤساء وزراء الأردن السابقين . وكان لها أولاد من غير عبد الوهاب ، وهى التى ظلت معه وبجواره حتى يوم رحيله .

(١) لن أتزوج . . مقال لعبد الوهاب نشر بآخر ساعة فى ١٤ يوليو عام ١٩٣٤ .

والواقع أن تراجع عبد الوهاب عن الإضراب عن الزواج . . لم يظهر بشكل عملى فى حياته فقط . . بل فقد إعترف بتراجعه عن أفكاره السابقة فيما يخص الزواج وذلك فى مذكراته الخاصة حين قال : «الواقع إن الناس يختلفون فى أمر زواج الفنان ، وتأثيره على فنه وإنتاجه ، ولكننى أعتقد أن الأمر يختلف فى حالتى الرجل والمرأة ، فزواج الفنان قد يكون أمراً لازماً ، لأن الرجل محتاج إلى إنسانة تشرف على شئون طعامه وشرابه وملبسه وتهيئ له الجو الملائم لإنتاجه الفنى ، وذلك بشرط أن تفهم رسالته ، فتعرف متى تتكلم ومتى تصمت ومتى تتركه لعمله . وبذلك يتخفف الفنان من عبأ كبير ، وهو المسئولية المنزلية ، ويجد من يدبر له شئون حياته اليومية ، فيتفرغ لنفسه فى جو هادئ تسوده الرعاية والحنان . [١]

ليس هذا فقط . . بل واعترف فى نفس هذه المذكرات بأن مهما كان الرأى فى زواج الفنان فإن زواجه بالذات كان نعمة من الله عليه . إذ هيأ له الإستقرار المنزلى كما أتاح له التمتع بأكبر قدر من السعادة ، عندما صار أباً لأربعة أطفال . [٢]

وحين نبحث بحياد عن حقيقة تراجع عبد الوهاب عن آرائه فى الزواج ، وإقباله على هذا المشروع الذى كان يرفضه من قبل . . نجد أنه كانت هناك أسبابا كثيرة قد فرضت عليه ذلك التراجع ، وكان من أولى هذه الأسباب وفق تصورنا هو إحساسه بأن فترة الشباب قد ولت ، وأصبح مقبلاً على فترة الشيخوخة ، وبالتالى لم يعد له نفس بريق ولا جاذبية ابن العشرين ! أضف إلى ذلك تحول عبد الوهاب إلى رجل أعمال ناجح ، حيث أخذ يبحث عن الأموال والمصادر المشروعة لها ، مما أدى إلى إنحسار موجة النساء فى حياته ، وهو الذى كان من قبل وعلى حد قول المؤرخين . من أشهر الفنانين المصريين الذين عشقتهم النساء .

***

وحين نترك حديث الزواج جانبا ، ونقترب من خلال نفس الحديث من منصة الحب ، لتحديد موقع وموقف عبد الوهاب منه . . سوف نجد أن العاطفة فى حياته

(١) محمد عبد الوهاب – لطفى رضوان – كتاب الهلال .

(٢) المصدر السابق .

قد انحصرت مثل بقية زملائه فى عدة إتجاهات . . وذلك بخلاف ما قيل وما ردده هؤلاء بشأن الحب والمحبين ! .

لقد تولد بداخل كل منهم وعلى مدى الأيام والسنين ، سواء التى عاشوها فى ظل قسوة العيش أو هناءه ، ضرورة التمسك بحب الحياة ومباهجها أولاً . . ثم تدرج ذلك الحب إلى عاطفة من نوع خاص ، هى عاطفة حب المال والشهرة والسلطان والنجومية . ووسط حب الحياة وحب المال كان لابد من أن يفرض حب النساء سلطانه عليهم ، وبالتالى أخذ يعتلى منصة الحب بلا منافس ، بل وكان وصول المرأة إلى منصة الحب فى بعض الأحيان سباقاً على المال وعلى الجاه ، وإن كان ذلك فى الوقت نفسه يمثل أحد مصادر المنافع الخاصة . . ذلك لأن المرأة دائماً وفق تكوينها الأنثوى تحب إلى درجة الجنون كل شيء له بريق بدءاً من الذهب ومروراً بالصورة والصوت والأحلام البراقة والوردية ! .

وكما نعرف جميعا . . فإن عبد الوهاب قد استطاع وخلال فترة قصيرة من أن يحقق هذه البريق الذهبى الخاطف والذى جذبه إلى كتيبة كبيرة من النساء فى مختلف الأوساط الاجتماعية . كما كانت أفلامه الغنائية والعاطفية أحد مصادر ذلك البريق .

وكما كان لعبد الوهاب رأى صريح فى الزواج . . سواء من حيث الموافقة أو الرفض . . نراه قد سجل لنا رأياً آخر عن الحب فى نفس مذكراته . .

ومما قاله فى هذا السياق : «إننى أعتقد من تجاربى الخاصة أن الحب يلهم الفنان فى حالتين فى بدء دخوله إلى القلب عندما تبدأ قصة عاطفية جديدة ، وعندما ينتهى ويصبح ذكرى ! . فالحب فى هاتين المرحلتين يثير الخيال فينشط الفنان لتسجيل خواطره وذكرياته ، فالحب يلهم الفنان حين تلتقى العيون وتضغط اليد على اليد ، ويكون الحديث همساً واستطلاعاً والإحساس رعشة وشكاً ورغبة لم تتحقق» !! .

وكما يبدو فإن عبد الوهاب قد كتب تلك الكلمات بإحساس الفنان العاشق للحب ولنفسه قبل حبه للآخرين . ولذلك نراه قد اتخذ من كلماته هذه لافتة ظل يسير أسفلها لفترة . . خاصة فى بداية حياته الفنية والعاطفية . . مما جعل العديد من المؤرخين يتابعون بكل دقة أشهر قصص الحب فى حياته حتى واقعة زواجه فى

عام ١٩٤٣ كانت على حد قول الناقد الفنى الراحل محمد السيد شوشة مفاجأة للجميع . . خاصة لكل عشاقه ولعشاق فنه . مع أن هذا الزواج قد حدث بعد قصة حب عنيفة عاشها عبد الوهاب مع السيدة إقبال نصار . . وقد انتهت تلك القصة بالزواج .

وليس هذا فقط . . بل وكانت كل مغامرات عبد الوهاب فى عالم الحب حديث الصحف إلى عهد قريب . . ومما قيل فى هذا السياق .أن أشهر قصص الحب فى حياة هذا الفنان قد بدأت منذ نعومة أظفاره سواء فى الحياة أو فى شارع الفن ، وأولى تلك المغامرات العاطفية التى تعرض لها عبد الوهاب حدثت له وهو فى سن الثامنة من عمره وكانت مع سيدة علمته قبل الحب . . العزف على البيانو وعلى العود . ثم أحب غيرها بعدما تعلم على يدها أصول الحب ، ووقعت قصة حبه الثانية وهو أيضا فى سن الخامسة عشرة من عمره ! ، ولما أصابه الفشل فيها فجرت بداخله بعض روائعه الموسيقية التى ظهرت بوضوح فى تلحينه لبعض الأوبريتات الغنائية فى فترات عديدة من حياته .

كما كانت هناك سيدة ثرية وصاحبة صالون أدبى مشهور كان يتردد عليها كبار رجال الفكر والسياسة والفن ، قد وقعت فى غرام عبد الوهاب . . مما جلعها ترتبط به ارتباط العشاق . . ولذلك صار نديم أفراحها وسهراتها ولياليها التى كانت تمتد حتى الصباح فى ذهبيتها على النيل .[1]

ولم تخلو حياة عبد الوهاب من قصص وحكايات حب أخرى ظل الجميع يرددونها خاصة الذين اقتربوا من حياته الخاصة . . وكان منها أيضا قصة حبه الشهيرة لإحدى فتيات الإسكندرية والتى قابلها فى بيروت عندما كان يقضى هناك إجازة الصيف مع أمير الشعراء شوقى فى عام ١٩٣٠ . ولما عاد إلى مصر . . ظل يعيش على ذكريات قصة الحب هذه . . ومدة ٥ سنوات ، ثم علم بزواجها . بعدما التقى بها صدفة فى قطار الإسكندرية .

والجديد هنا . . خاصة فى حياة عبد الوهاب العاطفية أنه قد استطاع وبنجاح يقارب نجاحه الفنى . . فى استغلال هذه القصص وهذه المغامرات فى إبداع أروع

(١) محمد عبد الوهاب - الموسيقار المليونير - محمد السيد شوشه .

ألحانه ، حتى قيل إن رصيده الكبير من الألحان ومن الأغنيات العاطفية رقيقة الإحساس كان مصدرها . . قصص الحب المتنوعة فى حياته ! .

***

أما الحب والزواج فى حياة فنانة مشهورة مثل أم كلثوم فلم يكن ليتغير كثيراً عما عاشه منافسها فى شارع الأغنية محمد عبد الوهاب ، إلا فى حالات إرتبطت غالبًا بإختلاف نوع الجنس ونظرة الرجال إلى هذا الأختلاف ! .

إذ عاشت أم كلثوم هى الأخرى قصص حب عديدة . . بدأت مع حياتها منذ مشوارها الفنى الأول . وكان لإنغماسها فى هذه العواطف . وحبها المبكر لهذه المغامرات ، تأثير كبير على مسيرة حياتها فى الزواج . . الأمر الذى فرض عليها فى نهاية المطاف أن تبحث بنفسها عن رجل يقبل أن يكون زوجاً لها ! . وذلك لإرضاء بشرتها . . ولنا فى هذا الموضوع وفى هذه الخصوصية كتاب أصدرناه منذ فترة غير قليلة عن الحب والزواج فى حياة أم كلثوم .(١)

وكان مما لاحظناه فى مسيرة حياة أم كلثوم العاطفية ، إنها لم تسجل أية آراء خاصة بها سواء عن الحب أو عن الزواج مثلما فعل ذلك الثلاثة الآخرون . ولذكائها وحيائها كفتاة نشأت فى الريف ، فقد تركت تلك المهمة لغيرها من الرجال سواء من الأصدقاء أو من النقاد ! .

وحين نعود للإجتهاد فى البحث عن المغامرات العاطفية التى عاشتها أم كلثوم نجد أن قصة حبها العذرى للشيخ أبو العلا محمد والتى بدأت فى أوائل عام ١٩١٩ أو قبل ذلك بقليل كانت تتصدر تلك المغامرات . . كما تعد من أولى المغامرات العاطفية التى لم تجد أم كلثوم حرجاً فى تسجيلها بكل أمانة ، سواء فى أحاديثها الصحفية أو فيما كانت ترويه من ذكريات عن حبها للبعض فى صفحات مذكراتها . . وقد استمرت علاقتها العاطفية بهذا الشيخ فترة غير قصيرة من وجودها بالقاهرة . وبدون تعليق من جانبنا سوف نورد بعض الذى سطرته أم كلثوم عن حبيبها الأول .

---

(١) صدر هذا الكتاب أوائل عام ١٩٩٩ تحت عنوان : أم كلثوم الحب والزواج والأصدقاء - عن دار نهضة مصر .

قالت أم كلثوم عن الشيخ أبو العلا : «كنت أغنى بلا إحساس ولا شعور . . لقد كنت أردد الأغانى التى أسمعها من أبى بنفس الطريقة التى يردد بها التلميذ الصغير جدول الضرب ، وقواعد النحو والصرف . . ثم غيرنى فونوغراف العمدة ، لقد سمعت من هذا الفونوغراف صوت الشيخ أبو العلا محمد ، لقد هزنى صوته . . وكنت أشعر بأنه يغنى لى وحدى» .

وفى عبارة أخرى قالت : «كنت لا أصدق عينى وأنا أجلس أمامه . . عشت فى حلم ، ولما جلست أمام الشيخ أبو العلا محمد طلبت منه أن يغنى لى فطلب منى أن أغنى له أولاً ، ورفضت فى خجل . . فكيف أجروء على الغناء أمام هذا العملاق ؟! . وفى النهاية غنى لى وغنيت له» !! .

وفى عبارة ثالثة نقلتها على لسان الشيخ العاشق قالت« رأيت دمعة تسقط من عينيه ثم قال : لن أفترق عن هذا الصوت طول عمرى» .

وعلى لسانها قالت عنه : «وغاب الشيخ أبو العلا يومين على غير العادة ، وفى اليوم الثالث ذهبت إلى منزله أسأل عنه فوجدته مريضا ، فعدت والدموع تبلل خدى ، وأخبرت والدى فرافقنى أنا وأخى خالد لنقضى معه هذه الليلة ، ومكثنا معه حتى نام . . كنا نذهب إليه كل يوم إلى أن استرد صحته ، وفى الأيام التالية وحين ثقل لسانه ، كان يحرص أيضا على الحضور إلينا ويغنى لى ، وعندما تغيب الكلمات منه أو يتعثر نطقها يقول لى : إنتى عارفة أنا عايز إيه ؟! . . إننى لن أنسى أبداً يوم أن قال لى : لن نفترق أبدًا ياأم كلثوم» ! .

ومما هو ملاحظ فى حياة أم كلثوم العاطفية . أنها بالفعل لم تهتم بتسجيل ذكرياتها العاطفية سواء المبكرة أو المتأخرة . . إلا مع الشيخ أبو العلا فقط . . بينما سجل عشاقها الآخرون علاقتهم بها . . وهذا هو الفارق الكبير ! . . فنجد مثلاً أن كل من الشيخين زكريا أحمد ومحمد القصبجى يسجلان فى أوراقهما الخاصة العديد من الأحاديث والعبارات التى تبين لنا مدى هيام كل منهما بأم كلثوم ! .

حتى أن الشيخ زكريا لم يكتفى بتسجيله للقاءاته العاطفية والغرامية مع أم كلثوم فقط . . بل ونشر مع تلك الذكريات صوراً فوتوغرافية لمعظم الخطابات الغرامية

التى تبادلها مع الصبية الفلاحة أم كلثوم ! . ومذكرات الشيخ زكريا أحمد التى كتبها المرحوم صبرى أبو المجد مليئة بهذه الذكريات التى بدأت منذ أول لقاء تم بينهما فى قريتها فى عام ١٩٢٠ !

كما نجد أن الموسيقار محمد القصبجى يرفض فكرة الزواج حتى آخر العمر لأنه ظل على حبه لأم كلثوم حتى يوم وفاته ! . وأيضا فقد امتلأت مذكراته الخاصة بالعشرات من العبارات ومن المواقف التى حاول من خلالها وصف وقائع قصة حبه لأم كلثوم ! .

ثم يأتى الدور على شاعر الشباب أحمد رامى . . الذى عاش هو الآخر قصة حب عنيفة مع أم كلثوم . . وقد اقتربت تلك القصة من حافة مشروع زواج لولا تدخل الظروف فى الوقت المناسب فمنعت أحمد رامى من تحقيق ذلك . وهو الأمر الذى أحزن أم كلثوم كثيراً . لأنها كانت بالفعل وفق ما أشارت إليه كثيراً تتمنى أن تتزوج من أحمد رامى !

وقد كتب لنا أحمد رامى قصة حبه لأم كلثوم بطريقتين ، الأولى عن طريق كلمات أغنياته وقصائده التى كان يتحدث فيها عن حبه لأم كلثوم . والثانية فى مذكراته التى كتبها بعد رحيل أم كلثوم ! .

وكذلك تحدثت أم كلثوم فى بعض أوراقها وفى بعض أحاديثها الصحفية عن أمنيتها وحبها لأحمد رامى . . وحزنها الشديد على فراقه وعدم رغبته فى إتمام الزواج منها ! . حتى قالت فى هذا السياق أنها اشترت له خاتماً مكتوب عليه . . حرفين من إسميهما . . وقد صور لها خيالها وقلبها أن هذا الخاتم ، إنما سيكون أول خطوة فى طريق الزواج من شاعر الشباب ! .

وبخلاف قصة أم كلثوم مع أحمد رامى ومع الشيخ أبو العلا والشيخ زكريا أحمد والقصبجى هناك العشرات من الحكايات التى ترددت عن قصص حب أم كلثوم ، والطابور الطويل من الرجال الذين تمنو أن يقترنوا بها . . بدءاً من حكايتها مع العمدة الذى عرض عليها عشرات الأفدنة الزراعية كعنوان لحبه ، ومروراً بقصتها مع

الطبيب الطنطاوى الدكتور أحمد صبرى النجريدى . . الذى هجر مهنة الطب من أجل عيون وقلب أم كلثوم . . وانتهاء برغبة رجل السياسة - خال الملك فاروق شريف باشا صبرى - من الاقتران بأم كلثوم لتتويج قصة حبه لها .

ومانود أن نشير إليه فى هذا السياق أن كتابنا الذى صدر حديثا عن حكايات الحب والزواج لأم كلثوم به العشرات من هذه الحكايات المؤكدة وقد سبقت . الإشارة إليه . . وعنوانه «أم كلثوم بين الحب والزواج والأصدقاء» (1) .

ومن أهم ما أوضحناه فى هذا الكتاب . . أن نجاح أم كلثوم فى مهنة الحب لم يرقى إلى نجاحها فى مهنة الزواج ! . وقد اهتمت الصحف والمجلات الفنية وغير الفنية بهذه الخصوصية فى حياة أم كلثوم . حتى أننا نجد أن هذه الفنانة . قد ارتبطت بقصص الزواج أربع مرات فقط . . رغم ما أشيع من أنها تزوجت أكثر من ١٢ مرة ! .

المرة الأولى . . حين عرض عليها الدكتور النجريدى أن يتزوجها عام ١٩٢٦ ! . ولكنها رفضت بناء على رفض والدها الشيخ إبراهيم الذى لم يكن يريد أن يعطل زواج ابنته من مسيرة حياتها الفنية .

والمرة الثانية . . فى عام ١٩٤٦ ، حين عرض عليها شريف باشا صبرى أخو الملكة نازلى أن يتزوجها عرفياً فرفضت ، بل وطلبت أن يكون زواجه منها زواجاً رسمياً !

والمرة الثالثة . . حدثت فى نفس العام تقريبا . . حين طلبت أم كلثوم من الموسيقار الشعبى آنذاك محمود الشريف بأن يتزوجها ، بعدما نصحها الأطباء بذلك خوفاً على صحتها وعلى صوتها ! . . هذا الزواج الذى لم يستمر بسبب ضغط الملك وبعض الصحفيين الكبار .

أما المرة الرابعة والأخيرة . . فهى التى تزوجت فيها أم كلثوم زواجاً علنياً معروفاً من الدكتور حسن الحفناوى الذى ظل بجوارها كزوج حتى رحلت عن عالمنا . وقد

---

(١) كتاب صدر عن دار نهضة مصر .

تم هذا الزواج فى عام ١٩٥٤ . ولم تشر إليه الصحف إلا فى حدود ضيقة ، وذلك لأسباب أمنية ووطنية .[1]

ولا ننسى أن نشير فى هذا السياق إلى أشهر قصة زواج مزعومة عاشتها أم كلثوم فى عام ١٩٣٦ ! . وذلك عندما فوجئت بأحد مندوبى الشرطة «المحضرين» . . يحمل لها . . إنذاراً بضرورة إنصياعها لأمر المحكمة بدخولها إلى بيت الطاعة ! . لأنها رفضت العيش مع زوجها عبد الستار الهلالى فى منزل الزوجية بدشنا !! .

ونزل ذلك الخبر على رأس أم كلثوم كالصاعقه . . مما جعلها تلجأ إلى أصدقائها من كبار المحامين . . وتصدى لهذه القضية الأديب والمحامى فكرى أباظة ! الذى بذل مجهوداً كبيراً لإخراج أم كلثوم من هذه الورطة ! . وقد اهتمت الصحف والمجلات الصادرة آنذاك بأخبار هذه القضية ، فأفردت لها العديد من الصفحات . . كما أشار إليها العشرات من المؤرخين . . الذين أكدوا أن هذه القضية قد استمر نظرها أمام محكمة دشنا الشرعية ثم أمام محكمة السيدة زينب قرابة ستة أشهر وانتهى الأمر بالقبض على هذا الزوج المزعوم وإيداعه السجن بتهمة التزوير فى أوراق رسمية !

***

وحتى نكمل مشوار الحديث عن قصص الحب والزواج فى حياة هؤلاء العمالقة كان علينا ضرور الوقوف تفصيليا على قصص الحب والزواج فى حياة كل من فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ .

ولقد اكتشفنا كما سبق وأوضحنا أن ارتباط هذين العملاقين بالحب والعواطف كان هو الأساس . . إذ جاء الزواج فى المرتبة الثانية من حيث الإهتمام والإعلام فقط ! . . أما فى الواقع فقد اختفى الإهتمام به ، وأن بدى ذلك ظاهرياً فوق صفحات الصحف وفى المجلات الفنية فقط !

وقد تردد آنذاك الحديث عن أسباب كثيرة منعت هذين العملاقين من تحقيق خطوة الزواج هذه . وكان من أهمها سوء حالتهما الصحية . . التى كانت تقف فى طريق زواجهما ! . وإن توفرت لديهم الرغبة . .

---

(١) راجع هذه الأسباب – فى كتابنا . . أم كلثوم بين الحب والزواج والأصدقاء .

ويستشهدون على ذلك بأن فريدالأطرش قد أصر على الارتباط بزوجة قبيل وفاته . . فخطب سيدة ظلت بجواره حتى الوفاة ! . . وكذلك فعل عبد الحليم حافظ الذى نقل عنه كل من كانوا حوله بأنه كان ينوى الزواج بعدما حصل علي تفويض من الأطباء المعالجين بذلك . . بل ويرى البعض أن عبد الحليم قد تزوج فعلاً ، وأن الفنانة سعاد حسنى قد أكدت زواجها منه بعد وفاته ! .

ومما هومثير للغرابة أن حكاية كل من هذين الفنانين مع الزواج قد راجت بشكل واسع من بعد رحيلهما ! . أكثر من رواج حكايات الحب فى حياتهما ! . والمتابع لأحاديث الصحف وموضوعات الكتب التى ما زالت تصدر حتى الآن يكتشف ذلك بسهولة ! .خاصة وأن هذه الموضوعات تثير شهية القراء . . مما شجع من يكتبونها على الاستمرار ، والتجويد ! .

وبعيداً عما قيل ويقال سواء فى السر أو فى العلن . . عن قصة حياة هذين الفنانين الكبيرين فيما يخص الحب والزواج . . رأينا أنهما – ومن خلال ما سطرا فى أوراقهما الخاصة – كانا دائما ما يرددان أنهما لا يهتميان بالزواج قدر اهتمامها بالحب ! .

وهما فى ذلك يقلدان الفنان محمد عبد الوهاب الذى أعلن ذلك صراحة فى بداية حياته ، وأشرنا إليه نحن من قبل . حيث أكد فريد الأطرش على ذلك فى أكثر من مناسبة حين قال بأن الزواج يصل بحياة الفنان إلى الملل والرتابة فينعكس ذلك على إنتاجه وأعماله . (١)

وعلى مدى حياته الطويلة ، ظل فريد الأطرش يسير وفق هوى هذه العبارة . . حتى تسببت فى وقوعه فى العديد من المشاكل مع كل من كان يدخل معهم فى مغامرات عاطفية ملتهبة ! . وكانت الفنانة الراقصة سامية جمال أول من اصطدمت معه لهذا السبب . رغم أنه يعود الفضل إليه فى اكتشافها كممثلة . . عندما أتاح لها فرصة أن تقاسمه معظم أفلامه الغنائية والاستعراضية ! . وعندما رفض الزواج منها دخلت معه فى صراع ، سياسى وإعلامى . . إنتهى بها إلى الوزاج من أحد رجال الأعمال فى أمريكا بناء على طلب الملك فاروق . . كما أخذت تشن عليه حرباً دعائية أصابت قلبه فى مقتل ! .

---

(١) المصدر السابق .

والمرة الوحيدة التى تمنى فيها فريد الأطرش أن يتزوج ممن أحبها . . كانت فى عام ١٩٥٣ . . عندما أراد الزواج من ناريمان ملكة مصر السابقة بعد طلاقها من فاروق! . حيث أشاع فريد أنه كان يحب ناريمان من قبل أن يتزوجها فاروق ! . ولولا تدخل أم الملكة التى أعلنت فى الصحف آنذاك أن ابنتها لن تتزوج من مغنى ! . لتحقق حلم فريد الأطرش ولتم مشروع زواجه من ناريمان بعد قصة حب على الأقل كانت من جانب واحد ! .

ولقد ظل فريد الأطرش يعيش فى حلم الزواج طويلاً رغم سوء صحته . وحتى أيامه الأخيرة . . فأعلن أنه كان ينوى الزواج من الفنانة شادية ومن الفنانة سميرة أحمد . . وفق ما رواه هو فى مذكراته ! . ولما فشلت كل هذه المحاولات رضى بالقليل . . ووافق على الاقتران من سيدة كانت متزوجة من قبل . . ، وقد توقف مشروع زواجه عند حد الخطوبة فقط .

ومما لاحظناه من خلال تتبع واع لما رواه فريد الأطرش . . أنه قد اهتم اهتماماً كبيراً بسرد حكايات حبه منذ طفولته وحتى أيام شيخوخته متساوياً فى هذه النقطة مع زميله عبد الوهاب الذى روى هو الآخر بأنه وقع فى الحب وهو لا يزال صغيراً . .

ومما يرويه فريد نفسه فى هذا السياق قوله بأن أول قصة حب فى حياته بدأت . . مع ابنة الجيران . عندما كان يسكن بشارع «إدريس راغب» . . هذه الحكاية بدأت مع فريد بالتأمل الطويل والصمت . . وقد ذكر لنا فى أوراقه الخاصة كلاماً كثيراً خاصة عن تأثير التجربة الأولى فى حياته .

ومما رواه فى هذا السياق قوله : «كانت إبنة الجيران وفى الحب عادة إذا ما اعتادت العين بنت الجيران فإنها لا ترضى عنها فى الغرام الأولى بديلاً ! . لقد أمضيت شهراً أتمنى أن تجود علىّ بابتسامة أو تعطف بلغته ، فلما أضاءت الإبتسامة حياتى كنت فى عز الكفاح . . أنتقل من محل بلاتش والمدرسة وبديعة . . وسن الخامسة عشرة الذى كان أوان أولى خفقان قلبى ، وكانت الحياة بما فيها من حرمان كثير وشقاء متنوع . . شديد الوطأة . . أما هذا الطارق السحرى فقد أنعش خيالى وسرق النوم من عينى وجعلنى أمشى وكأننى أطير . .» .

ثم توالت بعد ذلك قصص الحب فى حياة فريد الأطرش . فأحب فتاة فى بداية حياته الفنية ، وكانت تلك الفتاة ملهمته الأولى . . وكانت قصة حبه هذه بداية ساخنة لدخوله فى حكايات حب كثيرة خاصة مع زميلاته فى شارع الفن ! . وكان على رأس هؤلاء بطبيعة الحال الفنانة سامية جمال التى استبدلها بحبه القديم لإحدى بنات أولاد الذوات !

وقد حدثنا فريد الأطرش عن قصة حبه لسامية جمال طويلاً ! ، ومما قاله عن ذلك : «لم أكن أتصور أننى قد أفقدها فى لحظة ويتحول عنها القلب فى حادثة لم تكن تخطر لى بال . . فقد ذهبت ذات ليلة إلى الأريزونا فى صحبة الأصدقاء ، وكانت ترقص راقصة ناشئة وكنت أراها فى الأستوديو حيث ترقص فى فرق المجموعة فى أفلامى . .» .

ومن بعد هذا اللقاء شعر بقلبه يتحرك ناحية هذه الفنانة . . مما جعله يصرف النظر عن علاقته بإبنة الذوات التى كان ينوى الزواج منها على حد تعبيره ! . وقد ظل حب فريد لسامية جمال بالفعل مسيطراً على كل مجريات حياته . . إذ تصادف أن عوضه عما فقده فنيا وعاطفياً برحيل إخته أسمهان . .

وبعد إنفصال فريد عن سامية جمال عاطفياً ، لجأ لعلاج ذلك الحب المفقود . . مع راقصة أخرى وكانت هذه المرة جزائرية الجنسية عرفها فى باريس ! .

ولما قارب سن فريد الأطرش على الشيخوخة . . أقدم على إتمام خطوة الزواج هذه . . مثله فى ذلك محمد عبد الوهاب ، مع الفارق فى الإرادة والتنفيذ . وكان من أشهر ما قيل فى هذا السياق حلمه فى الاقتران من ناريمان ملكة مصر السابقة والتى أحبها على حد زعمه ! والغريب وفق ما سطره فريد أنه كان يريد بحق تتويج قصص الحب فى حياته سواء بالنسبة لناريمان بعد طلاقها من فاروق أو من شادية أو سميرة أحمد إلى مشروع زواج دائم . . ولكن تلك الخطوة لم تتم فى الواقع ! . ونستطيع أن نضع أيدينا بكل الصدق على ذلك التوقيت الذى أبدى فيه فريد الأطرش رغبته فى أن يكون زوجاً ، وذلك منذ أن رفضت أسرة ناريمان أن تتزوج إبنتها الملكة السابقة من مجرد فنان حتى ولو كان أصله من سلالة ملوك . وبعد أن أصابه الهم والحزن وهاجمته

الآلام من جراء ما تعرض له آنذاك شاهد صورة فتاة فى إحدى المجلات فطلب من أخيه فؤاد وإبنة إخته إيمان : «أريد أن أتزوجها . . إذهبا إلى الإسكندرية . . ! إخطباها لى . . ليس لى مطالب . . ولها أن تحدد المهر الذى تطلبه» !! .

وبالفعل ذهبا إلى هناك لتحقيق رغبة فريد الأطرش . . لكنهما اكتشفا وفق رواية فريد نفسه أنها تزوجت ! وفى تعليق غاية الظرف له على هذه الواقعة قال : «وانتهت القصة قبل أن تبدأ . . فقد استراح القلب من جراح القلب ومن جراح غير منظورة» .

وفى عام ١٩٦٠ بدأت الأقاويل الكثيرة تردد عن سعى فريد الأطرش للزواج من شادية وسميرة أحمد ! ، ويبدو أن خوفهما من تقلبات عواطفه . . جعلهما لا يسعدان كثيراً لذلك السعى الذى كان يبذله فريد آنذاك سواء لدى قلبيهما أو لدى الأصدقاء المقربين ! .

وكان لرفضهما تأثير كبير عليه إذ قرر أن يعتزل الفن . . ولولا حبه للحياة لنفذ فريد تلك الرغبة ، الأمر الذى جعله يقرر الإقامة شبه الدائمة فى لبنان بعيداً عن الحب ومغامراته . . وقد ظن أنه قد نأى بنفسه عنه لولا أن أوقعه القدر فى طريق إحدى السيدات اللبنانيات والتى أعادت إلى قلبه الحياة من جديد رغم إنه حين عرفها كان يعانى من مرض القلب الذى أصابه التضخم ، وكان قاب قوسين أو أدنى من الموت . .

والغريب أنه لم يكتف فقط بأن يقيم معها علاقة حب . . بل وصمم على أن تكون زوجة له ! ، وكان كثيراً ما يردد لكل من حوله : «لماذا تنكرون علىّ الحب . . هل لأننى مريض ؟! . أو ليس للمريض حق فى الحب ؟!» .

***

وإذا ما قلنا عن الفارس الرابع عبد الحليم حافظ . بأنه كان هو الحب ذاته سواء لنفسه أو للآخرين لما ابتعدنا كثيراً عن أجواء تلك العبارة ولا عن أجواء الحقيقة . وقد فاز طوال حياته بنصيب الأسد من اهتمام فتيات ونساء عصره . . حتى بات حلم كل من كان يستمع لصوته سواء بالليل أو بالنهار . بل وأكثر من ذلك . . فقد كانت كلمات أغنياته هى محور حديث كل عاشقين إلتقيا صدفة أو بعد إتفاق فوق أرض الحب .

وبطبيعة الحال لم يكن عبد الحليم ببعيد عن القصص والغراميات العاطفية ولا عن قصص وحكايات الزواج الذى لم يتم ! ، وقد وصل فيه إلى ما وصل إليه زميله فريد الأطرش حتى لنظن أنهما قد تلازما معاً فى شارع الحب وفى شارع الزواج الذى لم يوفقا فيه ! . على الرغم من تأكيد مجدى العمروسى. صديق عبد الحليم الشخصى من أنه كان يتمنى الزواج وتكون له أسرة وأولاد .

وكان لعبد الحليم حافظ وجهة نظر معقولة فى أسباب رفضه للزواج رغم أمنياته المتعددة . وكانت تقوم على إحساسه بأنه سيموت مبكراً . . وأنه لا يريد زوجة تكون بالنسبة له ممرضة وفقط ! . إذ تعرض على مدى عدة سنوات لعشرات المرات من النزيف الحاد الذى إضطره لإجراء ١٦ عملية جراحية على مدى الواحد والعشرين عاماً الأخيرة ! .

ورغم أن عبد الحليم حافظ قد رحل عن عالمنا وهو لم يتزوج بعد . . إلا أننا فوجئنا وبعد رحيله بأكثر من عشر سنوات . . بأن فنانة مثل سعاد حسنى تردد بأنها تزوجت من عبد الحليم زواجاً عرفياً لمدة ٦ سنوات . . وجاء ما صرحت به سعاد حسنى مفاجأة للجميع ، بل وأثار غضب البعض . . مما دفع بكاتب صحفى كبير مثل صلاح منتصر ليتحدث عن ذلك الزواج المزعوم فى إحدى مقالات فقال : «كانت مفاجأة أن تخرج سعاد حسنى عن صمتها منذ أكثر من عام وتعترف لمفيد فوزى أن عبد الحليم تزوجها بعقد عرفى ، وأن هذا الزواج استمر ست سنوات» [(١)]

كما حاول صديق عبد الحليم مجدى العمروسى تكذيب هذه الشائعة فى العديد من تصريحاته الصحفية . . مؤكداً أنه لم يكن فى حياة عبد الحليم سوى قصة زواج واحدة ولكنها لم تتم . . لأن صاحبتها رحلت من عالمنا قبل إتمام ذلك الزواج ، وكانت سيدة متزوجة من رجل دبلوماسى ولها منه ولدان . . وتعرف عليها عبد الحليم حافظ فى الإسكندرية – وتأثرت هى بكلمات أغنياته . . وفضلت الإنفصال عن زوجها لكى تتزوجه ، إلا أن المرض قد عاجلها فلم تتم هذه الخطوة حيث توفيت . . وكذلك مات عبد الحليم دون إتمام تلك الخطوة التى طالما تمناها فى الأحلام فقط ! . على الرغم من أن الأطباء قد صرحوا له بذلك . . ومن جانبنا نشكك فى هذا الكلام الأن حالة عبد الحليم الصحية بالفعل لم تكن تسمح له بالزواج . . ولسوف نعرف ذلك بالتفصيل فى الفصل الأخير الذى خصصناه لحديث الوداع والأمراض ! .

---

(١) جريدة الأهرام فى ١٢ إبريل عام ١٩٩٥ .

إلا هناك رواية قد ارتبطت بزواج عبد الحليم وإمكانية إتمامه . . رغم سوء حالته الصحية وسوف نوردها هنا بلا أى تعليق من جانبنا . . وتقول تفاصيلها : أنه منذ عام ١٩٦٢ أخذ النزيف الحاد يهاجمه بقسوة ، وخلال ذلك العام أجرى إحدى العمليات الجراحية الخطيرة . . فزاد إصرار عائلة عبد الحليم خاصة أخته الكبيرة علية وبعض الأصدقاء على أن تكون له زوجة ينجب منها أطفالاً ! .

ولأجل تحقيق تلك الخطوة إستشارت أسرة عبد الحليم الدكاترة زكى سويدان وياسين عبد الغفار فى فكرة هذا الزواج ، وقد وافقا عليها بشروط . . منها الإعتدال غير المفرط فى ممارسة الواجبات الزوجية . . ووافق عبد الحليم حافظ على المبدأ . . وبالتالى ترك لأسرته مهمة البحث عن تلك الزوجة . . ولكنه فى هذا التوقيت بالذات تكرر النزيف وتكرر إجراء العمليات الجراحية ، فصرفوا النظر عن هذا الزواج .

***

وإذا ما خرجنا من دائرة الزواج فى حياة العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ . . لنعرف موقع الحب فى حياته . . نكتشف أن هذا الفنان العملاق يعتبر وفق تصورنا نموذجًا فريداً لحالات الحب التى عاشها سواء فى وسط مجتمعه أو مجتمع الآخرين . حيث ساهمت كلمات أغنياته وألحانها العذبة وكذلك أفلامه الرومانسية فى خلق قاعدة عريضة من معجبيه ومعجباته . وقد مر فى حياته ومنذ صغره بالكثير من قصص الحب والغرام ، ولولا ما كان يتمتع به آنذاك من عاطفة فياضة وإحساس مرهف لما أخرج لنا كل هذه الروائع الغنائية الملفتة للأنظار .

ولقد تولدت فى ذهنى رغبة أكيدة فى أن يكون ختام حديث الحب والزواج فى حياة هؤلاء الأربعة . . بالحديث عن ذكريات ذلك الحب وتأثيره فى حياة عبد الحليم حافظ . . حيث إهتم العديد من مؤرخى الفن برصد غرامياته وكتبوا فى ذلك عشرات الكتب والموضوعات الصحفية ، التى لا زالت تنشر حتى الآن .

ومما قالوه فى هذا الشأن أن علاقة عبد الحليم الإنسان قد بدأت بالحب مبكراً مثل من كانوا فى سنه من الشباب آنذاك . . وكانت أولى قصص الحب هذه مع إبنة الجيران تماماً مثلما كانت فى حياة كل من عبد الوهاب وفريد الأطرش .

أما قصة الحب المؤكدة والتى لم تفارق ذكرياته حتى من بعد شهرته . فكانت

على حد قول المؤرخ الفنى الراحل محمد السيد شوشة قد بدأت عندما كان يعمل مدرساً للبنات فى مدرسة الزقازيق الابتدائية .

وعندما صار نجماً متألقاً . . زادت مساحة علاقته النسائية . . الأمر الذى ساهم كثيراً فى معايشته لعدد كبير من قصص الحب والغرام . وكان من أشهر ما حكاه المؤرخون عن ذلك . . هى قصة حب عبد الحليم حافظ لفتاة من مدينة الإسماعيلية ، حاولت الإنتحار عندما لم يوفق فى زواجها ! .

كذلك كانت حكايته مع الراقصة ميمى فؤاد من الحكايات التى تحدثت عنها الصحف طويلاً . ثم جاءت حكايته مع الفنانة سعاد حسنى لتصبح من أهم الحكايات الغرامية التى قيل إنها اقتربت من حافة الزواج ، وكذلك قصة حبه مع المرأة التى تركت زوجها من أجله لولا أن اختطفها الموت .

ولا يزال سيل الحكايات الغرامية لعبد الحليم حافظ مندفعاً بشدة خاصة التى انتشرت بشكل لافت للأنظار من بعد وفاته . كما لازالت من الموضوعات الحيوية لعشرات من الكتب التى تناولت قصص وحكايات غراميات ذلك الفنان الكبير .

والغريب أنها حكايات تتجدد سنويا مع كل ذكرى لرحيله . وقد باتت من أهم مصادر ثراء العديد من الأصدقاء من خلال ما يرونه فى كتبهم سواء بحق أو بدونه ، ما دام صاحبها قد رحل عاملنا . . ولم يعد يملك وسيلة التكذيب أو التأييد .





● ترى .. ماذا يقول عبد الحليم لعبد الوهاب ..
وهل تسمعه أم كلثوم؟!!



● حب وصداقة امام الناس فقط - وفوق صفحات الصحف - كلام آخر !!

● ياست الكل.. أنا نفسي ألحن لك إغنية.. ولكن ياخسارة!!.



● مبروك للمرة الألف بعد المليون .. والنجاح جميل !

● قول ياحليم.. سمعتى - يمكن ألف لك لحن جديد!

الفصل السادس

شعراء وملحنون ومفكرون في بلاط الأربعة الكبار

لا يستطيع أحد أن ينكر أن دخول هؤلاء الأربعة الكبار إلى شارع الفن كانت تسانده عوامل كثيرة ، عرفنا بعضها والبعض الآخر لابد من الوقوف عليه . هذه العوامل نبعت فى الأصل من إصرار هؤلاء بأن يكونوا شيئاً مرموقاً . . ولعل من أهم تلك العوامل التى لا يجب إغفال الحديث المفصل عنها إلى جانب ما سبق وذكرناه من قبل ، هو ظهور العشرات من الشخصيات سواء السياسية أو الأدبية أو الفكرية التى إرتبطت بهؤلاء بالذات أو من الذين ارتبطوا هم بهم .

هذه الشخصيات على اختلاف تخصصاتها ومواقعها وأهميتها كانت بالفعل السند القوى والأساسى لهولاء بدون تفرقة ، حتى بات لهم الفضل الأكبر فى استمرارهم متألقين وبقوة داخل شارع الفن ، سواء بحكم سلطانهم وسلطاتهم ومكانتهم ، أو بحكم قناعة هؤلاء الأربعة بأهمية دورهم .

ومما يجب ذكره فى هذا السياق ضرورة القول بأن الأربعة الكبار قد اختلفوا فى مقدار عطائهم لتلك الشخصيات ، واختلاف استفادتهم من هذه الشخصيات أيضا . إما بسبب اختلاف توقيت ظهور هذه الشخصيات فى حياتهم أو بسبب مساهماتهم فى دفع عجلة الشهرة والتألق لديهم .

إن الإطلاع تفصيليا على قصص حياة كل من أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وفريد سوف يبين مدى قيمة هذه الشخصيات فى حياتهم ، سواء فى البداية أو فى مراحل الشهرة والتألق أو حتى من قبل الرحيل .

ولقد لاحظنا أن الأربعة الكبار كانوا ينظرون إليهم وفق ما كانوا يقدمونه من خدمات . حتى أنهم قسموا هذه الشخصيات كل حسب مهمته وموقعه ! . . فهناك الشخصيات العامة التى كان دورها يتوقف فقط على التشجيع والتهليل بالأكف واللسان ، وهناك الشخصيات الأدبية والفكرية التى كان منوطاً بها مهمة الترويج

لأصواتهم سواء من خلال كتاباتهم فى الصحف أو فى الكتب أو فى كتاباتهم الأدبية خاصة فى مجال الشعر . وكذلك كانت هناك الشخصيات السياسية التى كان لها الدور الأعظم فى حياة هؤلاء الأربعة الكبار . . إذ يرجع إليها الفضل فى إدخالهم دائرة نفوذ أولى الأمر من الحكام ومن الأمراء من الذين ضمنوا لهم طول البقاء بعد طول المقام ، وهناك غير هؤلاء وهؤلاء . . شخصيات اقتربت كثيراً من قلوب وعقول هؤلاء الأربعة وباتوا يمثلون كل حياتهم الخاصة سواء فى مجال الحب أو الزواج .

ونظراً لطول الطابور الذى وقف فيه هؤلاء الأشخاص الذين ارتبطوا بالأربعة الكبار وعاشوا بداخل البلاط الفنى وفى قلب عروشهم . . فقد خصصنا أوراق هذا الفصل الجديد للحديث عن الشخصيات التى عملت بالأدب والفكر والصحافة ، والموسيقى .

وأحسبنى أقول بلا حرج أننى قد اكتشفت وجود تشابه عجيب بين من كانوا يقولون الشعر ومن يلحنونه لهؤلاء الأربعة ، وكما أن هناك شعراء وملحنين قد اشتركوا فى الكتابة والتلحين لهؤلاء الأربعة معاً . . رغم فارق السن وفارق الفترة الزمنية التى ظهر بها كل منهم .

كما لاحظنا فى السباق نفسه أن هؤلاء جميعا لم يلتفتوا لدقة اختيار الكلمات أو الألحان إلا بعدما تمكنوا من فرض سلطان الشهرة على أنفسهم وعلى الناس ! . عندئذ فقط بدأوا فى البحث عن صناع الكلمات الجيدة وكذلك الألحان . . وقد إمتلأ بلاطهم بالمشاهير من الشعراء ومن الملحنين الكبار .

ومن بعد رجال القلم وأصحاب الكلمات الموزونة والألحان المسموعة . . دخل صنف أخر من الرجال والنساء فى بلاط هؤلاء الأربعة . . ونعنى بهم رجال الصحافه والإعلام بشكل عام ، وكانوا كذلك من الشخصيات المهمة التى بلورت جهاد هؤلاء وأبرزته ، بل وفرضته على أذواق الناس وسط صراع وتنافس خطير .

لذلك وجدنا أن رجال الصحافة كانوا من أخطر الشخصيات التى كانت لها السطوة والكلمة العليا فى حياة الأربعة الكبار ، حتى اتخذوا من البعض منهم كبار مستشاريهم إما مجانا أو بالأجر ، وكذلك كان رجال الإذاعة من الذين كانت لهم الأيادى البيضاء على بعض هؤلاء الكبار ، خاصة على كل من فريد وعبد الحليم حافظ .

***

إن الحديث المفصل عن أشهر من إرتاد بلاط الأربعة الكبار خاصة من الشعراء سوف يوضح لنا ذلك وأكثر . إذا اتصف هؤلاء بالذكاء النادر فى اختيارهم للكلمات وكذلك فى اختيار أصحابها ، وتساوى فى ذلك الشاعر الذى مكنته ظروف حياته بأن يعيش مع الكبار ، أو الشاعر الذى استعانوا بكلماته من بعد رحيله ! .

ووفقا للترتيب الزمنى فى حياة هؤلاء الأربعة كان لابد لنا من أن نبدأ حديث هذا الفصل بالشعراء من أصحاب النفوذ فى بلاط هؤلاء الكبار ، ومن كان له السلطان والنفوذ بداخل نفوسهم ، ولعل أمير الشعراء شوقى هو الذى يتربع على عرش الشعر ليس فى اللغة العربية فقط . . بل وفى داخل نفوس وقلوب وألحان وحنجرة هؤلاء أيضا . خاصة محمد عبد الوهاب الذى ساعدته كلمات أحمد شوقى فى الانتشار خاصة فى سنوات حياته الأولى وحتى من بعد ذلك ، إذا كان أمير الشعراء سنده القوى فى مجال الكلمة والمشورة والتعرف على عالم الأوساط الراقية حتى دخلت معه أم كلثوم منافساً غير قوى فى هذا المجال ، عندما قررت الاستعانة بقصائد شوقى لكى تتغنى بها .

ولم تتمكن أم كلثوم من أن تحظ بما حظى به منافسها عبد الوهاب بالنسبة لشوقى . وقد تمنيت أن يكتب لها أمير الشعراء كلمات لتغنيها بصوتها . كما لم تتمكن من تحقيق ذلك الحلم إلا حينما رحل أحمد شوقى خلافاً لما كانت تردده سيدة الغناء من أنها تعرفت على أمير الشعراء ، وكتب فى مدح صوتها إحدى قصائده ! ، ولسوف نعرف ذلك حين نتحدث بالتفصيل عن شعر شوقى فى حياة أم كلثوم . .

بل لقد بلغ تأثير عبد الوهاب على صديقه شوقى حداً لم يبلغه فنان غيره وقد ظهر ذلك بوضوح فى لجوء شوقى للكتابة باللهجة العامية لبعض قصائده من أجل عيون وصوت مطرب الملوك والأمراء محمد عبد الوهاب . . وربما جاء هذا الاتجاه ضد رغبة شوقى نفسه الذى التزم طوال حياته باللغة العربية الفصحى ، بل وكتب بها حتى معظم مسرحياته الشعرية .

وقد حفلت مذكرات عبد الوهاب بالكثير من الأحاديث عن شوقى وعن تأثيره فى حياته سواء العملية أو الفنية . كما أوضح لنا فى هذه المذكرات بداية لقائه بأمير الشعراء . . وذلك حين استمع إلى صوته وهو لا يزال طفلاً فى الحادية عشرة

من عمره وكان ذلك فى عام ١٩٢٠ عندما كان يعمل مطرباً صغيراً فى إحدى الفرق المسرحية ويغنى بعض أغنيات الشيخ سلامة حجازى بين فصول المسرحيات . . وقد أبلغ شوقى حكمدار العاصمة ضده لمنعه من الإشتغال بالفن لسنه الصغير ! .

وبعد ذلك بعدة سنوات تم التعارف الكبير بين أمير الشعراء شوقى وبين المطرب الجديد محمد عبد الوهاب ، وقد اعتدلت الأمور فى حياة الأخير إذ صار من بعد هذا التعارف من أصفى أصفياء أمير الشعراء الذى فضله على غيره من الفنانين حتى فى التعامل مع قصائده وأغنياته . ليس هذا فقط . . بل وتعدى ذلك إلى فرض المطرب الجديد على الأوساط الراقية وتعريفه بأصول تلك الأوساط وكيفية التعامل معها .

وبعد أن اطمأن شوقى لحسن صحبة هذا المطرب الشاب خصه كذلك بأروع قصائده لكى يغنيها ويلحنها . . وجاءت ألحان عبد الوهاب لكلمات شوقى فى غاية الروعة والجمال ، وما يزال صداها طيباً حتى الآن . . وأشهر ما غناه عبد الوهاب من كلمات أحمد شوقى أغنيات «الليل ما خلى» . . «الليل لجاشى» . . «بليل حيران» «وكل إللى حب إتنصف» ، و «اللى يحب الجمال» . . وغيره من الكلمات التى كان لها صدى طيب داخل عقول وصدور الجماهير من المستمعين ، بالإضافة إلى العديد من الأدوار المسرحية التى كتبها شوقى . . ولاقت أيضا نجاحاً جماهيرياً كبيراً .

أما بالنسبة لموقع أحمد شوقى كشاعر فى حياة أم كلثوم . . فكان الأمر مختلفاً إلى حد كبير ، إذ لم تنجح هذه الفنانة الكبيرة فى الفوز بأحدى قصائد هذا الشاعر الكبير لتغنيها فى حياته . على الرغم من أنها عاصرت أيامه الأخيرة وعاشت فى ظل قصائده التى كان يغنيها صديقه محمد عبد الوهاب . .

ومما يثير الاعجاب فى علاقة أم كلثوم بالشاعر أحمد شوقى . . أنها استطاعت الإبداع المعجز فى غناء العديد من قصائده . . خاصة الدينية والوطنية . . مما يجلعنا نشعر بالحزن العميق لإمتناع شوقى عن كتابة قصائد بعينها لتغنيها أم كلثوم . . مثلما كان يفعل مع صديقه عبد الوهاب .

ولقد أوضحت أم كلثوم فى أوراقها الخاصة قصة لقائها بأمير الشعراء شوقى تماماً مثلما فعل منافسها عبد الوهاب . . إذا أكدت كوكب الشرق أنها التقت بالأمير أحمد شوقى فى أخريات أيامه ، وكانت المرة الأولى التى التقت خلالها بأحمد شوقى فى إحدى المحلات العامة المشهورة آنذاك ويعرف باسم «صولت» بشارع فؤاد .

وفى هذا اللقاء دعاها شوقى للغناء فى ڤيلته على نيل القاهرة . ولما أعجبه صوتها تكرر لقائه بأم كلثوم . . كما أخذ يتردد على ڤيلتها بالزمالك . . ويكتب فى صوتها القصائد ! .

ومما ذكرته أم كلثوم بهذا الخصوص قولها : أزعم أننى قابلت شوقى كثيراً ومع ذلك لم أغن له أغنية واحدة فى حياته . . ولكننى غنيت له بعد موته ، العديد من القصائد من أهمها : سلوا قلبى – ريم على القاع – ولد الهدى – وقصائد أخرى كثيرة . [1]

وعندما رجعنا لسجل الأغنيات والقصائد التى شدى بها كل من فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ . فوجئنا بابتعاد شوقى عن منصة الشعر فى حياة هذين العملاقين . وبدون دخولنا فى سرد تفاصيل الأسباب ، نرى أن ذلك ربما يرجع فى الأساس إلى تغير الزمن ومتطلباته وكذلك تغير أذواق الأجيال . . وربما فسادها أيضا !! . . وكذلك قد يكون لعامل المنافسة بين الأربعة الكبار أحد أسباب هذا التجاهل ! . . ولا نستطيع أن نقول أن السبب فى ذلك قد يرجع إلى عدم إتقان عبد الحليم وفريد غناء القصائد . . ذلك لأن كل منهما قد غنى العديد من القصائد لشعراء معاصرين وغير معاصرين .

***

أما الشاعر الثانى الذى كان يحتل مقعداً متقدماً فى بلاط الأربعة الكبار فهو شاعر الشباب أحمد رامى . الذى كان من أصفياء صوت كل من أم كلثوم وعبد

---

(١) أم كلثوم – رتيبة الحفنى – دار الشروق .

الوهاب دون غيرهما ! . على الرغم من أنه استأثر وحده بصوت كوكب الشرق على مدى أكثر من ربع قرن . بعدما جرب التعامل مع صوت عبد الوهاب لسنوات قليلة من قبل تعامله مع صوت وقلب أم كلثوم .

وهو فى ذلك كان يشبه إلى حد كبير أحمد شوقى بالنسبة لعبد الوهاب . . وقد بات لدينا على هذا الدرب شاعرين كبيرين استأثر كل فنان بواحد منهما ، محاولاً جهد إمكانيات صوته وموسيقاه أن يبرز كلماته وقصائده ! .

والغريب كما حكى أحمد رامى نفسه . . أن لقائه بعبد الوهاب قد تم قبل لقائه بأم كلثوم بسنوات ! . كما غنى له العديد من الأغنيات حتى من قبل سفره إلى باريس . لكنه أى - أحمد رامى - ومنذ أن تعرف على أم كلثوم التى تغنت بكلماته أثناء وجوده فى بعثته العلمية فى باريس فى عام ١٩٢٥ . . لم يفترقا إلا بالموت ! . حتى اقتربت العلاقة فيما بينهما من الرغبة فى الزواج .

وكما كان لأحمد شوقى تأثير عظيم فى حياة الموسيقار محمد عبد الوهاب . . وقد اعترف هو نفسه بهذا التأثير الكبير . . كذلك كان لأحمد رامى نفس التأثير وأكثر ، اعترافا من أم كلثوم ذاتها التى أكدت هذا التأثير ومداه فى أوراقها الخاصة . . فنراها تقول عن ذلك : «الواقع أن الذى نقلنى إلى حب الشعر وتذوقه هو أحمد رامى ، فقد التقيت به حوالى عام ١٩٢٥ . . جاء به صديق له اسم محمد فاضل ، كان قد دعاه ليستمع إلى إحدى حفلاتى التى كنت أقدمها بالأزبكية ، وكان أحمد رامى عائدا لتوه من باريس بعد أن أتم دراسته . . ولكى أحييه غنيت له قصيدة «الصب تفضحه عيونه» ، ولم يتح لنا أن نلتقى على الفور لأننى سافرت إلى مصيف رأس البر ، فلما عدت اتصلت به وقلت له إن الجمهور يجب أن ينتقل من الأغانى المسفة التى يسمعها إلى القصائد» .

ومن أشهر ما قدمه أحمد رامى لأم كلثوم أغنيات : أنت فاكرانى ولا نسيانى . وإن كنت أسامح وأنسى الأسية . . وهلت ليالى القمر وعشرات الأغنيات والقصائد المشهورة صاحبة الصيت العالى ! .

وفى المقابل حاول محمد عبد الوهاب أن يتعامل مع أحمد رامى تعامل منافسته الشرسة أم كلثوم . . فأخذ يردد كلماته ويلحن له العديد من القصائد التى حفلت بها معظم أفلام عبد الوهاب الغنائية . لكن الملاحظة الواجب الإشارة إليها فى هذا السياق . . أن كلمات رامى التى غناها عبد الوهاب لم ترق لمستوى العاطفة التى امتلأت بها كلماته لأم كلثوم وهذا يوضح لنا عمق العلاقة بين رامى وبين أم كلثوم والتى تعدت كل حدود العلاقة بين المطرب وبين أحد الشعراء ! .

وكذلك كان أحمد رامى بعيداً كل البعد بكلمات أغانيه عن صوت كل من فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ . . على الرغم من معاصرتهما له . . ومعرفتهما برقة أحاسيسه وقيمة كلماته وجماهيريتها . وعدم تعامل هذين المطربين الكبيرين مع كلمات شاعر كبير مثل أحمد رامى . . إنما يمثل أيضاً خسارة كبيرة سواء للشعر أو للغناء أو حتى لهذين المطربين على السواء .

***

ثم يأتى بيرم التونسى . . فى المرتبة الثالثة من حيث الترتيب داخل بلاط هؤلاء الأربعة . . وكان آنذاك من الشعراء المتميزين الذى تعامل معه كل من عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش . . وإن كان إنتاجه الشعرى قد برز أكثر فى صوت أم كلثوم التى تغنت بروائع كلماته . وربما كان التصاق صفة شاعر الشعب أو زجال الشعب ببيرم التونسى سببا فى ابتعاد عبد الوهاب عن التعامل مع كلماته مثلما فعلت أم كلثوم . . وربما يرجع ذلك أيضا إلى مواقفه الوطنية خاصة ضد الملك فؤاد وحاشيته . . إذ كان عبد الوهاب فى هذه الفترة المبكرة من حياته قد عرف بأنه مطرب الملوك والأمراء ! . وحتى كتابات بيرم فى السياسة كانت سبباً مباشراً لإعجاب أم كلثوم بكلماته . . فطلبت أن تلقاه وتغنى بعض قصائده ! .

ومما يحكيه المؤرخون فى هذا السياق قولهم بأن أم كلثوم قد طلبت من الملحن زكريا أحمد فى عام ١٩٤١ بأن يعرفها على ذلك الزجال الذى يكتب فى السياسة .

وبالفعل بدأ التعاون بين بيرم وبين أم كلثوم منذ ذلك التاريخ فكتب لها العشرات من أغنياتها المشهورة منها إغنية أنا وأنت - كل الأحبة - الأولة فى الغرام ، وغير ذلك من الأغنيات العاطفية وكذلك الوطنية ، ثم أغنيات الأفلام ، خاصة فيلم سلامة وفاطمة عامى ١٩٤٤ و ١٩٤٧ . .

ويرى النقاد أن مجمل ما كتبه بيرم لأم كلثوم قد بلغ حوالى ٢٢ أغنية .

ويحتل فريد الأطرش المرتبة الثانية من حيث تعامله مع الشاعر بيرم التونسى . . حيث غنى له عشر أغنيات كان من أشهرها أغنية أحلى الأمانى وأنت وأنا بالإضافة إلى أغنيته الوطنية المشهورة «اليوم يوم الشجعان» . .

وإذا كان كل من شوقى وبيرم ورامى قد كتبوا قصائدهم واشترك فى غنائها عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش . . من دون عبد الحليم حافظ . . فقد لاحظنا وجود شعراء أخرين كانوا يفدون إلى بلاط هؤلاء الأربعة - ليكتبوا لهم جميعا كلمات أغنياتهم سواء العاطفية والوطنية - وقد تمتع بهذه الصفة الشاعر الغنائى حسين السيد ومأمون الشناوى ومرسى جميل عزيز ، هؤلاء الفرسان الثلاثة الذين كتبوا أغنيات وقصائد كثيرة غناها هؤلاء الأربعة مع اختلاف طفيف فى الزمن وفى الوقيت . فعلى سبيل المثال . . وجدنا أن بداية التعامل مع شاعر مثل حسين السيد كانت مع الموسيقار محمد عبد الوهاب . . وبالتالى لفت إليه أنظار غيره من الفنانين الذين طلبوا غناء كلماته وقصائده . وكانت بداية تعامل حسين السيد كشاعر مع الموسيقار محمد عبد الوهاب فى عام ١٩٣٩ عندما كتب له أغنية «إجرى إجرى» والتى غناها عبد الوهاب فى أحد أحلام .

وكذلك كان الشاعر مأمون الشناوى الذى كانت بداية تعامله كشاعر مع ألحان الموسيقار محمد عبد الوهاب الذى غنى له أغنيته المشهورة «إنس الدنيا» . وشارك بها عبد الوهاب فى أحد فلامه الاستعراضية أيضاً . ثم توالى بعد ذلك التعاون بين الموسيقار عبد الوهاب وبين الشاعر مأمون الشناوى حتى عرفه الفنانون الأخرون وبدأوا فى التعامل معه . . إلا أم كلثوم التى امتنعت لفترة عن غناء قصائده بسبب فريد الأطرش ! ولما اقتنعت بموهبته . . غنت له هى الأخرى أحلى أغنياتها مثل أغنية «أنساك يا سلام» .

وفى رأى مـأمـون الشناوى أن السـبب فى عـدم إقبـال أم كلثوم على كلمـات قصائده فى بداية حياته هو ميلها لكثرة التغيرات التى كانت تطلبها من الشعراء ، وعدم قبوله بذلك المبدأ .

كما كتب مأمون الشناوى عدة أغنيات مشهورة لفريد الأطرش مثل أغنية الربيع والحب لحن جميل وأنا واللى أحبه . . وغيرها من الأغنيات الشهيرة ، لذلك يعتبر مأمون الشناوى من أكثر الشعراء الذين تعاملوا من خلال كلماتهم مع كل من فريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب . . وكان تعامله مع عبد الحليم يساوى تعامله مع أم كلثوم من حيث الكم والمضمون ، إذ كتب لعبد الحليم حافظ إغنيات قليلة ولكنها كانت فى الوقت نفسه من أسباب زيادة شهرته داخل قلوب وصدور مستمعى هذا الفنان مرهف الحس ، ومن أهم تلك الأغنيات على سبيل المثال . . أغنية عبد الحليم حافظ «لو كنت يوم أنساك» .

وأخيراً يأتى دور شاعر كبير آخر وهو الشاعر مرسى جميل عزيز الذى تعامل مع الأربعة الكبار جميعا . وكتب لهم معظم أغنياتهم العاطفية المرهفة وإن كنا قد لاحظنا أنه أجاد هذا المهمة بقوة بالنسبة لعبد الحليم حافظ وقد شارك مع كل من حسين السيد ومأمون الشناوى فى رسم صورة رومانسية وخيالية غاية فى الروعة لعبد الحليم حافظ .

كما أن هناك عشرات الشعراء من الذين تعامل معهم هؤلاء الكبار وكانوا فقط من زوار ذلك البلاط العتيد ! نذكر منهم على سبيل المثال الشاعر على محمود طه وصالح جودت والدكتور إبراهيم ناجى وبشارة الخورى ونزار قبانى والأمير عبد الله الفيصل ، وعبد المنعم السباعى وآخرين .

***

وقد يكون الحديث مختلفاً فى بعض الوجوه حين نتناول بالتفصيل موقع الملحنين داخل بلاط الأربعة الكبار ، على اعتبار أنهم يمثلون الصف الثانى الذى احتل مقاعد خاصة داخل ذلك البلاط . وبالتالى كانت مساهماتهم غير كبيرة فى دفع عجلة الشهرة والتألق فى حياة هؤلاء . هذا الاختلاف إنما يرجع فى الأصل إلى وجود إثنين

ممن إحترفوا فن التلحين من بين هؤلاء الأربعة الكبار ، وهما عبد الوهاب وفريد الأطرش ! ، وقد سعى كل منهما لإستقطاب الآخر من زملائه من الذين لا يجيدون تلك الحرفة ، وبالفعل نجحا فى بعض الأحيان وفشلا فى أحايين أخرى ! ، إذا استطاع موسيقار وملحن كبير مثل عبد الوهاب أن يفرض سلطان ألحان على كوكب الشرق أم كلثوم ، حتى ولو تم ذلك بناء على توجيهات رئاسية عليا ! .

ففى عام ١٩٦٠ لحن لأم كلثوم رائعتها الخالدة «انت عمرى» ، وقد حاول من قبل هذا التاريخ أن يحقق تلك الخطوة ولكنه فشل فى ذلك لخوف أم كلثوم من سلطانه الفنى وغير الفنى والذى استخدمه من قبل للقضاء على سلطانة الطرب منيرة المهدية .[١]

ومن بعد نجاحه فى تلحين أغنية «انت عمرى» استمر تعاونه الفنى مع أم كلثوم حيث لحن لها العديد من الأغنيات ومن القصائد ، كان آخرها أغنية «ليلة حب» التى غنتها سيدة الغناء العربى فى عام ١٩٧٢ ، وهى من كلمات الشاعر أحمد شفيق كامل .

كذلك فرض عبد الوهاب سلطان موسيقاه على فنان آخر هو عبد الحليم حافظ ، وكانت من أشهر ألحانه أغنية «توبة» من كلمات حسين السيد ، وهى الأغنية التى كانت فاتحة خير على عبد الحليم والتى لحنها عبد الوهاب فى عام ١٩٥٥ .

ولو رجعنا إلى تواريخ تعامل عبد الوهاب كملحن مع كل من أم كلثوم وعبد الحليم حافظ . . نجد أن تعاونه مع الأخير كان سباقاً لتعاونه مع أم كلثوم ، ربما بأكثر من ٥ سنوات ، كذلك يعتبر عبد الوهاب صاحب اليد العليا فى كل أغنيات عبد الحليم التى اشتهر من خلال ترديدها سواء عبر موجات الإذاعة أو فى الحفلات العامة .

ورغم ذلك فقد واصل عبد الوهاب تعاونه الفنى مع أم كلثوم تاركاً باب التعاون مع عبد الحليم يتأرجح بين عام وآخر ، نظراً لإقدام عبد الحليم على التعامل مع الملحنين الشُبان مثل كمال الطويل ومحمد الموجى وبليغ حمدى وأخرين .

أما بالنسبة لفريد الأطرش الذى احتل عرش التلحين والتطريب مثل عبد الوهاب ، فقد كانت من أهم أمنياته الفنية أن يلحن لأم كلثوم ولعبد الحليم

(١) أنظر كتابنا «سلطانة الطرب وكوكب الشرق» .

حافظ . . تماماً مثلما كان من محمد عبد الوهاب ؛ ولكن الأمانى شيء وتحقيقها فى الواقع شيء آخر . ولما فشل فى تحقيق هذه الأمنية إتجه لتلحين أغنيات كثيرة للعديد من المطربين والمطربات .

ويرى بعض المؤرخين أن فريد الأطرش كان قاب قوسين أدنى من تحقيق أمنيته الأولى والمتعلقة بالتلحين لكوكب الشرق أم كلثوم . . إلا أن ذلك لم يحدث أيضا ، ولأسباب كثيرة تحدث عنها هؤلاء المؤرخين .

ومما يروى فى هذا السياق ما ذكرته الدكتورة رتيبة الحفنى ، عندما قالت : أنه وبعد أن لحن عبدالوهاب وبليغ حمدى لصوت أم كلثوم ، ذهب إليها فريد الأطرش وعرض عليها لحناً لقصيدة وطنية ، فقالت له : ليس لدى مانع من أن يلحن لى فريد الأطرش ، ولكن أرى أن أبدأ معك بأغنية عاطفية . وبالفعل اختار الموسيقار فريد الأطرش قصيدة للأخطل ولحنها وسجلها بصوته مع الفرقة الماسية واصطحب معه أحمد الحفناوى ، وذهبا إلى أم كلثوم

ويكمل أحمد الحفناوى قصة هذا اللقاء بقوله : وكان فريد طوال الطريق إليها خائفاً من عدم إعجابها باللحن ، وعندما سمعته فى منزلها أثناء وجودى وفى وجود محمد الدسوقى ابن أختها قالت له : مبروك وسأتصل بك لعمل البروفات ، وخرج فريد الأطرش سعيداً جداً لأن أم كلثوم ستغنى لحناً له ، ومرت الأيام والشهور ولم يحدث أى إتصال . . وفهم فريد أنها أعرضت عن ذلك . فحزن وشعر أن هناك من يدسون له عند أم كلثوم محاولين إقناعها بأن لحنه سيفشل وأن هذا الفشل سوف يعرضها لهزة فنية هى فى غنى عنها . . وقالت : إن موسيقى فريد الأطرش لا تنسجم ولا تتناسق مع صوتها وغنائها .

ومما رواه أحمد الحفناوى كذلك فى هذا السياق ونقلته الدكتورة رتيبة قوله : وحاولنا إقناع أم كلثوم بعكس ذلك ولكنها ردت قائلة : إننى مسئولة عن فنى أمام الجماهير ، وليس هو المسئول ، فقلنا لها : أبداً . . فعندما غنيتى لبليغ وغيره لم يحاسبك الجمهور ، بل إنها مسئولية الملحن وليست مسئوليتك . . كما أنك لم تفشلى مع أى ملحن ولكن المسألة انتهت عند هذا الحد ، ولم يحدث أن أثير هذا الموضوع مرة أخرى . .

وبعيداً عن كل التحليلات التى توصل إليها المؤرخون وبعض النقاد فيما يخص أسباب عدم موافقة أم كلثوم على أن يلحن لها فريد الأطرش ، وبدون الدخول فى تفاصيل شرح تلك الأسباب ، يمكن لنا أن نقول فى هذا السياق أن فريد الأطرش نفسه كان هو المسئول عن هذا الرفض !! . ولكن كيف ؟! .

إن موقف فريد الأطرش من أغنية الربيع التى كانت تنوى أم كلثوم أن تغنيها من كلمات مأمون الشناوى . . وتمسكه بكلمات هذه الأغنية على أن يغنيها هو بصوته وبألحانه لاشك كان له دور كبير فى ذلك .

هذه الأغنية التى لاقت إقبالاً جماهيرياً كبيرًا . . جعلت كل المحيطين بأم كلثوم يكيدون لفريد الأطرش ضده وضد كل أعماله ! ، وقد أفهموها آنذاك بأنه أصبح مثل محمد عبد الوهاب من منافسيها الخطيرين على مسيرتها الفنية . . وبالتالى باتت تخشاه وتخشى تألقه الذى من المفترض أن يأتى على حساب صوتها .

ولا ننسى أن نشير فى هذا السياق إلى دور محمد عبد الوهاب الذى استغل قوة نفوذه فى عدم إتمام تلك الخطوة التى كانت من الممكن أن تسبب له هو الآخر هزة فنية كان هو فى غنى عنها آنذاك .

وكانت نفس العقبات تقريبا هى ما واجهت فريد الأطرش حين أراد أن يلحن لعبد الحليم حافظ . . حتى تصور الأخير . . أن مثل هذه الألحان قد تتسبب فى اهتزاز صورته الفنية أمام جماهيريه ، ومما ضخم هذا التصور فى نفس عبد الحليم حافظ أعداء فريد الأطرش فى المجال نفسه .

وبناء على ذلك ظل فريد بعيداً عن مجال التلحين لأم كلثوم وعبد الحليم حافظ . . وكثيراً ما كان يعبر عن ضيقه من هذا الموقف الذى تصور فيه تعنتاً شديداً اتجاهه . . وكان ملجأه فى هذه القضية إلى الصحافة ورجال الإعلام ، إذا أخذ فى كل مناسبة يردد كلمات فهمنا منها أسباب خلافه الشديد مع هؤلاء الثلاثة الكبار خاصة فى مجال التلحين .

وعلى سبيل المثال فقد ذكر فريد الأطرش فى حوار صحفى معه نشر فى عام ١٩٥٨ عن دور محمد عبد الوهاب الذى شعر بأنه وراء هذا الرفض وهذا الموقف المتعنت «أنا أخذ على زميلى عبد الوهاب توقفه عن الإنتاج السينمائى

منذ ١١ عاماً . . وقصر جهوده الفنية على اسطوانه أو اثنين كل سنة مع موسيقاه ، كما أننى غير راض عن إنتاجه الموسيقى بعد أن توقف عن تقديم ما كان يبتكره لنا من فن موسيقى ضخم وغنائى رائع فى مجنون ليلى والكرنك والنهر والخالد . . ورأيى فيه يتفق مع رأى الناس الذين تتبعوا تطوره منذ نشأته وحتى الآن ، فكلهم يرون بأنه فى الماضى البعيد أحسن منه فى الحاضر . .[1]

بل وكان فريد الأطرش كثيراً ما يتهم منافسه عبد الوهاب بالسرقة والإقتباس من الموسيقى الغربية والشرقية . . ولم يكن يكتفى بالحديث عن عبد الوهاب وعن إلقاء التهم ضده ، بل كان كثيراً ما يتحدث بنفس اللهجة عن عبد الحليم حافظ . . الذى قال عنه فى أحد الأحاديث الصحفية : «كل ما تيجى سيرته بنتخانق علشانه ! ، وأدافع عنه فى الوقت اللى أتشتم فيه منه حتى على صفحات الجرائد ! . وأنا مش زعلان لأن كل واحد فى أسرتنا الفنية بيتهيأ له إنه أحسن من الثانى ، ومش ممكن أبداً يعترف واحد منا لزميله بالتفوق والنجاح وكل اللى نقدر نعمله إننا نتنافس منافسة غير كريمة ، وكل واحد فينا بيحاول يهدم الثانى» .

***

وهناك ملحوظة كان لا بد من الإشارة إليها من قبل أن ننتقل بالحديث إلى زاوية أخرى ، وهى ترتبط كذلك بالملحنين الذين عاشوا فى بلاط الأربعة الكبار هذه الملاحظة تتعلق كذلك بكل من نشاط فريد وعبد الوهاب فى مجال الألحان ، إذ ظل كل منهما يلحن لنفسه إلى جانب التلحين للآخرين من المطربين والمطربات . . ولم يستطع أحد غيرهم من أن يتعامل مع هذين العملاقين ، مثلما فعلوا مع أم كلثوم وعبد الحليم .

بل وأكثر من ذلك فقد وجدنا أن هناك من بين هؤلاء الملحنين من لحن لكل من أم كلثوم وعبد الحليم ، رغم اختلاف موقع كل منهما فوق خريطة الفن المصرى بصرف النظر عن الانتماء لعالم الأربعة الكبار ! .

وكان على رأس هؤلاء زكريا أحمد ورياض السنباطى ومحمد الموجى وبليغ حمدى وكمال الطويل . . حيث حاول كل منهم تقديم خلاصة وعصارة فكره وجهده فى المجال نفسه ، إذ رأى أنه يتعامل مع أحد عمالقة الفن فى العصر الحديث ، وعليه إثبات الإتقان والتميز .

---

(١) فريد لأطرش يتكلم بصراحة - مجلة آخر ساعة - ١٩٥٨/٥/٨ .

فالموسيقار رياض السنباطي على سبيل المثال . . كان من بين الملحنين الذين أبدعوا مع أم كلثوم ، منذ أن بدأ تعامله معها في عام ١٩٣٦ ، وبعد أن نجح في أن يلحن لها أغنيتها المشهورة «النوم يداعب عيون حبيبي» من تأليف الشاعر أحمد رامي ، وهذا الموسيقار المبدع له ذكريات عديدة مع كوكب الشرق نراه قد سجلها في بعض أوراقه الخاصة .

ومما قاله في هذا السياق خاصة عن بدايات تعرفه بأم كلثوم : «كنت أقيم في شقة لوحدي . . وطلبت تركيب تليفون كي يسهل لي أعمال واتصالاتي ، وفي اليوم الأول الذي دخل فيه التليفون إلى الشقة سمعت أغنية لأم كلثوم من الراديو ، فتذكرت تعارفنا في محطة الدلتا ، وكنت قد عرفت تليفونها من الإذاعة . . فاتصلت بها وعندما ذكرت لها اسمي ، تذكرت بأن والدها الشيخ إبراهيم ، كان يغني مع والدي في الأفراح» ! .

كما يصف لنا أول لقاء فني بينه وبين أم كلثوم في أكثر من حديث صحفي . . فيقول : «بعد سبعة عشر عاماً من لقائنا الأول في «درين» التقيت بالفتاة أم كلثوم مرة أخرى . كان صيتها ملأ الآفاق في القاهرة ، حين بدأت أعمل كمدرس للعود بمعهد الموسيقى ، وكنت أتابع ألحانها ، وأحسد الذين يلحنون له ، وكانت تتحرك في أعماقي ملكة التلحين تعبيراً عن عواطف جياشه يعيشها الشاب في مثل سني . وكنت قد تقدمت بإنتاجي لشركة «أديون» . فعهدت لي بمطربين ومطربات جدد ، وكنت على موعد مع القدر لأن أم كلثوم استمعت إلى بعض هذه الألحان فطلبت أن ألحن لها ، وهكذا بدأت أسطر صفحات عمري وتعاونت مع مطربة العرب الأولى على مدى أربعين عاماً» .

هذا التعاون وفق ما جاء في سجل الأغنيات التي لحنها رياض السنباطي قد شهد انجاز أعظم الألحان . . وكان من أشهرها رباعيات الخيام – ولد الهدى – قصة الأمس إلى عرفات الله – الثلاثية المقدسة – الأطلال – حديث الروح – أقبل الليل وأخيراً قصيدة من «أجل عينيك» . ، والعديد من الألحان الأخرى التي شدت بها أم كلثوم وساهمت في توسيع دائرة الإهتمام الجماهيري بصوتها وبفنها .

كما يعتبر الشيخ زكريا أحمد من الذين ساهموا كذلك في شهرة أم كلثوم منذ بداية رحلتها الفنية . بل ويرجع إليه الفضل في إقناعها وإسرتها بضروة أن تقيم بالقاهرة إقامة دائمة .

وقد حفلت أوراقه الخاصة هو أيضا بالحديث المطول عن علاقته بأم كلثوم ، وعن تعاونه الفنى معها . . ومما قاله فى هذا السياق : «فى عام ١٩٢٠ ، وفى السنبلاوين . . دعانا التاجر على أبو العينين لإحياء ليلة رمضانية ، وخلال إقامتى بالسنبلاوين سمعت عن جمال صوت الطفلة أم كلثوم ، فسعيت للتعرف عليها ، وبعد اللقاء ومنذ هذه الليلة وأنا كالأصم لا أسمع إلا صوتها . . كالأبكم لا أتحدث إلى باسمها ، فقد أصبحت مفتونا بها . . أحببتها حب الفنان الخالد للحن الخالد» .

وتؤكد الدكتورة رتيبة الحفنى أنه منذ اخطفت أم كلثوم بصوتها هذا الملحن الكبير وهما يعملان معاً ويقدمان أجمل الألحان ، إلى آخر يوم فى حياة زكريا أحمد ، ومن أشهر أعماله لصوت أم كلثوم ألحان أهل الهوى - الأمل - حبيبى يسعد أوقاته - أنا فى إنتظارك ، أما آخر ألحانه ، فكانت أغنية «هو صحيح الهوى غلاب» .

أما الموسيقار محمد القصبجى وفق آراء كل المؤرخين والنقاد فهو يعتبر من أوائل الملحنين الذين تعاملوا مع أم كلثوم فى شارع الفن بدءاً من عام ١٩٢٤ ، أى من بعد أن اكتشفها زكريا أحمد وأبو العلا محمد .

ومما قاله القصبجى عن ذلك : «أول مرة سمعت فيها أم كلثوم ، ولم أكن أعرفها من قبل - كانت أواخر عام ١٩٢٣ - وكانت تغنى قصائد وطقطوقة لإبراهيم فوزى مطلعها : «فى غرامك ياما شفت العجايب» . ، وتعرفت على أم كلثوم بعد ذلك بعام- أى عام ١٩٢٤ . . ومنذ ذلك التاريخ لم أفترق عنها ، وقد عرفنى بها أبى ، فقد كان من أصدقائه متعهد حفلات الغناء «الشيخ محمد أبو زيد» . . فصحبنى لأسمعها وأعجبت بصوتها ، وصعدت إلى خشبة المسرح لأرى عن قرب صاحبة هذا الصوت الجميل ، وحييتها فردت التحية دون أن تعرف من أنا» .

وفى منتصف عام ١٩٢٤ بدأ التعامل الفنى بين القصبجى وبين أم كلثوم . . عندما لحن لها أغنية «آل إيه حلف ما يكلمنيش» . . هذا التعامل الذى لم يتوقف حتى رحيل القصبجى الذى ظل يعمل معها ملحناً وعازفاً على آلة العود .

ومن أشهر ما غنت أم كلثوم للقصجى أغنية «رق الحبيب» ، على الرغم من أنها كانت أخر ما عهدت به أم كلثوم لهذا الملحن الموسيقار . . وحدث ذلك فى عام ١٩٤٦ . . وكان للمؤرخين والنقاد أحاديث عديدة عن أسباب توقف أم كلثوم عن التعامل مع القصبجى فى مجال الألحان .

(١) المصدر السابق .

ثم يأتى الموسيقار كمال الطويل فى المرتبة الأولى بالنسبة للألحان التى وضعها للفنان عبد الحليم حافظ . . وقد حالفه الحظ فلحن أيضا هو الآخر لأم كلثوم وكان نجاحه مع عبد الحليم هو السبب الرئيسى وراء اختيار كوكب الشرق لكمال الطويل لكى يلحن لها كلمات بعض الأغنيات الوطنية على وجه الخصوص مثل أغنيتها المشهورة «والله زمان يا سلاحى» وبعض الأغنيات الدينية ومن أشهرها أغنية «لغيرك ماددت يدى» .

ولقد تحدث المؤرخون والنقاد من الذين عاشوا هذه الفترة عن الدور الكبير لكمال الطويل فى حياة عبد الحليم حافظ . . إذ أخرج له عشرات الألحان العاطفية والوطنية ذائعة الصيت . . حتى نراه قد كون فريقاً فنيا شمله مع كل من عبد الحليم والشاعر الراحل صلاح چاهين ، وكانت ثورة يوليو وأحداثها هى الأرض الخصبة التى نبتت فوقها روائع عبد الحليم الوطنية والعاطفية والتى لاقت إقبالاً جماهيرياً كبيراً . ومن هذه الروائع أغنية عبد الحليم «على قد الشوق» وأغنية «قارئة الفنجان» .

ولا ننسى أن نشير فى سياق الحديث - عن الملحنين الذين تعامل معهم كل من عبد الحليم وأم كلثوم - إلى الموسيقار الراحل محمد الموجى الذى إرتبط هو الآخر إرتباطاً فنياً كبيراً بعبد الحليم . . وكانت إبداعاته الموسيقية هى سبيله لغزو صوت أم كلثوم أيضا . وإليه يرجع الفضل فى إتقان عبد الحليم للأغنيات العاطفية وأدائها بحرفية كبيرة ، منذ أن نجح الموجى فى وضع ألحان أغنية عبد الحليم «صافينى مرة» التى بدأ الموجى بها كمطرب فى الإذاعة فى عام ١٩٥٣ .

ثم توالت بعد ذلك ألحانه لعبد الحليم حافظ . . وتعرفت عليه أم كلثوم فى صيف عام ١٩٥٤ ، وكلفته بوضع ألحان لأغنيتها الوطنية» «أنشودة الجلاء» وهى من كلمات الشاعر أحمد رامى .

وفى عام ١٩٦٤ غنت أم كلثوم من ألحان محمد الموجى أولى ألحانه العاطفية «للصبر حدود» . أما آخر ما غنته أم كلثوم من ألحان الموجى فكانت أغنيتها «إسأل روحك» التى شدت بها فى عام ١٩٧٠ .

ولا يجب أن نترك مجال الحديث عن علاقة الموجى بأم كلثوم من قبل أن نتوقف قليلاً أمام ما سطره هو نفسه فى بعض أورقه عن بداية ذلك اللقاء الفنى الكبير . . حيث قال :

«أما بالنسبة لأم كلثوم ، فلا أعرف ماذا دار بخلدها ، لكننى أعرف أن «صافينى مرة» - و«أنا قلبى إليك ميال» - أثرا فيها كما كانت تقول ، فأخذت تتابع أعمالى

وتمعن الفكر فى ألحانى ، إلى أن استدعتنى عن طريق محمد حسن الشجاعى ، فذهبت إليها ووجدت فى مجلسها الثالوث العملاق محمد عبده صالح عازف القانون والشاعر أحمد رامى ومحمد القصبجى ، فجلست خائفاً «خجلا» كأنى فى محكمة ، وبدون مقدمات أعطتنى قصيدة الجلاء لأحمد رامى ، وقالت بإقتضاب : الحفلة بعد ١٥ يوم . . خرجت وأنا فى ذهول ، ماذا أفعل وكيف أجرؤ على التلحين . . إنها أم كلثوم لكننى لحنت ونجحت بعون الله . . ثم كانت أعمالى الأخرى «ما حلاك يا مصرى» - وبالسلام إحنا بدينا بالسلام ، حتى جاء اليوم الذى استدعتنى فيه لتكلفنى بعملين كبيرين وعلى قدر كبير من الصعوبة ، وهما من أغانى فيلم رابعة العدوية للشاعر طاهر أبو فاشا» .

وأخيراً يجلس بليغ حمدى فى المقعد الأخير بحكم توقيت ظهوره . . داخل بلاط أم كلثوم وعبد الحليم حافظ ، وكانت محاولاته الموسيقية الناجحة مع عبد الحليم حافظ ومع غيره من المطربين هى الأخرى جواز مروره إلى صوت أم كلثوم . حيث أبدع فيما قدمه لها من ألحان . . كما كان بذلك أصغر ملحن ينضم إلى طابور ملحنى كوكب الشرق والذين كان لهم الفضل فى إبراز قدرات صوتها فنياً وغنائياً ! .

وقد أسندت أم كلثوم إلى بليغ حمدى تلحين إحدى أغنياتها العاطفية المشهورة وهى أغنية «حب إيه الى أنت جاى تقول عليه» وهى من كلمات الشاعر الغنائى عبد الوهاب محمد .

ثم توالت لقاءاته الفنية بأم كلثوم إذ تمكن وبنجاح من أن يلحن لها أغنيات أخرى كثيرة ، كان أخرها أغنية «حكم علينا الهوى» التى سجلتها أم كلثوم فى عام ١٩٧٣ .

كذلك كان إبداع بليغ حمدى وتألقه أيضا مع صديقه الفنان عبد الحليم حافظ يضاهى تألقه مع كوكب الشرق . . إذ لحن له أروع أغانيه خاصة التى كبتها الشاعر عبد الرحمن الأبنودى سواء الوطنية أو العاطفية .

ولا ننسى أن نشير فى سياق الحديث عن هؤلاء الملحنين الذين ارتبطوا ببلاط كل من عبد الحليم وأم كلثوم إلى الملحن الكبير سيد مكاوى الذى كان له أيضا نصيب وافر من الألحان التى تركتها أم كلثوم وكان من أشهرها أغنية «يا مسهرنى» .

***

ويتبقى من حديث من كانوا فى بلاط هؤلاء الأربعة الكبار من غير الشعراء والملحنين . . رجال الصحافة والفكر والإعلام . . وكانوا أيضا من بين الشخصيات التى لعبت دورها البارز فى حياتهم جميعاً . . كما كانت لهم الحظوة والكلمة والمشورة والرأى المسموع الذى كان يسير وفق هواه هؤلاء الأربعة وبلا تفرقة .

وكلنا بطبيعة الحال يعرف مدى تأثير الكلمة المكتوبة سواء المصحوبة بالصورة أو من دونها . . وكان الأربعة الكبار فى مقدمة من عرفوا ذلك وقدروه حق قدره . . إذ استطاعوا بخبراتهم الطويلة الوقوف على تلك الأدوار المهمة التى من الممكن أن يقوم بها المفكرون والصحفيون وغيرهم من أرباب القلم ! . . كما تمكنوا من خلال ذلك من الاستفادة من هؤلاء فى تأكيد وجودهم الفنى فى ظل ما عانوه من منافسات شرسة كادت تقض عليهم الواحد تلو الأخر . على الرغم مما كان يتمتع به كل منهم من موهبة وصوت جميل !

لقد حاول كل من الأربعة الكبار أن يختار فريق من رجال الإعلام من الذين يجب أن يلازمهم بإهتمام شديد حتى ولو كلفه ذلك أموالاً طائلة . . وكان من أوائل الذين أتقنوا ذلك الاختيار هو الموسيقار محمد عبد الوهاب . . وذلك منذ أن بدأت بعض الصحف تهاجمه خاصة عندما أخذت إحدى المجلات الفنية وتنقده بشدة . . الأمر الذى جعله يلجأ كعادته وفى كل مشاكله إلى صديقه وأستاذه أمير الشعراء أحمد شوقى . . وقد أخذ بدوره تلك المجلة التى تهاجم عبد الوهاب ووضعها تحت قدميه !! متساءلاً : أليست هذه الأوراق التى وقفت فوقها قد رفعتك إلى أعلى ؟! ومن يومها لم يرد عبد الوهاب على من كانوا يهاجمونه حتى قبيل وفاته بل وظل هذا المبدأ هو ما أخذ يعيش فى ظلاله طويلا .

وبالمثل قلدته أم كلثوم . . وكذلك فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ . . مع تغيرات طفيفة استوجبها تغيير الظروف ، وفى حقيقة الأمر فإن هؤلاء جميعاً لم يفرقوا فى ذلك بين رجال الصحافة ورجال الفكر وبين أصحاب ميكروفونات الإذاعة .

وحين نستعرض أشهر من كانوا داخل بلاط الأربعة الكبار من رجال الصحافة والفكر سوف نجد طابوراً طويلاً من تلك الشخصيات اللامعة التى لم تكن تفارق ذلك البلاط سواء بالليل أو بالنهار .

ونظراً لأن المقام هنا لا يتسع سوى لذكر بعضهم . . فسوف نكتفى بالإشارة إلى هؤلاء مع بيان من كان منهم صاحب ومكانة داخل بلاط الأربعة الكبار .

إن الكاتب الصحفى مصطفى أمين ووفق تصورنا يعتبر الجالس رقم واحد فوق الأريكة التى كانت موجودة فى صدر بلاط هؤلاء ، وكأنه الملك ! . . إذ كان من أكثر رجال الإعلام ممن كاد يلجأ إليه هؤلاء لإستشارته فى إمورهم الفنية وغير الفنية حتى أنه حرص على ذلك حتى قبل موته . . إذ تحول فى إخريات أيامه إلى المدافع القوى حتى عن المطربين الجدد ! .

ومن بعده يجلس كل من الكاتب الصحفى محمد التابعى وفكرى أباظة . . وكامل الشناوى وأخيه مأمون . . وجليل البندارى وعبد السلام داود ، ومن الجيل الجديد الناقد الصحفى الراحل نبيل عصمت وصلاح درويش وأخرين .

كما ضم بلاط الأربعة الكبار مجموعة كبيرة من مفكرى مصر والعرب من الذين تأثروا فعلاً بما كانوا يقدمونه من ألوان الفنون الغنائية . . خاصة بالنسبة لأم كلثوم وعبد الوهاب ، وكان على رأس هؤلاء عباس العقاد والدكتور طه حسين وعبد القادر المازنى وتوفيق الحكيم . الذين كانوا يكتبون عن الأربعة الكبار وعن ريادتهم الفنية كل فى مجاله . . وباتت كلماتهم دليل قوى وحيوى على استمرار تألق هؤلاء الأربعة من دون تفرقة تذكر ! .





● ضحكة من القلب .. ونكتة من الشاعر كامل الشناوى



● رصاصة فى القلب.. واتفاق جديد بين توفيق الحكيم ومحمد عبد الوهاب



● زيارة عمل بين عبد الحليم وفريد الأطرش تحضرها الفنانة صباح



● عندما تحولت أم كلثوم إلى صحفية.. وهى تستجوب الكاتب حسنين هيكل



● عملاقان أحدهما فى الأدب والأخرى فى الفن

الفصل السابع

فى رعاية رجال السياسة
وأمراء القصور الملكية

لا يمكن بأية حال من الأحوال ، ونحن نتحدث عن تأثير الشخصيات العامة فى حياة الأربعة الكبار ، أن نغفل دور رجال السياسة وكذلك الملوك والأمراء فى حياة هؤلاء أيضا . وإن كان ارتباطهم بهؤلاء السياسيين قد بدأ بعد دخولهم مرحلة التألق والشهرة ؛ إلا فنانا واحداً وهو فريد الأطرش وذلك بحكم تواجده داخل أسرة سياسية ظلت مرتبطة بالملك والحكم فترة زمنية طويلة .

إن الثلاثة الكبار عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم ووفق ما عرفناه من أوراقهم الخاصة أو مما سطره عنهم المؤرخون ، لم يتمكنوا بالفعل من الإتصال برجال السياسة وأرباب الحكم إلا حين تمكن كل منهم من فرض سلطان فنه على كل آذان الجماهير !

وكما هو معروف فإن هذه الخطوة المهمة فى حياة الأربعة الكبار . . لم تتم إلا بعد أن ذاع صيتهم الفنى . وأصبحوا يقفون على خط واحد داخل دائرة الشهرة مع هؤلاء السياسيين ! ذلك لأن رجال السياسة وما لديهم من مشاغل عديدة . . لم يكن لديهم الوقت الذى يمكنهم من توسيع دائرة الصداقة فى حياتهم ، إلا بالقدر الذى كان يسمح به الوقت وأصول البروتوكولات المبنية على المنافع وتبادل المواقع . لذلك نجد أن كثيراً منهم لم يكن يقبل على مصداقة إنسان إلا إذا كان مشهوراً فى مجاله . . وكذلك كان حالهم مع هؤلاء الكبار .

أضف إلى ذلك . . أن الصدفة نفسها قد تدخلت فى كثير من الأوقات لإتمام مثل هذه الصداقات ، مع سعى بعضهم للإسراع بها . . مثلما فعلت أم كلثوم وعبد الوهاب فى بداية حياتهما ، وذلك بهدف الإرتباط ببعض هذه الشخصيات من الذين كانوا يحبون فنهم تحقيقاً للمزيد من الحماية فى ظل تلك المنافسات الشرسة التى واجهها هذين العملاقين داخل شارع الفن .

وكان عبد الوهاب من الفنانين السباقين لعقد مثل هذه الصداقات بالذات ، بل وساعده صديقه أمير الشعراء شوقى فى العيش فى كنف العشرات من رجال السياسة . . من أمثال سعد زغلول ومعظم قيادات حزب الوفد القديم .

ولما عرفت أم كلثوم بذلك . . سارعت هى الأخرى لتحقيق تلك الخطوة التى كانت تداعب أحلامها منذ إقامتها الدائمة بالقاهرة .

وحين نبحث بجدية عن تأثير هذه الشخصيات فى حياة كل من عبد الوهاب وأم كلثوم سوف نكتشف فعلا وجود هذا التأثير الكبير خاصة فى تأكيد دورهم داخل قلوب وصدور شريحة خاصة من شرائح المجتمع المصرى آنذاك . . حتى نجد أن فنانا مثل محمد عبد الوهاب قد أطلقوا عليه لقب «مطرب الملوك والأمراء» وكان آنذاك لا يزال فى بداية مشواره الفنى ! . والسبب فى ذلك يرجع لارتباطه بالشخصيات السياسية المشهورة ورجال القصور من الأمراء والملوك .

ولنا أن نتصور أو حتى نتخيل كيف لمستمع من الجماهير يرى عبد الوهاب أو أم كلثوم فى حفل عام . . ثم يشاهدهما فى إحدى الصور المنشورة بالجرائد أو المجلات فى صحبة أحد الأمراء أو الملوك . . إننا نجده فى هذه الحالة وقد تخيل نفسه وكأنه شاهد هذا الأمير أو قد جلس مع أحد الملوك من الذين صاحبهم كل منهما .

ولذلك فإننا نرى أن ارتباط كل من أم كلثوم وعبد الوهاب بشخصيات سياسية بعينها مثل أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى أو شريف باشا صبرى خال الملك فاروق . أو بأقطاب حزب الوفد من رجال السياسة قد ساهم إلى حد بعيد فى زيادة أسهم الإعجاب بهم لدى الجماهير ، بالقياس إلى غيرهم من فنانى ذلك العصر .

وكذلك لابد لنا فى هذا السياق من الوقوف ولو للحظات أمام الشخصيات السياسية التى ارتبط بها كل من فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ ، وهى قد لعبت نفس الدور فى تثبيت أقدامهما داخل شارع الفن . . على الرغم من أن وجود هذه الشخصيات السياسية فى حياة فريد الأطرش لم يكن بالأمر الغريب ، وبالتالى لم تكن شخصيات ذات أهمية كبيرة فى حياته مثل عبد الحليم حافظ . نظراً لإرتباطه المبكر بالعشرات من الذين كان يشاهدهم فى قصر والده أمير الدروز فى لبنان ! . . وقد تحول وبعد سنوات قليلة إلى صعلوك . . وبالتالى أصبح فى حاجة إلى مساهمة البعض فى دفع عجلة الحياة أمامه خاصة داخل شارع الفن .

وكان على رأس الشخصيات التى مدت يد العون لفريد الأطرش . . الزعيم سعد زغلول الذى يرجع الفضل إلى ما أصدره من تعليمات والتى لولاها لما دخل فريد مصر ولا عاش بها بعد ما ترك وأسرته جبل الدروز فى لبنان .

ولسوف نلاحظ أن ولاء فريد الأطرش للشخصيات السياسية ظل يدور حول المفهوم ، الذى قام فى الأصل على نظرة التساوى والتعادل . . وبات لذلك بعيداً إلى حد كبير عن دخول القصور الملكية والتى كان إذا ما دخلها فإنه يتعامل مع أصحابها وكأنه أمير وليس مطرب .

من هنا كان ارتباط فريد الأطرش بتلك الشخصيات قليل إلى حد بعيد ، وهم ممن كانوا من الذين رأى فيهم الحصن الذى يلجأ إليه لحمايته من أعدائه سواء فى الحياة أو فى شارع الفن . وذلك على خلاف عبد الحليم حافظ الذى كانت كل أمنياته مثل كل من عبد الوهاب وأم كلثوم . . الإرتماء فى أحضان السلطة والسير وفق هواها فنياً أو سياسياً ! ، وإن كانت فترة ظهوره المتأخرة خاصة بعد أحداث ثورة يوليو قد حسمت فى حياته علاقته الخاصة بهذه الشخصيات ، وأصبح من أشهرهم ضباط الجيش ومعظم المقربين للثوار ولزعيم الثورة .

وفى مرحلة متأخرة من حياته الفنية . . وبعدما أحرز نجاحات متقدمة فى ميدانه الغنائى . . اقترب كثيراً من كرسى السلطان ، بل ودخل العديد من القصور الملكية . وكان من أشهرها قصر الملك الحسن فى المغرب ! .

إن من سيتابعنا فوق هذه الأوراق سوف يكتشف حقا ذلك الفارق الكبير فى علاقة هؤلاء الأربعة بالشخصيات السياسية . . وقد تمتع عبد الوهاب وحده بأكبر قدر من رعاية هؤلاء الكبار فى عالم السياسة وداخل القصور ! . . ثم احتلت أم كلثوم المركز الثانى فى مجال هذه الرعاية ! .

***

وبحكم التلازم فى التوقيت وفى التألق والشهرة فوق أرض شارع الفن بين عبد الوهاب وأم كلثوم . . فقد وجدنا ذلك أيضا فى نوع وكم العلاقات الخاصة التى أقاماها مع شخصيات سياسية عديدة ، كما حكم عليهما هذا التلازم بأن يصاحبا نفس الشخصيات تقريبا .

وعلى الرغم من ركوب فريد الأطرش وكما سبق وأوضحنا قطار الشهرة فى حياة هؤلاء ، إلا أنه لم يتساوى معهما فى هذا الشأن للسبب الذى ذكرناه من قبل ولأسباب أخرى كثيرة . . منها على الأقل كراهيته للسياسة ولكل المشتغلين بها .

وبما أن هؤلاء الثلاثة الكبار قد عاصروا تقريبا نفس الشخصيات السياسية المهمة فى تاريخ مصر . . فسوف نفرد لهم الحديث القادم . مع تأجيل ذلك الحديث بالنسبة لعبد الحليم حافظ ، الذى سيلحق بهم على أعتاب عام ١٩٥٢ . . بل ويشاركهم فى أحداث ذلك العام والأعوام التالية ، وهى الأحداث التى صنعتها شخصيات لم يكن لها من قبل وجود فوق خريطة العمل السياسى المصرى ! .

من هنا كان علينا وفى السياق نفسه الإشارة إلى العديد من الأحداث السياسية والتى عاصرها هؤلاء الثلاثة خاصة قبل الثورة ، والتى شاهدوها أو ساهموا فيها بحكم تواجدهم داخل دائرة نفوذ تلك الشخصيات ، وكذلك لابد وأن نشير أيضا إلى بعض المناصب السياسية التى عرضت خاصة على كل من عبد الوهاب وأم كلثوم .

***

إن حديث السياسة ورجالها فى حياة هولاء . كان لا بد وأن يبدأ بالموسيقار محمد عبد الوهاب الذى يعتبر بحق من أهم هؤلاء الفنانين الذيناإرتبطوا بشخصيات سياسية ثرية . لعبت أدواراً بارزة فى مسيرة تاريخ مصر الحديث .

ولقيمة هذه الشخصيات وأهمية تلك الصداقات السياسية فى حياة عبد الوهاب نراه قد سجل لنا جانباً كبيراً منها فى أوراقه الخاصة ، وبما قاله على سبيل المثال خاصة عن سعد زغلول وعن لقاء جمعهما فى بيت الأمة : «رأيت سعد زغلول عن قرب ، إصطحبنى شوقى معه عام ١٩٢٧ ، وجلست على مائدته ، ولم أصدق أنى واحداً من جلساء سعد باشا أثناء غدائه .

وكان يرتدى «الروب دى شامبر» وفوق رأسه الطربوش رمز المصرية والوقار فى ذلك الزمان ، وكان يجلس بجواره النقراشى وأحمد ماهر ومكرم عبيد الذين كانوا يحيطون به فى ألفة وأنس . لقد كنت وقتها جائعاً ولكن نسيت جوعى أمام إنبهارى الشديد بالمشهد . .» .

ولقد سبق لنا الإشارة لدور أحمد شوقى فى حياة عبد الوهاب الفنية . . لكننا وهذه المرة سوف نشير إليه بإعتباره صاحب الفضل الكبير عليه فى دخوله عالم السياسة والتعرف على شخصياتها المرموقة آنذاك ، حيث كان شوقى ووفق ما سطره عبد الوهاب نفسه وأشار إليه فى العديد من أحاديثه الصحفية يعيش فى قلب أحداث مصر السياسية رغم أنه لم يكن مرتبطاً إرتباطاً صريحاً بالأحزاب التى كانت موجودة فى عصره ، وإن كان يميل إلى حزب الأحرار الدستوريين .

ومما ذكره عبد الوهاب فى هذا السياق : «كان تقدمى المستمر وصداقتى الوطيدة لأحمد بك شوقى هما السبب فى اتصالى بذوى الحيثية من الشخصيات المعروفة فى نواحى السياسة والأدب والاجتماع . . ثم كان هذا بالتالى بمثابة تذكرة تسمح لى بدخول المجتمع الراقى من الباب الكبير . . الباب العمومى . .» .

وحين نستعرض أسماء الشخصيات السياسية التى عرفها عبد الوهاب خاصة فى فترة ما قبل ثورة يوليو بخلاف سعد باشا زغلول الذى كتب عنه كلمات وعبارات بليغة فى مذكراته ، وكان ذلك شرف كبير لفنان مثل عبد الوهاب الذى ساعدته ظروف حياته وإتقانه لفنه لكى يعيش بالقرب من أحد زعماء مصر الذين سطروا بأعمالهم الوطنية صفحات مضيئة من تاريخ مصر المعاصر .

وكان عبد الوهاب وفياً كعادته لكل من عرفهم فى حياته . . فقد خصص جزءاً كبيراً من مذكراته للحديث عن علاقته بهؤلاء خاصة بالزعيم سعد زغلول . . مشيرًا فى تلك المذكرات عن حب الزعيم للفن والطرب .

وكذلك تحدث محمد عبد الوهاب عن صديقه ، مكرم عبيد السياسى المصرى البارع الذى تعرف عليه وظل صديقا له طوال حياته . . بعدما جمعهما حب الموسيقى والطرب ، ويروى لنا عبد الوهاب كيف ومتى تعرف على مكرم عبيد فيقول : «تعرفت بمكرم عبيد عن طريق صديقى عبد الحميد عبد الحق ، وقد كسبت فى مكرم صديقاً هو ذلك الشخص . . فقد يرى الإنسان شخصاً لأول مرة فيحس على الفور وكأن باب قلبه قد انفتح فجأة ليدخله ذلك الشخص . وقد حدث هذا عند أول لقاء لى مع مكرم . . ولم أكن فى بداية الأمر أعرف سبباً يدعونى لحب مكرم ، ولكن عندما لمست فيه طبيعة الفنان المختفية وراء غلاف شفاف من حنكته السياسية ، عرفت فوراً أن ذلك هو السر فى حبى له» .

وبمزيد من المتابعة لذلك الطابور الطويل من الشخصيات السياسة والتى ارتبط بها عبد الوهاب على مدى عمره كله حتى من قبل الثورة ، وجدنا أن هذا الموسيقار العبقرى قد تميز فى هذا الجانب عن غيره من زملاء الفن الكبار . ونراه كان يملك فى هذا الجانب أيضا مقدرة غريبة على اكتساب الأصدقاء من أصحاب النفوذ والجاه والسلطان ، وكانت خطواته تقوم فى الأساس على السعى حثيثا لمعرفة هذا الشخص أو غيره ثم يعقب ذلك تكثيف اتصالاته ، إما بدعوته لحفلاته الغنائية أو بإستشارته فى بعض أعماله الفنية ! . وكانت شهرة عبد الوهاب . فى ذلك الوقت من ناحية أخرى قد ساهمت كثيراً فى توسيع دائرة نفوذه فى مجال مصداقة أصحاب النفوذ داخل المجتمع المصرى .

وكان من بين الشخصيات السياسية الهامة أيضاً والتى عرفها عبد الوهاب وظل على ولائها طويلاً . . مصطفى باشا النحاس زعيم الوفد من بعد سعد زغلول ، ونراه قد كتب لنا عن علاقته بهذا الزعيم مثلما كتب لنا عن سعد زغلول وعن غيره من رجال السياسة الذين عرفهم فى حياته .

ومما ذكره عبد الوهاب عن مصطفى النحاس قوله : « . . ومنذ أن عرفنى أحبنى وأخذ يسأل عنى كل يوم ، ويبدى رأيه فيما أنتجه من ألحانى كأى ناقد صريح» ويضرب لنا عبد الوهاب الأمثلة الكثيرة على ذلك فيقول : «حدث مرة على إثر إذاعة أغنية «الجندول» لأول مرة أن دق جرس التليفون فى منزلى وسمعت النحاس باشا يصيح : اسمع يا محمد غنوة الجندول دى بايخة خالص ولا يصح أن تذاع» .

لقد كان عبد الوهاب بالفعل ينتهز الكثير من الفرص لمد أواصر الصداقة مع هذه الشخصيات السياسية . . فنراه على سبيل المثال يدعو زعيم حزب الوفد مصطفى النحاس لمشاهدة أحد العروض الأولى لفيلمه الجديد . . وهو يقول عن ذلك : «حدث عند عرض أولى أفلامى «الوردة البيضاء» أن حضر حفلة العرض الأولى مصطفى النحاس . . وبعد انتهاء ذلك العرض ذهبت إليه فى المقصورة التى كان يجلس بها لكى أقدم له واجب الشكر على تشريفه الحفلة ، عندئذ احتضننى وقبلنى مهنئاً» .

ولذكاء عبد الوهاب المفرط فى ترويجه لمبادئه الخاصة بعقد تلك الصداقات التى كاد ينفرد بها من دون غيره من الثلاثة الأخرين . . فقد كان كثيرا ما يردد أنه ليس سياسيا ولا يحب السياسة ، . . وقد ألزم نفسه طوال حياته بهذه المقولة . وحتى

لا يظن هؤلاء السياسيين أنه سوف ينافسهم أو يستغل صداقته لهم فى التوريج لأفكاره السياسية سواء المستقلة أو المربوطة بالأحزاب .

وربما تكون تلك المقولة هى نفسها التى سهلت مهمته فى عقد المزيد من الصداقات لرجال السياسة فى فترة ما بعد ثورة يوليو من الذين كان معظمهم من رجال الجيش والذين أحاطوا بجمال عبد الناصر سواء من المدنيين أو من غيرهم .

وكانت طموحات عبد الوهاب فى مجال عقد صداقاته أيضا لا تتوقف عند حد من الحدود المتعارف عليها إذ لم يقنع بالإقتراب من عالم رجال السياسة ورجال الأحزاب وممن كانوا يسيرون فى أفلاكهم . . بل نراه ينظر فى اتجاه القصور الملكية على أمل أن يخترقها ويجلس بين جدرانها ! . .

ويبدو أن إقباله على إقامة صداقات ميتنة مع رجال السياسة من رؤساء الأحزاب كان هدفه الأكبر هو الوصول لما فى داخل تلك القصور سواء من الأمراء أو من حاشية الملك أو الملك نفسه ! .

ولقد أثبتت الأيام حرفية عبد الوهاب فى اكتساب صداقات الملوك والأمراء ، حتى بات يطلق عليه لقب «مطرب الأمراء والملوك» ! . ولا نحسب أن هذا الإتجاه الجديد الذى بدأه قبل الثورة قد تخلص منه بعد قيامها ! ، بل بالعكس . فقد كان حريصاً كل الحرص على مواصلة السير فى ركاب الملوك والرؤساء حتى من بعد فترة يوليو عام ١٩٥٢ ، هؤلاء الذين اقتنعوا بموهبتهم . . فقربوه إليهم كمطرب وكفنان مشهور وصاحب صوت وموهبه فريدة .

وحتى عندما سألوه عن سبب إرتباطه بلقب «مطرب الملوك والأمراء» قال : «لأننى غنيت أمام أكثر من ملك ، وكان الأمير يوسف كمال مغرماً بى وكان يسمعنى بشوق وإعجاب كبيرين . كما كان حاططنى فى الوصية بتاعته . . يعنى لو كان ماقامتش الثورة كان زمانى مليونير ! . وكنت أغنى للأمير يوسف كمال من السابعة إلى العاشرة ثم يصحبنى إلى الأمراء عبد المنعم وعمرو إبراهيم وعباس حليم . وكانوا يتكلمون عن رحلتهم الصحفية أمام خريطة وأنا صامت لا أنطق . . كما غنيت كذلك أمام ثلاثة ملوك . . هم الملك فؤاد وملك الأفغان والملك فيصل . [1]

---

(١) تاريخ مصر يكتبه أهل الفن – المؤلف .

كذلك لم ينس عبد الوهاب أن يشير لنا إلى علاقته بالملك فاروق . . وكانت علاقة غير مستقرة . . بسبب التنافس على قلوب النساء . . إذ لم يكن فاروق يميل لصداقة عبد الوهاب لأنه كان يعرف مدى تأثيره وجاذبيته على النساء !! ، وفاروق لم يكن يريد منافساً قوياً فى هذا الميدان خاصة من فنان مثل عبد الوهاب ولا حتى من غير عبد الوهاب ؛ ومع ذلك كان الملك يسمح بإقامة علاقة عامة مع أحد رعاياه من الفنانين المشهورين . . لكنها كانت علاقة فنية وفقط . . ومما يذكره عبد الوهاب موضحًا ذلك قوله : «لم أغن كثيراً للملك فاروق ! . وأذكر أننى غنيت له مرة واحدة فى مناسبة إلغاء المعاهدة . . وكان لى صديق عزيز هو بشرى حنا شفيق سينوت حنا الزعيم الوفدى الكبير . ولحنت نشيد للملك فى بيت بشرى حنا وسمعه وأعجبه ، وذهبت لأغنى فى مسرح خصص لهذه المناسبة ، ولا أعرف أين رأيت هذا المسرح قبل ذلك ، لكننى ما زلت أتذكر أنه كان تحفة للعين . ولقد غنيت النشيد أمام فاروق ، وكنت أشعر بأنه يستمع بلا إستجابة ، وربما كانت تلك هى سمة الملوك ألا ينفعلوا» .

***

ونظرًا لما كان يتمتع به عبد الوهاب من موقع متميز داخل مجتمعات هؤلاء السياسيين . فإننا نراه لذلك وقد عاصر بل وشاهد العديد من الأحداث السياسية التى سطرت بعض وقائع تاريخ مصر الحديث . فعلى الرغم من أنه كان ولا يزال يحبو فى مجال صداقاته للسياسيين . فقد عاصر ثورة ١٩١٩ . . بل وشارك فى بعض أحداثها ، كما عاصر كذلك أحداث الحرب العالمية الثانية بل وتحول رغماً عنه إلى مشارك أصيل فى أحداثها . . !! عندما عرف من مصادره المتعددة أن دول الحلفاء ومخابراتها كانوا سيلقون القبض عليه خاصة بريطانيا . . إذا ماهزمت فى الحرب . . واضطرت للانسحاب . . من مصر ! .

وكذلك عاصر عبد الوهاب أحداث ثورة فلسطين فى عام ١٩٣٨ والتى اشتعلت لأول مرة ضد عصابات اليهود ، وكذلك أحداث حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . . وإن لم يكن له فيها مشاركات تذكر مثل أم كلثوم ! .

ولا ننسى كذلك أن نشير فى هذا السياق إلى ما عاصره عبد الوهاب من أحداث سياسية داخلية كانت تتمثل فى تأليف الوزارات وإجراء الانتخابات . سواء الحزبية أو غير الحزبية .

وتجرى الأيام بنا وبعبد الوهاب حتى تصل إلى مشارف منتصف عام ١٩٥٢ . . حين أعلن الراديو عن قيام حركة الجيش المباركة بقيادة اللواء محمد نجيب ! الذى كان عبد الوهاب على علاقة نسب به . وقد تصور عبد الوهاب وآخرون بأن هذه الأحداث سوف تتوقف عند هذا الحد وبالتالى لن يكون لها تأثير خارج نطاق الجيش وفق ما أعلنه الراديو . . ثم تمر الشهور تلو الأخرى حتى ظهرت نوايا هذه الحركة . . إذا انقلبت إلى ثورة وانقلبت معها كل الأوضاع سياسيا واقتصاديا واجتماعياً .

ولعلنا نرجأ الحديث المفصل عن تأثير أحدث هذه الفترة على حياة عبد الوهاب فى كل نواحى حياته . . لحين التحدث عن موقف الأربعة الكبار من ثورة يوليو ورجالها وزعيمها محمد نجيب وجمال عبد الناصر ! . وقد خصصنا لذلك فصلاً كاملاً . . هو الفصل القادم .

***

وكان لأم كلثوم من جانب آخر ، نصيب وافر كذلك فى مجال عقد الصداقات الراقية مع شخصيات سياسية مماثلة . . وقد أثبتت الأيام أن كوكب الشرق كانت فى كثير من مراحل حياتها أكثر احتياجاً لتلك الصداقات من الموسيقار محمد عبد الوهاب ، وذلك لأسباب كثيرة ومتنوعة تناولناها بالتفصيل فى كتابنا الذى صدر هذا العام تحت عنوان «أم كلثوم و ٥٠ سنة سياسة» . .

ولقد بينا فيه أنه نظراً لما مرت به أم كلثوم من مصاعب فى حياتها الخاصة وحياتها الفنية فإنها كانت تسعى جاهدة للفوز بأعداد كبيرة من عشاق صوتها وفنها من بين الشخصيات السياسية المصرية .

هذه الرغبة - ولعلنا نتعجب من ذلك - كانت ملازمة لأم كلثوم منذ أن عرفت طريق التألق فنياً وحتى من قبل استقرارها فى القاهرة ، وإن اختلف مستوى هذه الصداقات بإختلاف أوقات تألقها وشهرتها .

فقد بدأت أم كلثوم فى هذه السن المبكرة فى السعى حثيثا لاكتساب مثلا صداقة العمدة وشيخ البلد ومأمور المركز ومحافظ الإقليم وناظر محطة السكة الحديد !! ، هؤلاء جميعا كانوا يؤدون لها خدمات فى مقابل الاستمتاع بصوتها وبفنها ! .

ثم تطورت علاقاتها وقد تقدمت فى طريقها المرسوم بعدما قررت الإستقرار فى القاهرة . وكانت أيضا هى التى تسعى فى هذه الفترة لتأكيد صداقاتها للشخصات

السياسية التى عرفتها ، وكان سبيلها إلى ذلك إهداء إسطواناتها الجديدة أو دعوتهم لحضور إحدى حفلاتها الغنائية الإسبوعية .

ومع الأيام واكتساب الخبرة . . تمكنت أم كلثوم من قلب وعقل وصدر العشرات من رجال السياسة فى مصر . . سواء داخل القصور الملكية وخارجها ! .

وبحسه الصحفى العالى . . استطاع الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل أن يضع يده على مفتاح شخصية أم كلثوم السياسية حين سألها : كيف استطاعتى إلغاء الفارق بين السياسة وبين الفن ؟»! .

ولم يترك هيكل القراء طويلا فى حيرة أمام سؤاله الهام إذ أصر على أن يستمع الاجابة من أم كلثوم التى قالت فى ردها : «فى رأيى أن الفن والسياسة توأمين . . يعنى مثلاً لما مصر أرسلت آثار توت غنخ آمون إلى باريس كان ده عمل سياسى وعمل فنى أيضا . . بمعنى أن الفرنسيين رأوا حضارتنا وتبادلنا معهم الثقافة فى نفس الوقت وهذه هى السياسة» . [1]

ورغم هذا المبدأ الذى حاولت أم كلثوم السير وفق هداه منذ بداية رحلتها الفنية ، وتأكيدها المستمر على ذلك . . تماماً مثلما كان يفعل من قبلها ويردد ذلك محمد عبد الوهاب ، إلا أن كل بل ومعظم أعمالها قد اصطبغت بالصبغة السياسية سواء فيما كانت تعقده من صداقات مع كبار الشخصيات السياسية أو بالنسبة لارتباطها بأهم الأحداث السياسية .

هذه الصداقات التى بدأت أم كلثوم فى السعى من أجل اكتسابها منذ قرارها الاستقرار بالقاهرة . . وذلك لإحساسها بضرورة وجود سند ومؤازة من هذه الشخصيات فى معركتها التنافسية داخل شارع الفن . . والأمر بالنسبة لأم كلثوم لم يكن سهلاً أو ميسوراً قياساً على ما كان عليه عبد الوهاب . . بل بالعكس فقد لاقت صعوبات عديدة تمثلت أولاً فى كونها إمرأة أو فتاة كانت تتمتع بوجه مقبول وصوت جميل ، ثم يمثل ثانيا فى حدة المنافسة التى واجهتها مع غيرها من فنانات عصرها مثل منيرة المهدية وبديعة مصابنى ، هاتين الفنانتين اللتين كانتا تستحوذان على معظم الشخصيات ذات النفوذ داخل المجتمع المصرى آنذاك .

(١) أم كلثوم و ٥٠ سنة سياسة - مصدر سابق .

ومن أهم الشخصيات السياسية التى لعب الحظ دوره فى تعرف أم كلثوم عليه هو الشيخ مصطفى عبد الرازق أحد السياسيين البارزين فى هذه الأيام وصاحب الكتاب الشهير الذى هز عرش الملك فؤاد «الإسلام وأصول الحكم» .

هذا الرجل الذى كان له أكبر الفضل فى انتقال أم كلثوم إلى المجتمعات الراقية والتى بدأت تهوى صوتها ، وكانت تلك المجتمعات آنذاك محط أنظار رجال الدولة والسياسة والأمراء ، حتى أنها أصبحت مرغوبة من حاشية القصر الملكى للمشاركة فى حفلات الملكية ! . كما أصبحت فى الوقت نفسه الموضوع الرئيسى لمعظم صحف ومجلات هذه الأيام خاصة فى مجلة آخر ساعة .

ففى العدد ١٣٣ من هذه المجلة ، إشارة واضحة لاشتراك أم كلثوم فى إحياء حفل خاص أقيم بقصر عابدين إحتفالاً بعيد ميلاد الملك فاروق ، وقد ذكرت المجلة تفاصيل كثيرة عن ذلك الحفل منها أن ملك البلاد وعن طريق حاشيته قد استدعى أم كلثوم لكى يقدم لها تهانيه الخاصة على إجادتها للغناء أمام جلالته !

كما أصرت الأميرات على تهنئة أم كلثوم وكذلك الملكة فريدة وصاحبات السمو الأميرى ، ممن حضرن هذا الحفل الخاص .

ويبدو أن التوقيت الذى صاحب مرحلة تألق أم كلثوم فنياً ، كان بداية حقيقية لإنطلاقها فى رحاب القصور الملكية ، ومصاحبة كبار رجال الدولة . . كما شهد نفس التوقيت تقريبا . . حفلات التكريم الخاصة التى أقيمت لأم كلثوم بمناسب حصولها ولأول مرة على المستوى الفنى – على «نيشان الكمال» – من الدرجة الأولى والذى لم يكن يمنح إلا للأميرات فقط ! . هذا النيشان الذى اكسبها لقب «صاحبة العصمة» تماماً مثل أية أميرة كانت تنتسب إلى قصر عابدين ! .

ولو كانت أم كلثوم تعلم الغيب لأصرت على رفضها الحصول على هذا النيشان والذى أغضب الأميرات حين حصولها عليه ! . إذ كان ذلك اللقب الذى اكتسبته من ورائه سببا لأكبر المشاكل التى واجهتها من بعد قيام الثورة ، خاصة فى فترة حكم الرئيس السادات ! . عندما اصطدمت بالسيدة چيهان السادات التى أجبرت زوجها لأجل أن يمنحها لقب يعادل بل ويفوق لقب أم كلثوم صاحبة العصمة . ففازت بلقب «سيدة مصر الأولى» .

ولم يكن ذلك هو نهاية المطاف فى صراع سيدة مصر الأولى مع كوكب الشرق ، بل امتد ليشمل أفاقاً عديدة ، ولمن يريد التعرف على المزيد من نتائج ذلك الصراع عليه الرجوع لكتابنا «سيدتان من مصر» .

أما أشهر شخصية سياسية صادفتها أم كلثوم فى الفترة المتألقة من حياتها فنياً رئيس الديوان الملكى أحمد حسنين باشا ! . صاحب أشهر مغامرات عاطفية خاصة مع المطربة أسمهان . . وكان حسين باشا من أشد المعجبين بصوت وفن أم كلثوم . . وقد تصادف أن تكون أم كلثوم آخر شخص فى حياته يقابلها ويستمع لصوتها فى حفل قبيل رحيله بساعات ! .

وهناك نقطة مهمة . . رأينا من الضرورى الإشارة إليها فى هذا السياق . . وهى أن الأمر بالنسبة لكوكب الشرق فى مجال علاقتها برجال السياسة لم يتوقف عند حد عقد صداقات بعينها ، مثلما كان حاصلاً من قبل أو من بعد مع زميلها محمد عبد الوهاب ، بل بالعكس . . فقد تعدى ذلك إلى آفاق أخرى متميزة . ناحية العلاقات الخاصة جداً . . بل وناحية العواطف والقلوب . وقد عرض عليها أحد أمراء البيت الملكى أن يتزوجها عرفيًا بعدما وقع فى غرامها ! ، ولولا ما كانت تتحلى به أم كلثوم من كرامة أهل الريف لرحبت بهذه الفكرة . . وعندما أرادت أن تعاقب شريف باشا صبرى أخو الملكة نازلى وخال الملك فاروق على عدم رغبته فى الزواج منها زواجاً شرعياً . . قررت قبول الزواج من الموسيقار الشعبى آنذاك محمود الشريف ! . ولقد سبق لنا أن بينا ذلك .

إن هذه الواقعة السياسية التى هزت أركان العرش الملكى فى عام ١٩٤٥ . معروفة لجيل هذه الأيام . . وقد حفلت بها العديد من الصحف والمجلات . . ولولا الضغوط الملكية والتهديدات التى سمعها محمود الشريف بإذنيه لتم لأم كلثوم هذا الزواج ! .

وتتوالى صدامات أم كلثوم السياسية مع الأسرة المالكة . . فنراها ترفض إحياء حفل زفاف إحدى بنات الملكة نازلى . . وبعد محاولات من جانب الأصدقاء قبلت أم كلثوم فقط المشاركة بالغناء بإعتبارها إحدى حفلاتها العامة .

ولم يكن ليخفف عن أم كلثوم مثل هذه الصدامات سوى ارتباطها بالعديد من الشخصيات السياسية والإعلامية قوية التأثير فى المجتمع المصرى آنذاك . . والتى

أخذتها معها للمشاركة فى العديد من الأحداث السياسية الهامة التى شهدتها مصر عن هذه الفترة ! .

ففى عام ١٩٣٨ شاركت أم كلثوم السيدة هدى شعراوى وزوجها على بك شعراوى فى تمويل أول ثورة على أرض فلسطين ضد اليهود . وقد غنت أم كلثوم العديد من أغنياتها العاطفية فى هذا الحفل الذى بلغ إيراده أكثر من مائة جنيه ! . كما ساهمت بنفس الطريقة فى تمويل إنشاء جامعة الدول العربية فى عام ١٩٤٥ .

علمًا بأن أهم ما ساهمت به أم كلثوم فى أحد أحداثنا السياسية الساخنة . . فكان فى عام ١٩٤٨ . . وفى أثناء حرب فلسطين بين العرب وبين اليهود . . عندما كان صوتها أهم ما تمسك به المحاصرون من الضباط المصريين فى عراق الفالوجا ، وكان من بينهم جمال عبد الناصر ! . .

وحتى من بعد وصولهم إلى مصر . . استقبلت الضباط العائدين من ڤيلتها بالزمالك لتهنئتهم على سلامة العودة . . ولتكمل لهم بقية رغباتهم الفنية غناءاً وموسيقى ، وكان مع هؤلاء أيضا الضابط جمال عبد الناصر .

ثم توالت مساهمات أم كلثوم السياسية عبر صوتها سواء بإغنياتها الوطنية أو بإقامة المزيد من الصدقات مع أولى الأمر من الأمراء والحكام ورجال الثورة .

ولقد تجلت تلك المساهمات السياسية بوضوح أكثر فى فترة ما بعد ثورة يوليو . . حتى أنها ارتبطت إرتباط الأعضاء بجمال عبد الناصر . . إلى يوم رحيله ! . . وكان لها السند والقوة والنفوذ والسلطان على نفسها وعلى غيرها من الفنانين . وأيضا سوف نشير إلى ذلك بتفصيل أكثر . . فى الفصل القادم .

***

أما بخصوص رحلة فريد الأطرش فى عالم السياسة . . فقد بدأت وكما عرفنا من قبل منذ نعومة أظفاره ، . . إذ ولد وتربى وعاش سنوات صباه الأولى داخل القصور الأميرية التى كان يملكها والده وأعمامه من سلاطين الدروز . وقد ظل على هذه الصفة حتى سن الثامنة من عمره . وعلى الرغم مما كان يردده كثيراً من أنه يكره السياسة وكل العاملين والمرتبطين بها ، إلا أن مشواره الفنى قد حظى بالعديد من صداقات رجال السياسة على اختلاف انتماءاتهم الحزبية .

ولقد ظلت تلك الصداقات تكبر وتتنوع مع ازدياد شهرته الفنية يوماً بعد يوم ، وكانت كثيراً ما تخرج عن الحدود فى مصر أو لبنان أو المغرب أو إلى دول أخرى كثيرة ! .

أما أولى الشخصيات السياسية التى عرفها فريد الأطرش فى حياته المبكرة فكان سعد باشا زغلول الذى تدخل وبشكل شخصى للسماح له ولأسرته لعبور الحدود إلى مصر بشكل دائم والإقامة بها بشكل دائم . . وحتى عندما بدأ فريد الأطرش فى شق طريقه فى إتجاه الفن . . كان لابد له من شخصية أو شخصيات سياسية بعينها تساعده فى هذا الأمر . فتعرف بالمصادفة على شيخ العروبة أحمد باشا زكى الذى توسط لدى المسئولين فى معهد الموسيقى لكى يلتحق به طالباً ! .

وكان أحمد زكى باشا قد استمع لصوت فريد الأطرش وأعجب به عندما كان يحضر حفلة أقامتها جامعة فؤاد الأول تأييداً للثورة فى سوريا ضد الفرنسيين . وفى هذا الحفل كما أكد ذلك فريد الأطرش فى مذكراته «أعطانى بطاقة وقال لى : قدمها لمصطفى رضا فى معهد الموسيقى . .» .

ولما نجحت أولى خطوات فريد فى مجال فن الأغنية بعد إتقان فن الألحان . بدأ يتألق فى سماء النجومية والشهرة من خلال ما كان يقدمه من أغنيات جديدة وألحان وأفلام استعراضية ، وعندئذ طوقت شهرته الآفاق داخلياً وخارجيا وأصبح له جمهور كبير كان من بينهم بعض كبار رجال الدولة ومن حاشية الملك ! ، وكانت لأحاسيسه بأنه أمير أكبر الأثر فى علاقته مع هذه الشخصيات ولذلك لم ينعم بصداقتها طويلاً ! .

وهناك العديد من المواقف التى أكدت نعرة الإمارة فى حياة فريد الأطرش . . الأمر الذى جعله كثيراً ما يصطدم برموز السياسة وحاشية الملك خاصة فى فترة ما قبل الثورة . وهو يحكى لنا جوانب عديدة من تلك المواقف التى جعلته على حد تعبيره يكره السياسة من جديد . . بعدما كرهها من قبل ! .

ومما حكاه لنا وللتاريخ فى هذا السياق قوله : «كنت التقى غير مرة بالملك فاروق ، الذى كان يحب الليل ويعيش فيه بالأماكن العامة بالقاهرة . . وكانت نظراته إلىّ كثيرًا ما تنم عن كراهية لا أعرف مصدرها ، ويركبنى غرور الأمير ، كما كان يركب أسمهان حين تقابل الأميرات ، فأتجاهل أننى رأيته ، وأمضى سهرتى دون نظرة واحدة إلى مائدته»!

أما عن السبب الحقيقى وراء كراهيته للسياسة فمصدره ذلك الحادث الذى تعرض له . . والذى يحكى عنه بقوله : «واجتمع إلىّ عدد من الأصدقاء . . ولم يكن هناك بد من الحديث فى السياسة التى أكرهها ولا أحب أن أضع نفسى فوق أمواجها أو فى مجرى تياراتها ، فقد حدث من أعوام أن دعيت للغناء فى بيت صديق لى هو المرحوم محمد كامل محسن ، وكان رئيس الوزراء اسماعيل باشا صدقى الرجل الذى اشتهر بالقسوة ، قد أصدر أمراً بإلقاء القبض على مصطفى النحاس باشا ، فلما ذهبوا إلى فيلته فى جاردن سيتى لم يجدوه ، وعرفوا بأنه فى بيت كامل محسن ، فألقوا القبض عليه . . وعلى كل من فى البيت ، وكنت واحدا منهم . . ومن ليلتها – تلك الليلة التى قضيتها فى السجن – قلت لنفسى : لا ناقة ولا جمل فى السياسة وقد ألقوا القبض علىّ . . فماذا لولى ناقة وجمل» . .

كما يؤكد فريد الأطرش أن هذا الحادث ليس وحده المسئول عن كراهيته للسياسة ولكل المشتغلين بها . . وإنما ذلك يرجع أيضًا إلى ذكريات الطفولة التعيسة التى جرت عليه وعلى أسرته المتاعب وساهمت فى تشريد أسرته ! .

وربما حاول فريد الأطرش على مدى حياته العمل وفق مبدأ الفصل بين الفن وبين السياسة التى كرهها . . إلا أن ذلك لم يمنعه من مصادقة العديد من الشخصيات السياسية خاصة بعض الملوك من الذين كانوا يعشقون صوته وفنه وألحانه . . ، وكان من بين هؤلاء الملك محمد الخامس وابنه الملك الحسن ورؤساء وزراء لبنان المتعاقبين .

ولإعتزاز فريد الأطرش بصداقته لملك المغرب السابق . نراه قد ذكر لنا الكثير من المواقف التى جمعته به ، وخاصة عندما قام بزيارته الفنية الأولى لشمال أفريقيا كإحدى أهم زياراته الفنية خارج مصر آنذاك . وبما ذكره فريد فى هذا السياق : «قررت أذهب إلى الشمال الأفريقى فى رحلة فنية دعانى إليها المتعهدون وزرتها عدة مرات» .

وفى المغرب بالذات لاقى إستقبالاً حاراً من الجماهير ومن كبار المسئولين وعلى رأسهم الملك محمد الخامس الذى استدعاه إلى القصر الملكى وأحسن استقباله ، وأخبره بأنه كان يود بأن يستمع إليه فى احدى حفلاته المقبلة والتى سوف يقيمها بالمغرب ، لولا الحصار المضروب حوله من جنود الاحتلال الفرنسى .

(١) المصدر السابق .

ونظرًا لهذه الظروف السياسية الصعبة رافقه إبنه وولى عهده الأمير الحسن محتفيًا به على شرف الملك كما أقام إحتفالاً لوجود فريد الأطرش بالمغرب ، وقد حرص الأمير الحسن «ملك المغرب فيما بعد» . على مواصلة صداقاته للفنانين المصريين والعرب من بعد توليه الحكم ، إذ كان كثيراً ما يدعو إليه هؤلاء الفنانين لإقامة حفلات فنية فى بلاده . . بل وأكثر من ذلك كان كثيراً ما يساهم فى علاج بعض الفنانين ورعاية بعض إسرهم! . . ونراه فى هذا الاتجاه قد فعل الشىء الكثير من أجل فنان كبير مثل عبد الحليم حافظ خاصة فى محنته مع مرضه الأخير .

ولسوف نلاحظ فى الفصل القادم . . أن فريد الأطرش كان محافظا حتى فى علاقته السياسية مع الوضع السياسى الجديد . . وكأنما كان يواصل السير وفق مبدأه الذى كرهه فى السياسة وفى كل المشتغلين فى ميدانها ! . . ورغم ذلك فقد حظى باحترام رجال الثورة وتقديرهم . . وعاش طويلا فى ظل ذلك التقدير رغم ابتعاده عن مصر واختياره الإقامة فى لبنان . . إلا أنه أوصى إذا ما مات أن يدفنوه فى مصر بجوار إخته أسمهان . . وقد حققوا له هذه الوصية . . وكما سوف نوضح ذلك فى الفصل الأخير . . حين الحديث عن مراسم الوداع ولحظات ما قبل الرحيل .





● محمد عبد الوهاب وصديقه أحمد حسنين باشا



● أم كلثوم وفريد الأطرش في مهمة رسمية



● أم كلثوم وشريف باشا صبري خال الملك فاروق



● مشهد تكرر كثيراً بين أم كلثوم وقيادات الجيش الملكى قبل الثورة



● جانب من المكتبة الزاخرة بالكتب المتنوعة فى قصر شريف باشا صبرى، وله سلم يستخدمه الباشا عند الحاجة

الفصل الثامن

..وأين كانوا ليلة الثورة عام ١٩٥٢ ؟!

الحديث عن السياسة فى حياة الأربعة الكبار . . حديث متشعب وله عدة جوانب ، كما كانت له نتائج على جانب كبير من الأهمية . . ومع ذلك لم يفطن إليه أحد من الدراسين أو من المؤرخين أو من النقاد . ولقد سبق أن أوضحنا فى الأوراق السابقة أن حديث السياسة فى حياة هؤلاء لم يتوقف عند حدود معرفة بعض الشخصيات السياسية التى أثرت بشكل مباشر فى تاريخ مصر الحديث . . بل وشمل كذلك مشاركتهم الفعلية فى صنع كثير من الأحداث السياسية المهمة . وقد بينا أيضا العديد من تلك الأحداث التى شهدتها فترة ما قبل ثورة يوليو .

ومن خلال قراءة متأنية لبقية مسيرة حياة هؤلاء الأربعة . . لاحظنا أنهم قد حاولوا الاستمرار داخل أدوارهم السياسية التى بدأوها بحكم شهرتهم وتألقهم فنيا واجتماعيا . خاصة مع مطلع الثلاثينيات مع هذا القرن ، والتى فُرضت عليهم فرضاً بعد قيام ثورة يوليو إذ تغيرت الأحوال والأحداث والأشخاص وكل شىء حتى بات التغير يفرض نفسه داخل المجتمع المصرى كل ساعة ! .

وفى الحقيقة . . لولا ما كان يتمتع به هؤلاء الأربعة من شهرة مدوية وقوة ونفوذ ، لما تمكنوا من النجاح فى الاستمرار بنفس المقدرة الفنية والسياسية فى ظل العهد السياسى الجديد ، وبالتالى كانت الأحداث غير المتوقعة على الأقل من جانب عدد كبير منهم ومن زملائهم ، سوف تؤثر على استكمال مسيرتهم الفنية إلى حد الخروج عن المألوف والإنزواء ، والعيش على إنجازات الماضى .

وحتى نكون منصفين فى حكمنا على تقبل هؤلاء للوضع السياسى لجديد . . لابد من القول بأن تقبلهم لما جاء بعد فترة يوليو عام ١٩٥٢ وما تبعها من أحداث

سياسية كانت فى غاية الخطورة ، لم ينبع من شعورهم الوطنى بقدر خوفهم على المستقبل الفنى والعيش الرغيد الذى اعتادوه لفترات زمنية طويلة ! ، بدليل أنه وبعد مرور عدة أشهر فقط على وقوع الانقلاب العسكرى أو حركة الجيش المباركة ، بدأ كل منهم يعيد حساباته الشخصية والفنية سعيا وراء تحقيق المزيد من المكاسب التى تضمن له البقاء فترة أطول داخل شارع الفن على الأقل بنفس التألق والنجومية ، أو الإنطلاق نحو المزيد ! .

ومع مرور الأيام والشهور من عمر هذه الثورة ، وإحساسهم بالأمان المؤقت بعد إقبال رجال العهد الجديد عليهم وعلى فنهم ، بدأوا يتفاعلون مع أحداث تلك الفترة ، وإن بدى ذلك على استحياء فى بعض الأوقات .

وفى ظل ذلك الأمان الذى بدأوا يشعرون به ، وذلك التقدير المبدئى من معظم الشخصيات العسكرية المساهمة فى الثورة . . سارعوا إلى حد المنافسة للمشاركة فى تقديم واجب الولاء والتحية لهؤلاء السياسيين الجدد . . وكان سبيلهم نحو ذلك الكلمات والألحان أولاً ! ، مبرهنين فى كل ما كانوا يقدمونه على أنهم يحبون السياسة فقط لأجل عيون الفن . وتساوى عندهم آنذاك أن يغنى أحدهم أمام الملك أو أمام الزعيم أو الرئيس !! .

والملاحظة الواجب تناولها والإشارة إليها هنا هى أن أم كلثوم ورغم أنها كانت من أوائل من سارعوا لإعلان الولاء والتأييد للثورة ولرجالها إلا أن هذا التأييد لم يشفع لها عند بعضهم ، وبالتالى واجهت ولأول مرة شبح الإقالة الفنية ، عندما حاولوا إجبارها على اعتزال الفن بإتباع عدة وسائل . . بعضها اعتمد على أسلوب منع إذاعة أغنياتها . والبعض الآخر وكما سوف نعرف ذلك تفصيلاً إعتمد على تضييق الخناق عليها مادياً !! .

ولذكائها المفرط ، كانت تلجأ إلى زعيم هؤلاء الرجال . . بواسطة الكاتب الصحفى الراحل مصطفى أمين . . الذى كان ينقل ما تعانيه أم كلثوم إلى عبد الناصر أولاً بأول ، فيتدخل فوراً لإزالة هذه الأسباب أو بعضها ، إيمانًا منه بدورها القادم ، وهو ما ينتظره شخصياً .

ولنا أن نتصور ما كان عليه هؤلاء الأربعة نفسيا وصحياً حين أعلن راديو القاهرة عن قيام حركة الجيش المباركة ، لتصحيح الأوضاع فى البلاد . . ثم بعد ذلك بأيام تطورت الأحداث وتلاحقت حتى بلغت ذروتها حين تم الإعلان عن تنازل الملك فاروق عن العرش وإبعاده عن مصر . . ثم إلغاء الملكية كلية ! وإعلان الجمهورية ! .

وإذا كنا قد نجحنا فى استعاب ذلك التصور ، وما أصاب هؤلاء من خوف وهلع أمام تلك التطورات السياسية المتلاحقة ، فلن يكتمل ذلك التصور بالفعل إلا إذا عشنا الظروف الصعبة التى عاشها فنان مثل محمد عبد الوهاب والذى عرفه رجال الثورة . . بل وعرفه كل جمهوره . . بأنه مطرب الأمراء والملوك ! .

لقد كان محمد عبد الوهاب عند إعلان إلغاء الملكية . . فى موقف يحسد عليه . . إذ أحس بالخطر يقترب ناحيته بسرعة . وكانت تعيش نفس الموقف إلا قليلا . . كوكب الشرق أم كلثوم التى كانت هى الأخرى تُحسب على الأسرة الملكية بحكم ما نصت عليه ديباجة «نيشان الكمال» من أنها أصبحت صاحبة العصمة ، وباتت لذلك تعيش فى صفوف الأميرات ! ، ولذلك كان من المتوقع أن يصيبها ما أصاب غيرها ! .

هذا الخوف وهذا الفزع لم يكن ببعيد أيضا عن فنان مثل فريد الأطرش . إبن الأمير فهد الأطرش . . إلا أن موقفه من المؤكد كان أقل خوفًا من أم كلثوم وعبد الوهاب . . إذا ارتبط تاريخ عائلته بالصراع ضد المستعمرين الفرنسيين ، وكان هدفهم هو نفس الهدف الذى سعت إلى تحقيقه الثورة حين أعلنت عن كفاحها ضد القوات البريطانية التى كانت تحتل مصر حتى هذه الفترة !

من هنا نجد أن الفنان عبد الحليم حافظ كان هو الفنان الوحيد من بين هؤلاء الأربعة الذى لم يفزعه ذلك الحادث القومى ، بل وكان بالعكس بداية طريق خير له . . إذ تزامن وقوعه مع أولى خطواته إلى شارع الفن ! .

ومهما قيل غير ذلك على لسان الثلاثة الآخرين ، ومهما روجوا من كلمات وعبارات بشأن حسن استقبالهم للثورة ولرجالها . ، فإن ما كانوا يصرحون به شىء وما كانوا يشعرون به فى نفوسهم شىء آخر ، والأوراق القادمة سوف توضح لنا ذلك بجلاء .

إن الوقوف على أماكن تواجد الأربعة الكبار ليلة حدوث الثورة أو بعدها بأيام . . سوف ينقل إلينا بصدق ردود أفعالهم جميعا سواء البطيئة أو السريعة ، هذه الأماكن التى كانوا بها وقت وقوع الثورة . . قد أفصح عنها البعض منهم ، وظل البعض الآخر يدفنها داخل صدره !! . وكانت أم كلثوم وعبد الحليم وفريد الأطرش من الذين سجلوا ذلك .

من ناحية أخرى حاول بعض رجال الثورة استخدام أسلوب الإرهاب والأوامر العسكرية فى إخضاع هؤلاء الأربعة للسلطة الجديدة ، مما ساعد على زيادة جرعة الخوف والفزع بداخلهم ، وجعلهم يختلفون فى ردود أفعالهم .

وكان أول من واجه هذه الأوامر الفنان محمد عبد الوهاب . . وذلك حين ذهب إليه - وعلى حد قول الكاتب الصحفى لطفى رضوان - بعض ضباط الثورة وطلبوا منه فيما يشبه الأمر ، بضرورة أن يذهب إلى قيادة الثورة لتقديم واجب الشكر والتبريك للقادة الجدد . . فاتصل بأم كلثوم ، التى أخبرته بأن نفس الأشخاص تقريبا قد جاءوا إليها وطلبوا منها نفس المطالب !! وأضافت أنها لن تذهب إلى هناك إلا إذا وجدت مناسبة تستدعى ذهابها !! .

هذا الرأى الذى أشار إليه الزميل لطفى رضوان ، يؤيد بالفعل ما توصلنا إليه منذ لحظات إذ عم الخوف والفزع كل من كانوا يرتبطون بالعهد الملكى فنانين وغير فنانين ، مما حدى بالبعض بالتفكير فى الهجرة أو اللجوء السياسى والتقوقع داخل البيوت ! .

وما قيل فى هذا السياق إنما بات يخالف تماماً ما أخذ يروج له أصدقاء أم كلثوم من رجال الصحافة الذين كتبوا مثلا . . أن كوكب الشرق قد قطعت إجازتها السنوية التى كانت تقضيها وقتذاك فى مدينة الإسكندرية ، ورجعت إلى القاهرة لإعلان ولائها المبكر للثورة ! ، وفى تصورنا ، أن هذا الرجوع كان سببه الحقيقى ليس تقديم الولاء ، بل للإطمئنان على مكانتها الفنية فى ظل تلك الأحداث الجديدة ! .

كما أن علاقة عبد الوهاب العائلية - كما أكد ذلك بنفسه - برجل الثورة الأول وزعيمها أنذاك اللواء محمد نجيب لم تشفع له فى التخلص من ردود الأفعال المزعجة التى امتلأ بها قلبه وصدره ! . .

وعندما أخذ يسأل أصدقائه نصحه الكاتب الصحفى الراحل محمد التابعى بأن يذهب إلى «البريمو بتاعهم» . . وكان بذلك يقصد جمال عبد الناصر ! .

وفى الوقت الذى كان فيه كل من عبد الوهاب وأم كلثوم ، بل وفريد الأطرش يبحث عن مخرج أو مدخل يقربه من رجال العهد السياسى الجديد . . كان رجال الثورة سباقون لفتح ملفات هؤلاء الثلاثة بالذات وذلك للوقوف على تاريخهم الوطنى . . ومناقشة مدى إمكانية الاستفادة من الصالح منهم وممن يتوافق بموافقه مع الثورة . ولم يجد رجال الثورة صعوبة فى التوصل لبعض ملامح ذلك التاريخ الذى سجل جانباً منه هؤلاء فى أوراقهم الخاصة . وكان من أشهر المواقف الوطنية التى رجحت كفة أم كلثوم بالذات لخدمة الوضع السياسى الجديد . ما كان منها والخاص بموقفها الوطنى المنحاز لضباط الجيش أثناء وبعد حصار الفالوجا وحرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

ومما يحكى فى هذا السياق روايتان أحدهما ذكرها الكاتب الراحل مصطفى أمين بإعتباره أحد شهودها ، والثانية كتبها الصحفى محمود عوض عن سماع ، أما بخصوص الرواية الأولى فتقول تفاصيلها على لسان مصطفى أمين : إتصل بى الفريق محمد حيدر باشا قائد الجيش فى عهد الملك فاروق ، وأبلغنى بأن ضباط الفالوجا المحاصرون قد بعثوا برسالة لاسلكية غريبة من موقع الحصار . . وتقول الرسالة التى وجهها هؤلاء الضباط لأم كلثوم ، أنهم يطلبون منها بأن تغنى لهم فى حفلتها التى ستقيمها بعد أيام أغنية «غلبت أصالح فى روحى» . . وطلب منى حيدر باشا أن أبلغ رغبة هؤلاء الضباط لأم كلثوم لمعرفة رد فعلها !

ويؤكد مصطفى أمين أنه تحدث بشأن هذا الطلب مع أم كلثوم التى رحبت بتحقيقه فوراً على الرغم من أن الحفل كان سيقام خلال أيام قليلة وأنها وعدت بأن تهدى أغنية الوصة الأولى لزوجة الأمير فيصل ، والوصلة الثانية أغنية على شرف زوجة الملك الغازى وأم الملك فيصل الثانى ملك العراق ، أما الوصلة الثالثة فكانت مخصصة لأغنية طلبتها إحدى الأميرات .

وأخبرت أم كلثوم مصطفى أمين بأنها سوف تلغى الأغنية المطلوبة على شرف الأميرة فى الوصلة الثالثة تلبية لرغبة هؤلاء الضباط المحاصرين . كما أبلغت

أم كلثوم مصطفى أمين بأنها سوف تغنى لهم أغنية أخرى وهى أغنية «أنا فى إنتظارك» ، وكأنها تريد أن توصل لهم رسالة عبر كلمات أغانيها بأنها سوف تنتظر عودتهم بفارغ الصبر مثل ملايين المصريين الذين عاشوا هذه الأزمة بقلوبهم وعقولهم . وبالفعل عاد هؤلاء المحاصرون من الضباط . . كما أوفت أم كلثوم بعهدها . . فاستقبلتهم فى فيلتها بالزمالك . . وكان ذلك فى عام ١٩٤٩ . بناء على رغبة الضباط الذين أرسلوا بهذا الطلب إلى حيدر باشا . . كما كان مصطفى أمين من بين شهود هذا اللقاء الذى كان على رأسه الضابط جمال عبد الناصر . بإعتباره كان قائدا لكتيبة المشاة التى كانت محاصرة فى الفالوجا .

أما الرواية الثانية التى ذكرها الكاتب الصحفى محمود عوض فيقول فيها : «لقد بدأت شخصية أم كلثوم تتحول إلى رمز لكل ما هو جميل وباق ومحبوب ومستمر فى مصر . . لقد بدأت هذه الشخصية تحمل هذه البذور الوطنية منذ فترة طويلة مضت . . لقد دخلت المسرح تغنى مرة فى شهر فبراير عام ١٩٤٩ ! ، لكنها وقبل أن تغنى فوجئت بضابط يستوقفها ليقدم لها خطاباً مغلقاً . . ما هذا الخطاب ؟! . وماذا بداخله ؟ . إنها ورقة ؟ . . أه وما هو مكتوب فى الورقة . . مش معقول ؟! إنه رجاء يقدمه إليها ضباط وجنود الفرقة المصرية السادسة المسلحة والتى يحاصرها اليهود فى الفالوجا . . نريد أن نسمع منك فى حفل الليلة المذاع بالراديو أغنية «غلبت أصالح فى روحى» .

ويكمل محمود عوض روايته . . بل يختتمها بقوله : «قطعة غنائية تحولت إلى مهمة وطنية ، ليلتها قطعت أم كلثوم وصلتها الأولى لكى تقدم الأغنية المطلوبة ، وغنتها كما لم تغنها من قبل .[1]

وبصرف النظر عن مناقشة مدى اختلاف أو اتفاق هاتين الروايتين إلا أن هذا الموقف الوطنى العظيم الذى كان من أم كلثوم . كان له أكبر الأثر فى نفوس هؤلاء الضباط ممن شاركوا فى تنظيم الضباط الأحرار خاصة جمال عبد الناصر .

وهذا الموقف الوطنى المبكر الذى حدث فى فترة ما قبل ثورة يوليو . لم يكن ببعيد عن موقف عبد الوهاب . المشابه مع اختلاف فى التفاصيل ، وقد لعب فيه إتقانه لفن الأغنية دوراً كبيراً ، كما حكى عنه فى بعض أوراقه الخاصة . ومما قاله عن ذلك : «فى

(١) أم كلثوم التى لا يعرفها أحد – محمود عوض .

أثناء حرب فلسطين طلبت من الشاعر بشارة الخورى أن يكتب لى قصيدة لكى ألحنها وأغنيها عن فلسطين ،لكنه تأخر فى الرد علىّ ، فلجأت إلى صديقى المرحوم على محمود طه فكتب لى قصيدة «أخى جاوز الظالمون المدى» . . ولم أكد أفرغ من تلحينها حتى أرسل إلى الأستاذ بشارة قصيدته ، ولكنى كنت قد انتهيت من تلحين قصيدة على محمود فسجلتها وأذاعتها المحطة . . وفجأة أوقفت المحطة إذاعة هذه القصيدة . . لماذا ؟! . . لست أدرى . . فقد ظل هذا الأمر بالنسبة لى لغزاً حائراً إلى اليوم لأننى لم أعرف سببه الحقيقى . . وقيل مرة من جهة رسمية أن الحكومة ترى إن إذاعتها تتنافى مع الهدنة التى كانت قد أُعلنت فى ذلك الوقت ! . ثم قيل لى مرة أخرى أن السبب هو أن القصيدة تحتوى على بيت جاء فيه : «يسوع الشهيد على أرضها» ، وأن كلمة الشهيد تتنافى مع عقيدة المسلمين . . فرجعت إلى المؤلف الذى قال لى إنه قصد بالشهيد مَن تحمل الآلام والعذاب والإضطهاد ، بل وأنه أخذ إقراراً بهذا المعنى من بعض علماء الأزهر . ومع ذلك ظلت هذه القصيدة معتقلة إلى أن قامت الثورة . . وفى يوم ٢٦ يوليه عام ١٩٥٢ كلمنى من الإذاعة أحد ضباط الجيش يسألنى إن كنت أوافق على إذاعة القصيدة ، فوافقت مرحباً بالفرصة السعيدة التى أتاحت الإفراج عن ألحانى التى اعتقلتها العهود السابقة . [١]

وهناك إلى جانب ذلك حادث شهير آخر إرتبط برحلة الفن فى حياة عبد الوهاب ، وكان له صدى طيب داخل نفوس رجال العهد السياسى الجديد . . مما جعلهم يرفضون فكرة أن يكون هو وأم كلثوم من مخلفات العهد الملكى المطلوب القضاء عليها !

وعبد الوهاب يرويه لنا فى أوراقه حين قال : «كان الأستاذ كامل الشناوى قد نشر «نشيد الحرية» الذى ألفه قبل الثورة واتفق معى على تلحينه وتسجيله للإذاعة ، ولحنت النشيد الذى كان مطلعه «أنت فى صبرك مكره» وإذا بوزارة الداخلية تمنع تسجيل هذا النشيد بحجة أنه يثير الشعور العام ! . وترامى إلىّ أن هناك من نقل إلى السراى أن عبد الوهاب يلحن نشيداً ثورياً يتعرض فيه للظلم والاستبداد والإعتداء على الحريات ! . . . وطبعا لم أسجل ذلك النشيد حتى قامت الثورة فتم تسجيله وأذيع نشيد الحرية مع مولد الحرية فى العهد الجديد . . [٢]

---

(١) محمد عبد الوهاب – لطفى رضوان – مصدر سابق .

(٢) المصدر السابق .

إننى أعود وأكرر أن مثل هذه المواقف الوطنية غير المحسوبة مسبقا والتى نبعت من أحاسيس هذين العملاقين بالذات كانت بالفعل جواز مرورهما إلى قلب وعقل رجال السياسة الجدد الذين قاموا بالثورة لأجل التخلص من الملك ومن مساوئ حاشيته ، وكانت فى الوقت نفسه مصدر الأمان الذى شعر به القادة الجدد ، حيث باتوا يتصورون أن هؤلاء الكبار من الفنانين إنما سيسارعون لدعم هذا العمل الثورى الجديد ! ، وكان صاحب تلك الرؤية هو جمال عبد الناصر شخصيًا الذى استوعب حوادث التاريخ جيداً وقرأه بإمعان وصبر . ولذلك سوف نراه يتدخل كثيراً لصالح كل من عبد الوهاب وأم كلثوم وبقية الأربعة الكبار ، ومدافعاً عنهم أمام بقية زملائه من الضباط والأحرار .

وكان هؤلاء الأربعة بحق عند حسن ظن زعيم الثورة . . لأنهم بادروا بالتعبير عن ولائهم لها كل بطريقته الخاصة . . فلم يمض على هذا الحدث سوى أسابيع قليلة . وقد لاحظنا إختلاف ردود هذه الأفعال من حيث القوة والتوقيت والممارسة ، فمنهم من استطاع وبإقتدار وفى أوقات مناسبة من ترجمة ذلك التأييد الجارف للثورة ولزعيمها . . بكلمات يغنيها ويلحنها . ومنهم من بادر بالذهاب إلى مجلس قيادة الثورة لإعلان ولاءه كتابة فى دفتر المؤيدين ! .

هذه الأعمال التى أقبل عليها خاصة هؤلاء الثلاثة الكبار . . أقنعت بقية الضباط من المعارضين ، فأيدوا عبد الناصر فى موقفه تجاههم . . وبالتالى باتوا يأنسون إليهم . . بل وأخذوا يعهدون لكل منهم بمهمة غنائية سارع ينفذها كما هو مطلوب منه بالضبط ! . ثم أعادوا لهم الحقوق التى فقدوها مع أيام الثورة الأولى نظراً لحالة الشك التى عاشها هؤلاء وهؤلاء .

وهناك العديد من المواقف الحاسمة التى حاول من خلالها زعيم الثورة أن يثبت لهؤلاء الكبار أنه معهم ، ليس بالكلام فقط وإنما بالأفعال .

أما بالنسبة لأم كلثوم . . فقد تدخل جمال عبد الناصر شخصياً لإعادة إذاعة أغنياتها التى حاول منع إذاعتها أحد ضباط الثورة متعللاً بأنها من رموز العهد الملكى السابق ! . وقال عبد الناصر كلمته المشهورة . . «إذا أردتم منع أغنيات أم كلثوم بإعتبارها من رموز العهد الماضى . - فتعالوا نهدم الهرم أو نردم النيل !!» .

وبالنسبة لمحمد عبد الوهاب فقد هنأه على ما قام به من جهود فنية لخدمة وطنه وطلب منه المزيد لخدمة العهد الجديد ! .

ورداً على موقف عبد الناصر المؤيد لأم كلثوم . . فقد قطعت إجازتها السنوية - التى كانت تقضيها آنذاك فى مصيف رأس البر والذى غيرته فى عام الثورة نفسه لكى لا تكون بجوار الملك وحاشيته - . بعدما عرفت بنبأ تحرك الثوار ونجاح حركتهم ضد الملك وحاشيته ، وكانت وجهتها آنذاك مجلس قيادة الثورة لإعلان ولائها للنظام السياسى الجديد . وذلك وفق ما ردده البعض .

ولقد ظلت أم كلثوم على الرغم من ذلك تعيش بالقرب من هذه الأحداث على الأقل لمدة عام ، وذلك فى محاولة ذكية منها لإكتشاف من سيكون الزعيم القادم ، وصاحب الكلمة العليا داخل مجلس قيادة الثورة ، على الرغم من إحساسها المبكر وكذلك كل الشواهد التى كانت حولها والتى أكدت أنه جمال عبد الناصر ، ذلك الضابط الذى قابلته وأكرمته فى ڤيلتها بالزمالك فى عام ١٩٤٩ .

وتروى لنا الدكتورة رتيبة الحفنى ما واجهته أم كلثوم من مصاعب مع أيام وشهور الثورة الأولى . . مع بزوغ نجم عبد الناصر الذى تدخل كثيراً لصالحها ، فتقول : «همس بعض المقربين لزعيم الثورة بأن يجعل لثورته مطربة أخرى غير أم كلثوم التى غنت للملك «حبيبى يسعد أوقاته» ونالت «نيشان الكمال» وأصبحت صاحبة العصمة ، لذلك يجب أن تعامل كما يعامل زعماء أحزاب العهد البائد . . ، واقتنع جمال عبد الناصر بهذا الرأى ، وطلب أن تنصب المطربة ليلى مراد على عرش الغناء المصرى ، وبالفعل كانت ليلى مراد المطربة الأولى لقطار الثورة ، وغنت فى أولى أعيادها» . وقد أصاب أم كلثوم إحباط شديد على أثر هذا الموقف الذى لم تكن تتوقعه ، وعلى حد تأكيد الدكتورة رتيبة الحفنى . . فإنه لم يكد يمر عام واحد على قيام الثورة حتى استدعاها عبد الناصر وطلب منها أن تعود .

ويبدو أن هذه المصاعب وهذه المضايقات التى لاحقت أم كلثوم بعد الثورة كانت سبا رئيساً فى تجديد إصابتها بالغدة الدرقية التى هددت صوتها بالزوال ! . ولما بلغ هذا الخبر جمال عبد الناصر قرر بأن تسافر فوراً إلى أمريكا لإجراء الفحوص الطبية هناك . . وكلف زميله أنور السادات بأن يكون فى شرف وداعها بالمطار !

ولما عادت أم كلثوم من رحلتها لأمريكا أخذت تعلن فى الصحف والمجلات معبرة عن حبها وإمتنانها وتأييدها للثورة ، ومما قالته على سبيل المثال فى إحدى هذه

التصريحات : «أنا عرفت إن الحكومة والملك خافوا هؤلاء الضباط العائدين وكان منهم جمال عبد الناصر وآخرين من رجال الثورة خاصة بعد قضية الأسلحة الفاسدة» .

ولمزيد من الإعلان عن التقدير الخاص لرجال الثورة خاصة لأم كلثوم . . قرر جمال عبد الناصر أن يعقد إحدى جلسات مجلس القيادة فى ڤيلا أم كلثوم بالزمالك . . لترضيتها إزاء الموقف الذى تعرضت له فى انتخابات نقابة الموسيقيين فى عام ١٩٥٣ . . عندما أقنع بعض ضباط الثورة محمدعبد الوهاب لخوض هذه الانتخابات كمنافس أمام أم كلثوم ، بعدها أعلنت كوكب الشرق انسحابها من الانتخابات ، بل وانسحابها من شارع الفن بشكل عام ! .

وكان لهذه الزيارة تأثير السحر على نفس أم كلثوم ، إذ عادت إليها الروح التى افتقدتها فى صراعها مع بعض رموز العهد السياسى الجديد . . كما كانت فى الوقت نفسه رسالة مدوية وموجهة إليها من جمال عبد الناصر ، لكى تنضم إلى طابور المؤيدين للثوار مستخدمة حنجرتها وشهرتها فى تأكيد مفهوم الثورة فى عقول وصدور محبيها من المستمعين .

ومع الأيام الأولى لعام ١٩٥٤ . بدأت أم كلثوم بالفعل تستعيد توازنها الفنى والسياسى ، وعقدت العزم على تثبيت تواجدها لصالح هؤلاء الثوار . . ورجال العهد السياسى الجديد ، بل ولصالح جمال عبد الناصر نفسه .

وكان أول نشاطها فى هذا الاتجاه الخاص . . تكليف الشاعر بيرم التونسى ليكتب لها أغنية وطنية . باسم جمال عبد الناصر ! ، وقد تصادف أن تذاع هذه الأغنية بعد نجاة الزعيم فى حادث المنشية عام ١٩٥٤ ، ومن بعدها انطلقت كل حناجر فنانى مصر لتغنى للزعيم مع الإشارة إليه بالإسم ! .

هذه المبادرة قد أهلتها من دون أن تدرى لتولى رئاسة أكبر مؤسسة فنية أقامها جمال عبد الناصر لتأييد ثورته والدعوة لأفكاره ! . . وهذا ما سوف نلقى عليه الأضواء المبهرة فى الفصل القادم !

***

أما بالنسبة للفنان محمد عبد الوهاب ، فقد اكتشفنا أنه كانت له محاذيره الخاصة فى التعامل مع الثورة ومع رجالها ، وإن استطاع كعادته استيعاب أحداثها

بشكل سريع . . مما ساهم فى نجاته من ويلاتها التى كانت تنتظره وفق ما كان يظن ! . إذ آثر التريث لأيام أو لأسابيع قبل إعلان الولاء للنظام السياسى الجديد ، حتى يكتشف ويتحسس طريقه جيداً وهو يخطو بأقدامه ناحية مجلس قيادة الثورة كما طلبوا منه ذلك من قبل! وكأنما كان يريد فى الوقت نفسه أن يعرف نتائج إقدام أم كلثوم على إتمام تلك الخطوة من دونه ! ، ولما عرف باختيار الثوار لليلى مراد كمطربة الثورة بدلاً من أم كلثوم . . أحس بالرضا ، وشعر بحُسن ما تصوره ! .

ومما أكد لدينا حرص عبد الوهاب فى التعامل مع النظام السياسى الجديد بحذر شديد وبدون اندفاع مثل أم كلثوم التى طالبها بالتريث هى الأخرى ؛ أنه أخذ يبحث عن شخص وسيط من بين أصدقائه لكى يعرف منه تفاصيل الاتجاه السياسى الجديد . ولمن يجب أن يتوجه إليه بالشكر والولاء والثناء ! ، وقد وجد هذا الصديق فى شخص الكاتب الصحفى الراحل محمد التابعى الذى أشار عليه بضرورة أن يبادر بلقاء زعيم الثورة جمال عبد الناصر . . وليس اللواء محمد نجيب الذى أُعلن وقتها أنه قائد هذه الثورة ! . وبالفعل عمل عبد الوهاب بتلك النصيحة فتوجه لمجلس قيادة الثورة للقاء قائدها الحقيقى .

مما يرويه عبد الوهاب فى أوراقه الخاصة عن ذلك قوله : «عندما رحت أهنىء رجال الثورة وأقابل محمد نجيب الذى كانت تربطنى به صلات عائلية ، نصحنى محمد التابعى أن أقابل جمال عبد الناصر – «البريمو بتاعهم» ، وانتظرت حتى سمعت جلبة على الباب وهرول تسعة أنفار نحو باب مجلس الثورة . . حتى قابلوا شخصاً طويلاً عملاقاً له عينان نافذتان وعاملوه بأكثر من المستوى العادى ، وفهمت إن ده هو اللى عليه العين ، ووجدته يجلس ويخاطبهم هكذا : ما تيجى يا أنور ، تعالى جانبى يا بغدادى ، إقعد ياحسن ، تعالى يا زكريا . . ثم التفت عبد الناصر نحوى وخاطبنى قائلاً : أنت تعرف إنى من أكبر السميعة بتوعك» [1] .

ثم توالت بعد ذلك اللقاءات على قلتها بين جمال عبد الناصر وبين محمد عبد الوهاب . . خاصة بعد ما اطمأن الإثنان لنوايا بعضهما البعض . . ويرى بعض المؤرخين أن هذه الثقة المتبادلة بين الزعيم وبين «مطرب والملوك والأمراء» . . لم تنشأ بين يوم وليلة بل مرت حتى من بعد اللقاء الأول الذى تم بينهما بالعديد من الهزات العنيفة .

---

(١) تاريخ مصر يكتبه أهل الفن – كتاب للمؤلف .

فقد كانت رؤية عبد الوهاب وفق ما نقله المؤرخون والنقاد تتأرجح ما بين التأييد والرفض ، إذ كان يباركها بعقله وفكره ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يستهجن الأسلوب غير الحضارى الذى طبعه فى وجدانه البعض من الذين التصقوا بالثورة وكانوا ينتمون إلى صفوفها الثانية والثالثة .

إلا أن ولائه الكامل للثورةقد بدى بعدما صفا له الجو واطمأن لظهور الرجل القوى الذى إرتاح له عبد الوهاب وشعر بقوة شخصيته وقوة نفوذه . . وفى اللقاء الذى تم بينه وبين عبد الناصر هذه المرة خاطبه الزعيم بشكل مباشر وبإسلوب كان ينم على الألفة والرغبة الصادقة فى التعاون .

ومما ذكره المؤرخون فيما يخص ما تم خلال هذه المقابلة على لسان عبد الناصر قوله : «إننى سعيد أن أراك رأى العين ، وكنت أواظب على سماعك ومشاهدتك على خشبة مسرح رمسيس فى الحفلات التى كنت تقيمها كل شهر على ما أظن» .

وأضاف عبد الناصر بقوله لعبد الوهاب : «بس ثمن التذكرة كان غالى علينا شوية يا أستاذ محمد»!!! .

عندئذ بدأ محمد عبد الوهاب يعيد ترتيب أوراقه الفنية ويعدل من أسلوب تعامله مع الأحداث السياسية حتى يواكب إرادة أصحاب العهد السياسى الجديد . وقد بدى ذلك بوضوح فى سرعة استجابته للمشاركة فى حفلات الثورة الفنية التى كانت تقيمها فى مناسباتها المتعددة . . على الرغم من أن عبد الوهاب كان قد انقطع خلال تلك الفترة عن الغناء وتفرغ للألحان والموسيقى فقط .

وكانت أولى مساهمات عبد الوهاب مشاركته أم كلثوم وعبد الحليم وفريد الأطرش وفنانين آخرين فى حفل سلاح الفرسان الذى أقيم فى عام ١٩٥٤ بحضور جمال عبد الناصر وبقية أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وقد ظل عبد الناصر ليلتها يصفق لعبد الوهاب بالذات طوال هذا الحفل . . عندما كان يغنى وصلته الغنائية «كل ده كان ليه» ! .

ومما يرويه المؤرخون أيضا فى هذه المناسبة أنه عندما ذهب عبد الوهاب لتحية عبد الناصر حيث كان يجلس وسط رجاله ، إحتضنه الزعيم . . وكانت تلك التحية إيذاناً بضرورة الاستمرار مع الثورة وتأييدها بصوته . وتنفيذا لتلك الرغبة التى كان مصدرها الزعيم السياسى الجديد . . شارك عبد الوهاب مع جماهيره فى الحفل الذى أقيم

بميدان عابدين فى ترديد النشيد الذى لحنه بعنوان : «ناصر كلنا بنحبك» ، معلنًا بذلك موافقته على الانضمام مع أم كلثوم رسميًا إلى مؤسسة ناصر الفنية ! .

***

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا : وهل كان فريد الأطرش أيضا من بين الفنانين الذين سارعوا لتأييد الثورة فى أيامها الأولى ؟! وأين كان موقعه ومكانه من ذلك الحدث ؟! .

وأقولها حقيقة لقد بحثت طويلاً عن مصادر مكتوبة أو مروية صادقة تدلنى على بيان ذلك الموقع وردود أفعال فريد الأطرش تجاه الثورة . . فلم أوفق لذلك . . حتى أننى فكرت فى اللجوء إلى بعض النقاد والكتاب الصحفيين الذين عاصروا فريد الأطرش وكانت له معهم صداقات . . من أجل تحقيق ذات الغرض . . ولكننى أثرت ألا تتم تلك الخطوة . . لأسباب كثيرة . . منها على الأقل البعد الزمنى الفاصل بين أحداث ثورة يوليو عام ١٩٥٢ وبين تأليف هذا الكتاب فى عام ١٩٩٩ ! .

ولذلك فقد آليت على نفسى ضرورة قراءة كل ما كتب وكل ما سجله فريد الأطرش حتى أتلمس ذلك الموقع بقلمى . . بحثًا عن المصداقية التى لابد من توافرها فى مجال كتابة التاريخ .

ولشدة الأسف ، لم يكتب لنا فريد حتى فى أوراقه الخاصة عن ردود أفعاله تجاه الثورة . . ولا عن مواقفه حتى الفنية منها . . كذلك لم يفطن أحد إلى ذلك خاصة ممن كانوا حوله حتى ولو على سبيل التدوين ! . ولسوف نتبين ذلك من نص الرسالة التى عثرنا عليها منشورة فى إحدى المجلات وفيها يرد فريد الأطرش على من اتهموه بالابتعاد عن الثورة وعدم مشاركته فنيًا فى الترحيب بأحداثها .

ويبدو أن فريد الأطرش فى هذه الفترة كان ولا يزال متأثرا بصراعاته الغرامية سواء مع من أحبهم أو ممن خانوه من الفنانات أو ممن تمنى أن يتزوجها وهى الملكة ناريمان . . من بعد طلاقها من فاروق ! . كذلك كان ولا يزال يعيش وسط دوامة المرض الذى أصاب قلبه من جراء معاركه الغرامية المتعددة . وحرصه الشديد من جانب آخر على أن يبتعد بنفسه عن السياسة ومشاكلها ، حتى فى ظل العهد الجديد ! .

هذه الرسالة السابق الإشارة إليها . . نشرتها إحدى المجلات فى أواخر عام ١٩٥٣ . . ورد فيها فريد الأطرش على ما آثاره الكاتب الصحفى الكبير محمد التابعى . . بشأن غيابه عن المشاركة فنياً فى تحية الثورة ! .

ولقد حرصنا على نشر هذه الرسالة بكل ما جاء فيها . . لأنها توضح بشكل قاطع ومباشر موقف فريد من الثورة . . كما أنها تجيب على الأسئلة التى قد تدور فى فلك علاقته بالثورة وبرجالها . .

قال فريد الأطرش فى هذه الرسالة :

«عزيزى الأستاذ محمد التابعى - أحييك أطيب تحية وبعد . . قرأت كلمتك التى نُشرت بعدد آخر ساعة بتاريخ ٩ ديسمبر عام ١٩٥٣ . واستلفت نظرى فى هذه الكلمة : قولك عن المطربات والمطربين «إن السينما أبطرتهم وأرباحها ملأت ببطونهم وجيوبهم ، ومن ثم ساقوا التقل والبغددة على محطة الإذاعة إلا إذا أذعنت لشروطهم التى يملونها إملاء» .

وإذا كنت تقصد من كلمتك هذه جميع المطربين والمطربات فقد ظلمتهم بل وظلمتنى أنا بوجه خاص ، فلو أنك عدت إلى الوراء إلى إثنى عشر عاماً مضت لوجدتنى أنا المطرب الوحيد الذى لم يتقاضى مليماً واحداً من محطة الإذاعة عن جميع أغنياتى سواء المسجل منها على شريط واسطوانات مهداة منى للمحطة إرضاء لجمهورى الكريم .

ويرجع ذلك إلى خلافى مع المسئولين عن الإذاعة فى العهد السابق حول الأجر الذى أستحقه ، فقد كان هناك خيار وفاقوس ، وهو أمر معروف لكل إنسان ، بل لعل هذا هو السبب الذى جعل الناس ينظرون إلى برامج الإذاعة على أنها برامج ثقيلة الدم ، فقد كان المسئولون عن الإذاعة فى العهد السابق لا يرضون أن تتعامل مع الإذاعة إلا إذا أذعنت لشروطهم ، وقد رفضت أنا هذه الشروط التى كانت تمليها الإذاعة إملاء ، وأهديتها ألحانى فلم يكن هدفى الإستفادة المادية أبداً ، بل كان هدفى الوحيد هو أن أحرص على كرامتى الفنية وليس فى ذلك أى غبار .

إذا احتجت يا صديقى إلى دليل آخر على أننى لا أضع الإذاعة فى حسابى . . كوسيلة للرزق ، فإننى أسمح لنفسى أن أنقل إليك طرفاً من الحديث الذى دار بينى وبين السيد صلاح سالم وزير الإرشاد حين قابلته فى مكتبه بوزارة الإرشاد ، وفاتحنى فى مسألة الإذاعة فأبديت لسيادته استعدادى التام لأن أغنى بلا أجر بشرط أن يكون التقدير المادى للفنانين ليس معناه إغداق المال على أشخاص معينين دون غيرهم ، فكم من ثروات ضخمة جمعها هؤلاء المطربين والمطربات من المحظوظين من الإذاعة فى العهد السابق ، ودليل ثالث أسوقه إليك على أنه ليست لى مطامع مادية

من وراء الإذاعة ، فقبل أن تنشر كلمتك هذين بإسبوعين ، كنت أهديت الإذاعة أغنية وطنية بعنوان «البعث الجديدة» وهى من تلحينى وغنائى ، وانتهيت من تسجيلها وسوف تذاع الشهر القادم . . وقد أشارت الصحف إلى ذلك . . ولم يكن تبرعى بهذه الأغنية إلا تمشياً مع روح العهد الجديد ، عهد النهضة والتعاون .

وكم كنت أود يا صديقى أن تتناول فى كلمتك سوء معاملة أصحاب النفوذ فى الإذاعة فى العهد السابق للفنانين الذين لا تربطهم بهم صلات صداقة ، وليس هناك تبادل منافع بينهم ، وكم كان جميلاً لو أنك كشفت الستار عن بعض المآسى والمخازى التى كانت ترتكب فى العهد السابق ما دام هدفك من الكتابة عن الإذاعة هو المساهمة بقلمك فى إصلاحها .

هذا ما كنا ننتظره من كاتب كبير مثلك عُرف بكراهيته للظلم ومحاربته للظالمين . وأنه وغيرك من كبار الكتاب والنقاد تستطيعون أن تنصفوا الفنان فى هذا البلد وتمدوه بكلمات التشجيع والثناء ولا تحرموه من التقدير الأدبى الذى هو عنده أثمن بكثير من التقدير المادى . أما أن يظل كبار النقاد والأدباء على سياستهم منذ عرف النقد فى مصر . . وهى البخل إلى حد الشُح فى كلمات التقدير ، والسخاء إلى حد الإسراف فى النقد المرير ، فهو عمل أعتقد أنه لن يرضيك مطلقاً .

وأعود يا صديقى فأكرر بأننى ما زلت عند استعدادى للغناء بلا أجر على أن تكون هناك مساواة . ولا شك أن زملائى من كبار المطربين لن يترددوا فى سلوك هذا السبيل على أن نرصد أجورنا لمعاونة المطربات والمطربين والموسقيين فى تحسين حالتهم ورفع مستواهم الأدبى والمادى ، ولا أظن أن أحدا يطلب منا أكثر من ذلك . . كما أننى ما زلت أنتظر اليوم الذى أرى فيه كتاب مصر اللامعين لا يبخلون بكلمة تقدير للفنان المصرى .

وفى الختام تقبل تحياتى – فريد الأطرش .» .

وبصرف النظر عما أثاره فريد فى هذه الرسالة . . نجد أنه حتى فى مذكراته لم يحفل كثيراً بالحديث عن علاقاته بالنظام السياسى الجديد . . مما أعطى فرصة كبيرة لخصومه داخل شارع الفن لكى يكيدوا له عند رجال العهد السياسى الجديد ، ولم يشفع له عندهم مجموعة الأغانى الوطنية التى كان يقدمها بصوته سواء فى الحفلات العامة أو فى تسجيلات الإذاعة نظراً لتأخر ردود أفعاله تجاه الثورة بسبب مشاغله العاطفية وصراعاته مع قلبه ! .

هذا الموقف من جانب فريد الأطرش ، وما قابله بدون قصد من رجال العهد الجديد ترك فى نفسه عقدة الاضطهاد . الأمر الذى جعله كثيراً ما يترك مصر ويعيش فى لبنان التى نقل إليها معظم أعماله الفنية .

ومع مرور الأيام ، ومع اكتشاف جمال عبد الناصر لوطنية وقومية وحب فريد الأطرش لمصر . . كرمه فى عام ١٩٧٠ بمنحه وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى ، وكان بذلك الفنان الثالث وسط هؤلاء الأربعة الذى نال هذا التكريم إذ سبقه إليه كل من عبد الوهاب وأم كلثوم ! . كما تقرر فى الوقت نفسه ضمه لمؤسسة ناصر الفنية التى كانت ترأسها وتديرها كوكب الشرق أم كلثوم ! .

***

وإذا كان الثلاثة الكبار أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش قد إصطدموا مع الثورة فى أولى أيامها وشهورها ، فإن فناناً مثل عبد الحليم حافظ ، كان بعيداً كل البعد عن آفاق ذلك الصدام ومساره ، وذلك بحكم تواجده خارج نطاق الشهرة آنذاك ! .

ولحظه الطيب ، كانت الثورة وأحداثها . . فألاً حسنًا عليه وعلى مشواره الفنى . . أذ بدأ نجمه الفنى فى البزوغ فعلاً مع بداية أحداثها ! . الأمر الذى جعل الطريق أمامه ممهداً للتوغل بداخلها خطوة وخطوة والاقتراب من رجالها بنفس الخطوات ، وكان ذلك التوقيت ذاته ، هو بداية إلتحاق هذا الفنان بقطار العمالقة الكبار والذى سبق وركبه الثلاثة الآخرون ! .

إن مشوار عبد الحليم حافظ الفنى وفق ما سطره هو من كلمات ووفق إجماع المؤرخين قد بدأ فعلاً فى عام ١٩٥٣ ، وإن كان نشاطه الفنى كعازف وكمطرب فى الإذاعة قد بدأ قبل ذلك بأشهر قليلة . عندما قدمه صديقه الموسيقار كمال الطويل لحافظ عبد الوهاب مراقب الموسيقى والغناء فى الإذاعة فى ذلك الوقت . . كمطرب بعدما نجح فى تعيينه بالإذاعة من قبل كعازف على آلة الأبوا . .

وأمام لجنة الإستماع التى قلد عبد الحليم أمامها أستاذه محمد عبد الوهاب تم اعتماده كمطرب بالإذاعة فى عام ١٩٥٢ ، ومن يومها بدأ يغنى فى كل أركان الإذاعة المتخصصة ، إنتظاراً للفرصة التى يحقق من خلالها أحلامه .

وفى شهر أغسطس من عام ١٩٥٢ . . أى بعد شهر واحد فقط من قيام الثورة . . وعلى حد قول الناقد الفنى الراحل محمد السيد شوشة ، شارك عبد الحليم ولأول مرة فى حفل عام كمطرب ، إلا أنه قد صادفه الفشل ، الأمر الذى أثر على نفسه تأثيراً كبيراً ، مما جعله يراجع ترتيب أوراقه ، ويفكر كيف يقنع الجماهير بموهبته كمطرب متميز .

ومع بدايات عام ١٩٥٣ بدأ نجمه يتألق على إثر نجاحه فى الحفلات الكثيرة التى كانت تقيمها الثورة فى أعياد التحرير ! ، ومما يذكره المؤرخون فى هذا السياق أن أول حفل أقيم بقاعة الإحتفالات الكبرى بأرض المعارض المواجهة لمجلس قيادة الثورة فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٣ ، كان بالفعل هو بداية انطلاق عبد الحليم فى سماء النجومية . . خاصة ذلك الحفل الذى جمعه بأساطين الفن من زملائه من الكبار . . خاصة أم كلثوم وعبد الوهاب .

ثم واصل نجم عبد الحليم الصعود فى سماء الفن شهرا بعد الآخر . . مستغلاً فى ذلك الجو الفنى الذى انتشر فى أجواء مصر تحت رعاية رجال الثورة . وكانت وجهته ومبادئه الفنية وفق تصوره لا بد وأن تقوم على الأغنية الوطنية والتغنى بالزعيم الجديد ! .

وقد أراد بذلك تقليد زملائه الكبار من الذين سبقوه إلى نفس الأهداف ، إلا أنه تفوق عليهم خاصة أدائه العاطفى الذى غزا هذه الأغنيات . . مما لفت إليه أنظار كل القائمين على الفنون إلى جانب رجال الثورة أنفسهم !

وبالتالى فقد بدأت أغانيه تذاع باستمرار من محطات الإذاعة كما أصبح مشاركاً أصيلاً فى معظم الحفلات الغنائية الرسمية . وبدأ المتعهدون للحفلات الخاصة يقبلون عليه .

وكان عبد الحليم ينتهز المناسبات الوطنية للتعبير بالمزيد عن حبه وولائه ليس فقط للثورة بل ولزعيمها جمال عبد الناصر . حتى صار يمثل الضلع الرابع داخل المربع الذهبى لهؤلاء الكبار الذين اتخذوا من كلماتهم فى مدح الزعيم سبيلا لتأكيد الوجود والاستمرارية ! . . هذه الوطنية التى إصطبغت بالعاطفة والحنان فى صوت عبد الحليم . قد أهلته فعلاً للإنضمام مبكراً إلى مؤسسة ناصر الفنية التى بدأت تمارس نشاطها بكثافة . . خاصة بعد حادث المنشية الذى وقع فى عام ١٩٥٤ .

وكان لابد من خطوة أخرى يخطوها عبد الحليم حافظ لتأكيد الولاء لرجال العهد الجديد وللزعيم عبد الناصر . فقد سعى فعلاً للقاء بعض ضباط الثورة والاقتراب من سلطانهم ، وعبد الحليم حافظ قد روى لنا فى مذكراته التى نشرها الزميل منير عامر جانبًا من هذا السعى حين قال على لسان الراوى : إن ميعاداً تحدد له مع ضباط الثورة ، وكانت قد جمعت بينه وبين محى سالم الشقيق الأصغر لصلاح سالم وجمال سالم ، وكانا آنذاك من أبرز الضباط الأحرار وأعضاء مجلس قيادة الثورة ، كما التقى عبد الحليم مرات عديدة بصلاح سالم والذى حدد له موعداً مع بقية زملائه من الضباط . . وبالفعل ذهب عبد الحليم إلى مجلس قيادة الثورة فى الموعد المحدد ، وهناك استقبله الدكتور عبد القادر حاتم الذى كان آنذاك ضابطاً بالجيش ، ثم قام صلاح سالم بتقديم عبد الحليم إلى جمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر وأنور السادات وبقية الأعضاء . وعرف عبد الحليم فى هذا التوقيت أن اللواء محمد نجيب الذى كان يرأس مجلس الثورة ، ليس هو قائدها ولا قائد هؤلاء الضباط . ولما صافح عبد الحليم جمال عبد الناصر أحس فيه شخصية جذابة ، وقد تحدث إليه وهو يودعه قائلا «إنت ابن الثورة وابن هذه الفترة . . وأنت فنان شاب ومخلص لبلدك ، كما أننى أعرف ما وقع لك فى بداية طريقك الفنى خاصة فى حفل الإسكندرية ، إن الناس لا ترفضك ، وأنت لست فاشلاً . . ولكنك أسلوب جديد فى الأداء» .

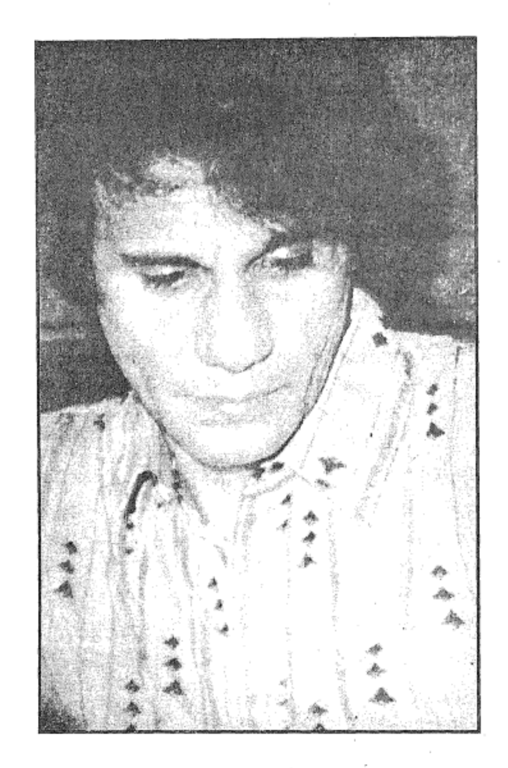




● فى أى شىء يفكر عبد الوهاب !!



● المستقبل يداعب أحلام فريد.. بعدما هاجر إلى لبنان



● وهو الآخر يفكر بعد طول نجاح

الفصل التاسع

مؤسسة ناصر الفنية بزعامة أم كلثوم..

حدثنا التاريخ طويلاً عن ثورة يوليو وأهدافها ومبادئها وأخطائها . . ولا يزال صدى ذلك الحديث مستمراً إلى الآن . كما شمل الحديث أهم الشخصيات السياسية والعسكرية التى ارتبطت بتلك الثورة سواء من قريب أو من بعيد . . وما قرأناه فى هذه المصادر التاريخية سواء المكتوبة أو المروية رأينا فيه إجماع - يكاد يصل إلى حد اليقين وإنعدام الخلاف فيه - على أن جمال عبد الناصر هو زعيم تنظيم الضباط الأحرار ، وبالتالى فهو زعيم هذه الثورة . ولم يكن اللواء محمد نجيب سوى واجهة محترمة يقف ورائها هؤلاء الضباط صغار السن ! . كذلك استطاع جمال عبد الناصر بعدما تأكدت له كل الأمور ودانت له مقاليدها فى بديه ، الانفراد بالسلطة بدءاً من عام ١٩٥٤ ، إلا من أنصار اصطفاهم لنفسه بإختيار دقيق .

ومنذ ذلك التاريخ أخذ الرجل يرتب حساباته عديد من المرات حتى استقربه المقام فوق كرسى حكم مصر ، وبالتالى أخذ ينفذ سياسات عدة قامت فى البداية على تحقيق مصلحة مصر التى أحبها وكذلك حبه لشعبها الذى وثق فيه ، وكان عبد الناصر آنذاك يحمل بداخله نوايا طيبة ، كما كان هدفه الأول والأخير هو الوصول بمصر التى تسلمها وهو شاب فى الأربعينيات من عمره ، إلى غايات خيالية كان يراها كثيراً فى أحلامه . ولكنه وللأسف لم يتمكن من تحقيقها فى الواقع !! . وقد حاول أن يقنع بقية زملاءه بالسير معه فى طريق الأحلام ، بلا جدوى . . حتى استسلم هو الآخر للفشل وبالتالى ضاعت منه هذه الأحلام . .

إن الشواهد التاريخية التى اطلعنا عليها أكدت أن هذا الرجل وبعد مرور الأيام والشهور الأولى من توليه حكم مصر ، قد أراد أن يسير وفق المبادئ الثورية التى شارك فى صياغتها ، هو وزملائه ، وذلك من أجل تحقيق شىء طيب لمصر . . ، إلا

أن الصواب قد جانبه فى أشياء كثيرة . . على الرغم من تركيزه العام على تقوية الجيش لعلاج أخطاء ما قبل الثورة . .

وما حدث لقواتنا وجيشنا فى حرب عام ١٩٤٨ ليس ببعيد عن الأذهان . . لذلك . ونراه قد وفق فى تلك الخطوة إلى مدى بعيد . . حتى شعرنا بأن لدينا بالفعل جيش قوى يحترمه العالم . . الذى بات لا يتعامل إلا من منطق القوة ، ولأسباب لا نعرفها حتى هذه اللحظة ورغم ما قيل عن هذه الأسباب . . تعرض ذلك الجيش لحالة إنكسار شديدة . . وبعد أقل من عشر سنوات من أحداث عام ١٩٥٦ ! .

وتظل سطور التاريخ المكتوب أو المروى تنقل إلينا وإلى الأخرين إنجازات هذا الرجل سواء الصائبة أو الخاطئة فى كل الميادين . . إلا ميدان واحد فقط ! . هذا الميدان الذى لم يلتفت إليه غير فئة قليلة ونادرة من المؤرخين . . ذلك لأن عبد الناصر لم يكن يوليه رعايته العلانية . . وكذلك كان كل أعضائه من الجنود المجهولين على الأقل لقطاع عريض من المحيطين به ، والميدان الذى نقصده هو ميدان الفن !! . الذى كان يتبع عبد الناصر شخصيا . حيث كان يملى على كل المشتغلين به . . أوامره فى صيغ طيبة وكلمات مقبولة ، كانت تناسب طبيعة هؤلاء الجنود من الفنانين . حيث النفس رقيقة الحس والمشاعر المرهفة ! .

وكان الهدف الاكبر الذى خطط عبد الناصر لتنفيذه كمهمة رئيسية للفن فى عهده هو الدعوة لمبادئ ثورته . . والتستر على أخطائه ، والتغنى بإنجازاته ، بل وبشخصيته هو فقط ! وكان فى مقدمة تلك الفنون التى رعاها عبد الناصر شخصياً . . فن الأغنية والألحان . إذ كان يحرص حتى وهو لا يزال عضواً فى مجلس قيادة الثورة على حضور حفلات الفنانين التى كانت تقام بمناسبة وبغير مناسبة ، وبمشاركة مجموعة كبيرة من زملائه من الذين أقنعهم بذلك فى حينه .

وفى تصورنا أن جمال عبد الناصر . . وبما كان يتمتع به من ذكاء فطرى قد قرر بينه وبين نفسه حتى من قبل الفوز بحكم مصر . . ضرورة الاهتمام بلا علانية وبلا أجهزة رسمية بمجالين أساسين لخدمة أهدافه . . هما الصحافة والفنون ! فنراه بالنسبة للمجال الأول قد كون ما يسمى الآن بالهيئة العامة للاستعلامات . . ثم

وزارة الإعلام . . أما بالبسنة للفنون فقد أنشأ العديد من الهيئات الرسمية وغير الرسمية لرعاية تلك الفنون مثل وزارة الإرشاد القومى ووزارة الثقافة .

وبالنسبة لحديث الصحافة وتطورها وأهميتها لعبد الناصر ولثورة يوليو فقد تناولها بالحديث العشرات غيرنا ، وكان من أبرزهم محمد حسنين هيكل الذى كُلف برعاية ذلك المجال بشكل رسمى . . كما كان له الفضل الأكبر فى إتمام خطوة عبد الناصر فى اتجاه تأميم الصحافة وتحويلها إلى مؤسسة تابعة للدولة ! .

أما عن الفن والفنون عامة ، وفن الأغنية والطرب والألحان بشكل خاص فقد كان الزعيم والرئيس ينظر إليها وإلى كل العاملين بها من منظور بعيد . . قام فى الأساس على رعايته غير المباشرة لهذا المجال ، وإن اتخذ نفس الخطوات فى تأميم مجالاً فنياً آخر مثل السينما والمسرح . .

لقد آمن عبد الناصر بأن فن الأغنية وما يرتبط بها من فنون أخرى ، لا يمكن إخضاعه لأى شكل من أشكال تدخل الدولة ! . وبالتالى لا يمكن إخضاعه مباشرة لسلطات المؤسسات أو سلطات الأوامر العلنية التى تستلزم إدارات وأجهزة خاصة وكذلك موظفين !

من هنا نجد أن عبد الناصر قد أولى برعايته غير الرسمية فن الأغنية . . وأيضا كل المشتغلين فى ميدانها ! . حتى قيل أنه كثيراً ما كان يتدخل لصالح فنان أو لإقناع مؤلف بكتابة أغنية لمطرب أو تلحينها إذا ما كان يحبه ! . . وقد أراد من وراء ذلك صياغة فن الأغنية وفق أهوائه الشخصية والسياسية حتى تكون وقت الأزمات طابوره الخامس الذى يرهب به كل أعدائه .

ولقد أثبتت الأيام مدى نجاح عبد الناصر وفق هذه الرؤية . . والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة . . ففى الوقت الذى انهزمنا فيه عام ١٩٥٦ ، طلع علينا من يقول «انتصرنا» ! . وكذلك نفس الشيء حين وقعت كارثة عام ١٩٦٧ فقد لعبت الأغنية دورها فى استعادة صورة الزعيم أمام جماهيره وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل ! .

ولحظ عبد الناصر السعيد . . كان معظم الفنانين والفنانات من الذين استعان بهم لإدارة مؤسسته الغنائية والفنية ، فى حاجة ماسة لمثل هذه الرعاية . . حتى

يتخطوا حاجز الخوف الذى هزهم بشدة مع الأيام الأولى للثورة ! . وحتى من لم يكن منهم فى حاجة إلى تلك الرعاية . . فقد أصابه الحظ الطيب حين عرف بأنه من الداخلين فى زمرة الزعيم والقائد الذى بات يخيف كل من كانوا حوله . . خاصة عندما بدأت تلك الممارسات غير المشروعة وظهور أساليب الإرهاب التى اتبعها بعض رجاله لإخضاع الجميع ! .

وقد وقع إختيار عبد الناصر فى البداية على ثلاثة من هؤلاء الأربعة الكبار . . لكى يكونوا نواة لما كان يحلم به آنذاك . . وهم عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش .

وكما نعرف فقد بدأت علاقته بهم بوضع العراقيل والمصاعب فى طريق حياتهم سواء الفنية أو المعيشية . وكان يتدخل فى الوقت المناسب لحل مشاكلهم حتى يبدو أمامهم الملاك المنقذ ! . الأمر الذى جعل بعضهم يلجأ إليه لحل المزيد من المشاكل ، وكانت تلك بداية السيطرة على هؤلاء وقيادتهم إلى حيث يريد! ، كما كانت فى الوقت نفسه بداية الإعلان غير الرسمى عن تكوين مؤسسة ناصر الفنية غير العلانية !! .

ونستطيع أن نؤكد فى هذا السياق أن أعوام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ وحتى بدايات عام ١٩٥٦ ، كانت بحق فترة إختبار لهؤلاء الفنانين . . بل ولجميع الفنانين بلا استثناء ، وإن كانت لهؤلاء الأربعة بالذات معاملة خاصة ، نظراً لما كانوا يتمتعون به من شهرة وما كانوا يعيشون فيه من حالة نفسية قاسية فيما عدا عبد الحليم حافظ .

ولقد خيب هؤلاء الثلاثة ظنون كل من كانوا حول عبد الناصر من رجاله الذين راهنوا عليهم وعلى مواقفهم ضد الثورة . إذا استطاعوا بسرعة أن ينخرطوا بداخل الأوضاع السياسية الجديدة . وبالتالى باتوا ينفذون ما يطلب منهم مهما كان صعباً أو غير ميسور أو حتى لا يتمشى مع انتماءاتهم السابقة ! .

هذا الناجح ، هو نفسه الذى أعطى انطباعاً قويا لدى عبد الناصر وبشكل شخصى بإمكانية قيام هؤلاء الكبار بدور عظيم لخدمة أهدافه من خلال ما يضعه من خطط سرية أو علنية . . لكى تنفذها مؤسسة الفنية . بدءاً من الدعوة لأفكاره ودعم أعماله والترويج لمبادئه ومشروعاته خارج مصر ، حتى من بعد ظهور ما عرف

باسم الناصرية . . وما كانت تحمله من المدلولات الغامضة التى لم يكن يفهمها إلا من كان يدعون إليها .

ولم تكن مؤسسة ناصر الفنية وحدها قاصرة آنذاك على أداء الأغانى والألحان . . بل ساندتها السينما والمسرح والفنون التشكيلية . مع أن بداية نشاطها المكثف كان يتم أيضا من خلال كلمات الأغانى ووضع الألحان .

وكان ترحيب هؤلاء الأربعة بالإسراع للإنضمام إلى هذه المؤسسة بمثابة تشجيع لغيرهم من فنانى مصر والعرب للإلتحاق بها طواعيه أو مرغمين . . كما كانت هناك عشرات المكافآت التى بدأت توزع على أعضاء هذه المؤسسة إما فى صورة جوائز أو أوسمة ونياشين . . من أجل تحقيق المزيد من الجذب والتشجيع والإنتماء .

ولقد حاول جمال عبد الناصر إضفاء الصفة الرسمية على نشاط تلك المؤسسة وذلك من خلال اختيار بعض أعضائها للقيام ببعض المهام السياسية أو تولى بعض المناصب . مثلما تردد عن إختياره لأم كلثوم لكى تتولى منصب إحدى الوزارات .

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا . . ولماذا وقع إختيار عبد الناصر على أم كلثوم من دون غيرها من الأربعة الكبار . من أجل أن تقوم بهذه المهام سواء الفنية أو السياسية والخطيرة وفق تصوره ؟! . ورغم أن أحداً من المؤرخين لم يحاول وضع إجابة وافية على السؤال نفسه ، فقد حاولنا أن نجتهد كثيراً للوصول إلى بعض كلمات أو عبارات توفى بهذه الإجابة .

فأم كلثوم لاشك كانت تتمتع من دون غيرها بالقدرات العديدة سواء الظاهر منها أو الباطن ! . إلى جانب تاريخها الوطنى المشرف ، وقد وضع عبد الناصر ورجاله أيديهم على تفاصيل ذلك التاريخ بكل ملامحه ! أما عن هذه الأسباب فربما ترجع إلى تلك العلاقة الخاصة جداً بين عبد الناصر وبين أم كلثوم ! . هذه العلاقة التى تولدت مع الأيام الأولى وفى ضوء المحن والمصاعب التى تعرضت لها . . أضف إلى ذلك قناعة عبد الناصر بجماهيرية أم كلثوم التى يمكن أن تسانده على الأقل فى بداية مشواره لإختراق قلوب وصدور الجماهير التى كانت ولا زالت تعيش بولائها فى اتجاه العصر الملكى ورجاله وألوان فنونه ! .

***

إن السير خطوة خطوة داخل الدائرة التى انحصرت فيها أهم أعمال أم كلثوم فى الفترة من عام ١٩٥٤ وحتى وفاة عبد الناصر عام ١٩٧٠ ، سوف يبين لنا المزيد من تلك الأسباب واستكمالاً للإجابة على السؤال السابق ! . .

ولأجل التنوية نود أن نشير فقط إلى إننا قد خصصنا من قبل كتابى الذى صدر منذ فترة وفيه ألقينا الأضواء المبهرة على خصوصية العلاقة بين أم كلثوم وبين جمال عبد الناصر . . واخترنا له عنوان «عبد الناصر وأم كلثوم - علاقة خاصة جداً» . .

ولقد عرفنا من قبل أن أم كلثوم وبذكائها الفطرى . . قد وضعت أيديها بسهولة على زعيم الضباط والأحرار وبالتالى زعيم ثورة يوليو حتى من قبل الإعلان عن ذلك رسمياً ! . كما أن شعور أم كلثوم المبكر بهذا التوقع قد جاء فى محله ، وكذلك شعور جمال عبد الناصر الذى رأى فيها الشخص الذى كان يبحث عنه لأداء المهام التى يتصورها لصالحه ! .

وحتى نظرة عبد الناصر لفنان مثل عبد الحليم حافظ ، والذى وجد فيه روح الشباب والثورة والعهد الجديد ، لم يصرفه عن زعيمة الفن سيدة الغناء العربى أم كلثوم والتى كانت آنذاك صاحبة النفوذ والسطوة والجماهيرية العالية .

وقد يكون من الأسباب القوية الأخرى التى دفعت عبد الناصر لوضع أم كلثوم على رأس مؤسسته الفنية . . نفس الظروف السياسية المعاكسة التى بدأ فى مواجهتها مبكرا سواء على المستوى الداخلى أو الخارجى .

لقد كانت أصعب الفترات السياسية داخليا والتى واجهها عبد الناصر من بعد توليه حكم مصر . . هذه المواجهة العنيفة مع الأخوان المسلمين . . مما عرضه لحادث اغتيال فى ميدان المنشية فى أكتوبر عام ١٩٥٤ . . وهو الحادث الذى ما يزال لم يحسم بعد بين غالبية المؤرخين . فمنهم من يعتقد أنه كان تمثيلية أدارها عبد الناصر ورجاله بإقتدار للتخلص من الأخوان ومن اللواء محمد نجيب فى نفس الوقت وفريق آخر يقول إنها واقعة حقيقية وقد أصابها الفشل ! .

وكما يقول المثل العربى . . «فإن مصائب قوم عند قوم فوائد» ؛ حيث كان ذلك الحادث هو الفرصة الحقيقية لأم كلثوم لأداء دورها الذى أحست به من نظرات عبد الناصر ومن توجيهاته غير المعلنة ! . ولذلك كانت من أول المبادرين للتعبير عن فرحتها لنجاة الزعيم ، هذه الفرحة التى ترجمتها إلى كلمات أخذت تشدو بها طويلاً ، وأخذ الناس من ورائها يتغنون بها بالليل والنهار ! .

ومما يقال فى هذا السياق أن كوكب الشرق أم كلثوم وفور علمها بهذا الحادث . . وبعد الإعلان عن نجاة عبد الناصر . . اتصلت بالشاعر بيرم التونسى الذى كان هو الآخر ينتظر مثل هذه الفرصة للتعبير عن ولائه للنظام وللرجل الجديد . . بعدما اتهموه ظلماً بأنه شاعر العهد الملكى ! ، واستجاب بيرم بمشاعره وبكلمات أشعاره فكتب لأم كلثوم أول أغنية وطنية يذكر فيها اسم عبد الناصر صراحة وجاء فى مطلعها :

يا جمال يا مثال الوطنية   أجمل أعيادنا الوطنية

ثم عهدت بالقصيدة إلى ملحنها المفضل آنذاك رياض السنباطى . . وكانت تلك بحق بداية تمجيد الحاكم فى فنوننا الغنائية منذ مطلع العصر الحديث ، وقد استمر ذلك التقليد فترة طويلة حتى الأيام الأولى من حكم الرئيس مبارك .

ولعلنا نتصور أن أهمية هذه الأغنية ترجع فى الأساس إلى أنها كانت دعوة شبه رسمية لكل الفنانين بضرورة الاحتفاء بالزعيم الجديد إسماً صريحاً من دون تلميح . . ثم التغنى بأعماله وبإنجازاته .

وبحق أيضا فقد لعبت هذه الأغنيات دورها البارز فى تأكيد صورة عبد الناصر فى نفوس الناس إلى جانب وسائل أخرى كثيرة تأرجحت ما بين الترغيب والترهيب ! ، كما كانت أم كلثوم فى الوقت نفسه بوق الإعلام شديد التأثير لنشر كل أفكاره ومشروعاته وطموحاته ! .

ومن بعد قصيدة «ياجمال يا مثال الوطنية» تدفق نهر الأغنيات الوطنية سواء التى سجلتها أم كلثوم أو غيرها من هؤلاء الأربعة . . وكان من أهم ما شدت به كوكب الشرق داخل هذا النهر الوطنى أغنيات «والله زمان يا سلاحى» - «محلاك يا مصرى» - «طوف وشوف» وغيرها من هذه النوعية من الأغنيات .

إلى جانب ذلك لم تغفل أم كلثوم الجانب النفسى والإنسانى فى حياتها تجاه عبد الناصر . . وقد بدى بذلك بوضوح حتى فى أغنياتها العاطفية التى كانت تفضل إذاعتها من خلال حفلاتها عقب إلقاء خطاب سيادة الرئيس بالإذاعة ! .

بل وتجلى الجانب الإنسانى فى حياة أم كلثوم تجاه عبد الناصر فى أكثر من مناسبة . . وكان على رأس ذلك ما سبق ونوهنا عنه بخصوص استقبالها له ولزملائه فى ڤيلتها سواء من قبل الثورة أو من بعدها ! .

والموقف الثانى والأكثر تأثيراً فى حياة عبد الناصر . عندما أحاطت أسرته برعايتها وقت حدوث العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ . . وقد قيل فى هذا الشأن كلام كثير . . فقد قيل . . أن عبد الناصر قد اختار أحد قصور حى الزمالك الهادئ لكى تقيم فيه أسرته وأولاده وقت العدوان ، وحتى لا يكونوا عرضة لأى خطر ! ، وتصادف أن يكون ذلك القصر قريب أو ملاصق أو أمام أو خلف ڤيلا أم كلثوم ! .

وقد ظلت أسرة الزعيم وتحت رعاية أم كلثوم شخصياً حتى انتهاء أيام العدوان وعودتهم إلى منشية البكرى مرة أخرى ، ومن ذلك اليوم ظلت أم كلثوم على علاقة أسرية خاصة بالزعيم وبزوجته وبأولاده حتى أيام وسنوات طويلة إمتدت إلى ما بعد موت عبد الناصر نفسه .

ولم يتوقف الأمر بالنسبة لأم كلثوم وعلاقتها بعبد الناصر عند هذا الحد بل خرج عن نطاق الخصوصية إلى نطاق الخدمة والعمل على رعايته شخصياً وعلى الملأ ! .

ففى فترة حرب عام ١٩٥٦ نفسها . . بذلت أم كلثوم جهداً فنياً جباراً للوقوف إلى جانب جمال عبد الناصر الذى كانت تهاجمه قوات عسكرية لثلاث دول هى إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ! . . هذا الجهد الفنى كان لابد منه لوقوف الشعب بجواره فى أول ما مر به من محن صعبة واختبارات قاسية ! . .

ولأهمية ما قامت به أم كلثوم آنذاك فقد تعمدت أن تذكره فى أوراقها الخاصة . . ومما قالته فى هذا السياق : . . «فى عام ١٩٥٦ كانت صفارات الإنذار تطلق منذرة بالغارة ، أخرج إلى الشرفة حين يجب أن أختبئ ، وأبحث عن

الطائرات فى سماء القاهرة وأتمنى لو تطولها يدى . وأراقب بفرحة طفولية مدافعنا وهى تحاصرها وتجبرها على الفرار أو الإختفاء فى أعلى طبقات الفضاء . . فرحة يلهث لها صدرى ، وأنا أردد دعاء النصر . .» . .

ثم عادت تقول فى موضع آخر : «لقد طلبت فى عام ١٩٥٦ من الموسيقار كمال الطويل أن يلحن لى نشيد «والله زمان يا سلاحى» ، ولما انتهى من تلحينه ، بدأنا الإتصال بالموسيقيين ليذهبوا إلى الإذاعة فى الشريفين لتسجيل ذلك النشيد ، لكن أكثرهم رفض الذهاب إلى هناك ، لأن إذاعة إسرائيل كانت تهدد بضربها بعدما أصابت إذاعة أبو زعبل ، وقلت لهم إننا لو لم نسجل النشيد فى القاهرة فسوف أسجله فى بنها أو أسيوط ، وطلبت ستديو مصر واتفقنا على تسجيله هناك» .

ولسوف نعرف من بقية ما تذكره أم كلثوم . . أنها لم تكن وحدها المهمومة بتنفيذ هذه المهمة ، بل كان عبد الناصر يشاركها هذا الهم ، بدليل أنه سمح لأم كلثوم بأن تستخدم سيارته الخاصة فى المرور أثناء الحظر المرورى بسبب حظر التجول وسبب غارات العدو! .

ومما قالته أم كلثوم عن ذلك : «الدنيا ليل وظلام ، ولكن لا خوف ، بل بثقة وإيمان وحماسة تبدد كل ما تردد . . أرسل إلىّ الزعيم عبد الناصر سيارته الخاصة ، وكان يقودها سائقه الخاص . . هذا جواز مرور أكيد المفعول ، لأن المرور كان ممنوعاً ، وكان معى فى السيارة المهندس محمد الدسوقى ابن شقيقتى ، وكمال الطويل والسائق لا يريد أن يتوقف فهو سائق الزعيم . . كيف يستوقفه الجنود ؟! على أنه كان يضطر للوقوف حين أقول له من داخل السيارة قف ، ولا يكاد يقول من هو حتى ترتفع أيدى الجنود له بالتحية ويفتح له الطريق . . وسجلنا النشيد الذى بقى ليسجل للأجيال . . وأصبح من بعدها نشيد المعركة العربية على كل أرض عربية . . والنشيد الوطنى لمصر . .» .

وكان لهذا النشيد كما يقول العديد من النقاد تأثير السحر على الجماهير التى أعلنت تأييدها للزعيم فى ورطته مع هذه الدول الكبرى ، حتى تجرأ عبد الناصر وكل من كانوا حوله على تحويل الهزيمة إلى نصر مبين ، وقد صدق ذلك كل الناس . . إلا أن الحقيقة لا تموت أبداً . . إذ جاء اليوم الذى عرفنا فيه حقيقة هذا الانتصار الذى لم يخرج عن نطاق الحناجر وكلمات الأغانى ! .

وظلت أم كلثوم تسير وفق هذا المنهاج لسنوات طويلة . . حتى أخذت تبارك بكلمات أغنياتها كل ما يقوم به عبد الناصر من أنشطة سياسية أو اقتصادية فى الداخل أو فى الخارج . . حتى بات الناس لا يعرفون تأثير ذلك الحدث أو ذاك إلا من خلال حنجرة أم كلثوم ! .

ولم تكن هذه الفنانة العظيمة تسأل نفسها هل ما يقوم به زعيمها صحيح أم خطأ ! . . حتى تورطت معه فى تحمل مسئولية هزيمة عام ١٩٦٧ وفق إجماع المؤرخين . . لأنها كانت من المشاركين فى التستر على أخطاء ذلك الزعيم التى كشفتها هذه الهزيمة الخطيرة .

وحين عرف الجميع بهذه المصيبة الثقيلة التى لم تتمكن وسائل إعلام عبد الناصر ولا حتى مؤسسته الغنائية والفنية من أن تخيفها أو تخفى آثارها . . وبعد أن قرر الزعيم المجروح التراجع عما أعلنه بشأن إعتزاله الحكم والرئاسة والزعامة . . كان لابد من إعادة التخطيط الجيد لأدوار المؤسسات على الأقل التى كانت تتعامل مع الجماهير ، وقد نشط عبد الناصر ومن تبقى معه من الرجال لإنعاش دور هذه المؤسسات من جديد . . وكان على رأسها بطبيعة الحال مؤسسته الفنية الغنائية التى برز دورها الخطير وأهميتها فى هذه الظروف الحالكة !

وجرت الاجتماعات سرية وعلنية بشأن تفصيل دور جديد لهذه المؤسسة وتنشيط كل العاملين بها . وكان على أم كلثوم بصفتها الرئيس غير الرسمى أن تبادر بنفسها إزاء ذلك . . وعلى الفور أعدت أم كلثوم عدتها لإستعادة الثقة المفقودة فى كل شىء فى مصر من بعد الهزيمة . فطلبت من الشعراء ومن الملحنين كتابة عشرات الأغانى الوطنية التى تساهم حتى فى إنعاش ذهن وقلب الزعيم بعد هذه اللطمة الشديدة .

وبالفعل تبارى هؤلاء الشعراء لإرضاء أم كلثوم وخوفاً من الزعيم فى كتابة مثل هذه الأغنيات حتى إمتلأت خريطة الإذاعة بالعشرات منها . . وقد كانت تذاع بين الحين والحين . كما صدرت الأوامر لأم كلثوم بالتخفيف من نغمة الأغانى العاطفية التى توجع القلوب . وضرورة التمسك بالكلمات العاطفية الخفيفة !!

ولم تقتصر جهود أم كلثوم آنذاك على الغناء فى الداخل لإعادة روح الثقة إلى كل الجماهير . . بل وسعت كذلك من وراء من نشاطها فى هذا الاتجاه للقيام برحلات فنية مكوكية إلى العديد من الدول العربية والأوروبية وعلى رأسها مدينة باريس .

ولم يكن الهدف محصوراً آنذاك فى التغنى بالماضى والحاضر ، فقط ، بل كان هدفه هو جمع الأموال لإزالة آثار العدوان وفق ما أُعلن فى حينه . . بالتالى إمداد الخزينة الخاوية بالأموال لشراء السلاح والقمح والاستعداد للمعركة الجديدة . !

ونظراً لأهمية ما قامت به أم كلثوم فى هذا السياق . . فإننا نجدها لم تترك أية فرصة إلا وعبرت من خلالها عما قامت به فى كلمات نعيد نشرها هنا . . مما قالته فى هذا الشأن : فى عام ١٩٦٧ وقعت النكسة ، عدت من موسكو بلا غناء وأقمت فى بدروم البيت فى غرفة حداد مظلمة لمدة أسبوعين» !! .

ونلاحظ هنا أنها كانت تقلد عبد الناصر . . الذى قرر الإنسحاب من الحياة ، واختار العزلة . . لولا التمثيلية الهزلية التى ابتدعوها آنذاك . . لإجباره على التراجع عن قرار الإعتزال .

وقالت أم كلثوم أيضاً :

«لا أريد أن أتحدث ، ولا أريد أن أرى مخلوقاً . . واختمرت فى ذهنى أفكار نفذتها فيما بعد . . وسألت نفسى ، ماذا أقدم لوطنى الجريح ؟! . . ماذا يمكن أن أفعل لأمسح دمعة ، لأضمد جراح ، لأضع ابتسامة فوق شفاه ابن الشهيد . وخرجت بخطة عمل . . أن أغنى فى كل مكان وأجمع نقوداً للمعركة وأجمع ذهباً للمعركة ، وأجمع حماساً للمعركة ، فالمعركة لم تكن تلك الأيام الستة السوداء ، إنها مستمرة ، وما كان منها إلا فصل واحد . . والفصول الباقية آتية . . غنيت فى دمنهور وجمعت ٢٨٣ ألف جنيه ، وغنيت فى المنصورة وجمعت ١٢٠ ألف حنيه وفى الإسكندرية ١٠٠ ألف جنيه . عدا السبائك الذهبية التى كنت أجمعها من فوق أذرع وصدور النساء ، بل من آذانهن ، بل وخلاخيل الأرجل . واجتزت الحدود . . غنيت فى باريس على مسرح الأولمبيا . . فقد غنيت أغنية «أعطنى حريتى» بإنفعال لا أتصورنى بلغته أو سوف أبلغه بعد ذلك . وغنيت فى المغرب والسودان وتونس ولبنان ، غنيت فى ليبيا والكويت ، وأودعت كل هذه الأموال للمجهود الحربى للمعركة ، وأضفت إليه كل ما أملكه من مجوهرات . . كل هذه الحصيلة زادت على مليون جنيه ، كانت بالضبط مليونا ومائتى ألف جنيه» .

وحتى بعد أحداث عام ١٩٦٧ . . ظلت أم كلثوم تبرهن لعبد الناصر على أنها معه . . تقف بجواره بكل ما تملك من صوت ومن أموال . . حتى وفاته المنية فى عام ١٩٧٠ . .

ولغرابة ما فى علاقة أم كلثوم بعبد الناصر . . فإنها لم تكن بالقاهرة وقت وفاته . . إذ كانت فى موسكو فى رحلة فنية لم تتمكن من إكمالها . . تماماً مثلما حدث لها فى نفس المدينة وقت وقوع نكسة عام ١٩٦٧ ، حيث لم تتمكن آنذاك من تنفيذ برنامجها الفنى فى الاتحاد السوفيتى ! .

ولا شك أنه من بعد رحيل الزعيم ، وفى ضوء هذه الأحداث . . وفى ضوء التغيرات السياسية التى أعقبت ذلك الرحيل . . إنفك عقد مؤسسة ناصر الفنية ، وأخذ الرئيس الجديد أنور السادات يوصى زوجته بالبحث عن البديل الذى يناسب طموحات العهد الجديد ، وقد كان !! . ولمن يريد المزيد من المعرفة فى هذا السياق عليه بالرجوع لكتابنا «سيدتان من مصر» . .

***

وإزاء هذا النشاط الذى أبدته أم كلثوم كرئيسة لهذه المؤسسة الفنية كان لابد على أعضاء الآخرين من زملائها من هؤلاء العمالقة أن يحذو حذوها ويساهموا على قدر إمكانيتهم فى نشاطها من أجل عيون الزعيم وفق ما خططه وسبق أن ألقينا عليه الأضواء المبهرة .

والحق يقال . . فإن كل من عبد الوهاب وفريد وعبد الحليم كانوا على قدر كبير من المسئولية عندما شاركوا بحماس فى أحداث ما بعد الثورة . . بدءاً من عام ١٩٥٤ وحتى وفاة الزعيم . . وإن كان عبد الحليم حافظ فى تصورنا يحتل المرتبة الثانية من حيث إجادة دوره الفنى داخل هذه المؤسسة عن زميليه عبد الوهاب وفريد الأطرش ! ، وقد يكون لعنصر الزمن دخله الكبير فى إظهار ذلك الفارق ، أضف إلى ذلك إحساس عبد الحليم حافظ بأن للثورة وللوضع السياسى الجديد أفضال كثيرة عليه . . وبالتالى أراد أن يرد بعض من هذه الأفضال ! .

لكننا ومع ذلك نقول إن هؤلاء الثلاثة قد برعوا فى تنفيذ أدوارهم الفنية التى كلفوا بها . . إذ أخذتهم الحماسة والشعور الوطنى ودفعتهم دفعاً للوقوف مع الزعيم سواء فى مشاكله أو فى إنجازاته ! ، ولقد تجلى ذلك فى عشرات الأغنيات التى قدموها فى هذه الفترة والفترات الأخرى .

وكانت من أشهر أعمال محمد عبد الوهاب الوطنية – التى ساهم بها فى تدعيم الزعيم وتأكيداً مكانته داخلياً وخارجياً ، على الرغم من أنه لم يصرح بإسم

عبد الناصر فى أغانيه إلا قليلاً - هى أغنية «تسلم يا غالى» وهى من تأليف الشاعر عبد المنعم السباعى ، ثم الأوبريت الغنائى الذى لحنه وشارك فى آدائه عبد الوهاب . ومجموعة من كبار الفنانين والذى أذيع تحت اسم «وطنى الأكبر» .

وكذلك كانت مساهمات الفنان فريد الأطرش الذى حاول جاهداً من خلال أعماله الوطنية أن يكون على مستوى زملائه الآخرين . وحتى لا يحسب على أنه ضد الثورة ، وضد ما واجهه زعيمها من مشاكل ! ، وكان فى مسلكه الفنى مثل عبد الوهاب الذى أغفل ذكر الزعيم فى كلمات أغنياته . . لذلك كان غناؤه للعروبة وللوطنية من دون الأشخاص .

ويشير الناقد الفنى الراحل عبد الفتاح البارودى أنه كانت لفريد الأطرش فيما يخص وطنياته . . رؤيته الخاصة فى التعامل مع الثورة ورجالها . . وقد ساهم بأعماله الفنية فى إيقاظ حماس الجماهير التى أصيبت بدوار شديد من جراء أحداث حرب عام ١٩٥٦ ! . . وكان مما قدمه فريد فى هذه المناسبة على سبيل المثال أغنية «اليوم يوم الشجعان» - إلى جانب أغنيته المشهورة «حبيب حياتنا كلنا» .

ورغم ما قدمه كل من عبد الوهاب وفريد فى مجال الأغنية الوطنية . . إلا أن هذا الجهد لم يلاق الإقبال المنتظر من جانب عبد الناصر أو رجاله . . مثلما استقبلوا أعمال أم كلثوم وعبد الحليم حافظ ! ، الأمر الذى عرضهما للعديد من المصاعب والعراقيل . . مما ساهم فى ابتعادهما لبعض الوقت عن ساحة الغناء ، خاصة بالنسبة للمشاركة فى الحفلات العامة والإذاعة . . وبناء على ذلك إضطر محمد عبد الوهاب إلى التفرغ للألحان ، وقد صادف ذلك هوى فى نفسه إذ لم يعد يناسبه وفق تصوره أن يقف على المسرح ليغنى سواء للزعيم أو للناس ، وبات من لحظتها يفكر فى تطوير نفسه متفرغاً للموسيقى والألحان ، إلا فى بعض المناسبات الوطنية التى كان يضطر من أجلها أن يغنى بصوته أغنيات قديمة !!

وكذلك فعلوا نفس الشىء مع فريد الأطرش الذى اضطرته هذه الظروف للإقامة شبه الدائمة فى بيروت ! . وقد واجه ضغوطاً شديدة من قبل القائمين على تنظيم الحفلات الإذاعية العامة . . حيث كانوا يفضلون عليه عبد الحليم حافظ ! .

والغريب أن جمال عبد الناصر رغم مشاغله السياسية وأحزانه وسوء صحته لم يكن ببعيد عما كان يحدث . . فنراه يلاحظ بالفعل مدى ما تعرض له فريد الأطرش من مشاكل ومن مصاعب . . مما جعله يتدخل فى الوقت المناسب لإعادة

الروح المفقودة لفريد الأطرش وبالتالى رد كيانه ومكانته على الأقل أمام زملائه من المنافسين ! . . فأصدر أوامره كما سبق وذكرنا بمنحه وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى . . متساويا فى ذلك مع كل من عبد الوهاب وأم كلثوم ! .

ومع مرور الأيام والشهور والسنوات من عمر الثورة . . وانشغال كل الفنانين بحياتهم الخاصة والعامة والفنية فيما عدا أم كلثوم وعبد الحليم . . نظراً لموقفهما من الثورة ومن زعيمها حتى يوم رحيله ، فقد اتضح أن عبد الوهاب وفريد الأطرش وفق ما كانا يلاقونه من صعاب ومشاكل قد ركزا جهودهما الفنية فى تأكيد النجومية والشهرة سواء فى مجال الألحان أو فى مجال الفن السينمائى . حتى أن هزيمة عام ١٩٦٧ . . وقعت وهما يعيشان تقريبا فى خارج مصر ! ، وكأنما كان أمر هذه الهزيمة معروف مسبقاً !! . إذ وقعت أحداثها وثلاثة أضلاع مؤسسة ناصر الفنية خارج مصر . . فأم كلثوم كانت تغنى فى موسكو ، وعبد الوهاب وفريد كانا يقيمان شبه إقامة دائمة فى بيروت ! . وكأنما كانت إسرائيل تريد أن تبلغ عبد الناصر رسالة شفهية تقول كلماتها . . «لقد هزمناك وأنت الآن وحدك . . وقد تخلى عنك رجالك سواء فى الجيش أو فى شارع الفن» . .!! .

***

ومما يروى فى هذا السياق أن فريد الأطرش كان ينوى الرجوع إلى مصر والإقامة بها مرة أخرى بعدما تصالح مع نفسه ومع رجال العهد الجديد . . لولا أن بدأت العمليات العسكرية والهجوم الإسرائيلى على المطارات فى مصر وسوريا ، وكذلك كان محمد عبد الوهاب ! .

وعلى حد قول محمود لطفى المستشار القانونى لجمعية المؤلفين والملحنين وصديق فريد الأطرش الذى عاصره آنذاك . فإن فريد ورغم هذه المحنة السياسية والعسكرية ، ورغم آلامه النفسية . . فقد أراد أن يساهم بفنه فى هذه المصيبة فاستدعى مؤلف الأغانى «عبد الجليل وهبه» وطلب منه أن يكتب له كلمات أغنية تناسب هذا الظرف الوطنى . . وبالفعل انتهى خلال أيام من تأليف نشيد «شعبنا يوم الفدا» . وبعد تسجيله أرسله إلى القاهرة لإذاعته من هناك .

ويؤكد الناقد الراحل عبد الفتاح البارودى أن فريد الأطرش قد ساهم فى هذه المصيبة بالعديد من الأغنيات . وكان من أهمها أغنية بعنوان «إحنا قوة» . . وقد

سجلها وهو يعيش أيضا فى بيروت . . ثم أرسلها إلى كل الإذاعات العربية للمشاركة فى التخفيف من وقع هذه الهزيمة على الناس فى الشارع ! .

وخلال الفترة نفسها وما تلاها من فترات دخل فريد الأطرش فى دوامة المرض الذى هاجمه فى قلبه . . مما جعله يسافر كثيراً إلى دول أوروبا وأمريكا طلباً للعلاج .

***

وأخيراً يقف عبد الحليم حافظ بكلمات أغنياته وبصوته العاطفى تحت مظلة الثورة ، وبالتالى فقد أصبح المنافس الخطير - بما كان يغنيه من كلمات ذكر فيها الزعيم وإنجازاته - لأم كلثوم التى تخوفت منه على منصبها داخل مؤسسة ناصر الفنية ! .

ولقد ظل عبد الحليم حافظ يغنى للثورة ولزعيمها منذ مطلع عام ١٩٥٤ وحتى يوم رحيله . . وكان من أشهر ما غناه فى هذا السياق أغنية «إحنا الشعب» . . ومن بعد نجاحها وانتشارها على أفواه الجماهير . . تدفق سيل الأغنيات الوطنية على شفاه عبد الحليم حافظ ، وقد كون هو وزميليه . . صلاح چاهين وكمال الطويل ثالوثاً فنياً أقلق مضاجع أم كلثوم . . رغم أنهم كانوا يعملون تحت رئاستها !! .

ولم يتوقف جهد ذلك الفنان الذى إرتبط بالثورة وبإنجازات زعيمها عند حد المشاركة فى الحفلات بأغانيه الوطنية . . بل وحاول تقليد أم كلثوم فى مد نشاطه خارج شارع الفن . . وذلك بخلاف ما كان من عبد الوهاب وفريد الأطرش اللذين تفرغا فعلا لأعمالهما الفنية بعيداً عن السياسة وعن رجالها .

ففى عام ١٩٥٨ أرسلته حكومة الثورة مع زميله الملحن كمال الطويل ممثلاً لمصر فى مؤتمر «نزع السلاح الدولى» وذلك لشرح وجهة نظر مصر فى هذا الشأن أمام وفود العالم» .

وطوال سنوات ما قبل هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ . . ظل عبد الحليم حافظ يتغنى بأمجاد عبد الناصر . . وإنجازاته فى الصناعة والزراعة . . . وأغنيته المشهورة عن «السد العالى» خير دليل على ذلك ، فى الوقت الذى بدأ فيه مشوارا آخر لتأكيد موهبته الفنية فى عالم السينما وذلك وبمباركة رجال الثورة أيضا . إلا أنه وبدءاً من عام ١٩٦٠ دخل عبد الحليم حافظ فى دوامة المرض والنزيف الحاد الذى قلل من نشاطه الفنى على الأقل فى جانبه الوطنى ، حتى أنه عندما وقعت الهزيمة . . لم يتمكن من المشاركة فى إزاحة آثارها ، مثلما فعلت أم كلثوم التى تحملت وحدها . .

كل المسئولية أمام الزعيم . بل ووفقاً لرؤية معظم المؤرخين . . فقد كانت هذه الهزيمة من الأسباب المباشرة لزيادة إصابة عبد الحليم بالنزيف الدموى الحاد ! .

ورغم ذلك فقد حاول جهد إمكانياته الصحية المتدهورة أن يشارك فى بعث الروح العامة المفقودة بين الناس فغنى أغنيته المشهورة . «أحلف بسماها وترابها» . . ثم أغنيته «يا أهلا بالمعارك» والتى قيل أن عبد الناصر طلب شخصياً إذاعتها وقت حدوث العمليات العسكرية ! .

***

ومع سخونة الأحداث . . وتكرار الإنكسارات الشديدة التى تعرض لها عبد الناصر . . بات مقتنعا إلى حد اليقين بفشل مهمة هذه المؤسسة التى أنشاءها وفق رؤيته الخاصة . . وقد أراد أن يتخلص من أعضائها كما تخلص من بعض أعضاء مؤسسته العسكرية والأمنية . وذلك بإحلال غيرهم من الفنانين . إلا أن العمر لم يسعفه لتحقيق تلك الخطوة . . حيث أخذت الأمراض تلاحقه وتحد من قدرته حتى جاء عام ١٩٧٠ . . وهو العام الذى شهد العديد من الأحداث السياسية داخلياً وخارجياً . . الأمر الذى زاد من آلام عبد الناصر . . والتى لم تتوقف إلا فى يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ عندما تم الإعلان عن وفاته !

ومن بعد الوفاة أخذ المؤرخون يتبارون فى إظهار مساوئ تلك المؤسسة الفنية وما ارتكبته من أخطاء فى حق عبد الناصر وفى حق الشعب أيضا .

ومما يروى فى هذا السياق ما ذكره فتحى رضوان الذى تولى وزارة الإرشاد القومى قبل عام ١٩٦٧ . . عندما قال فى مذكراته الخاصة التى صدرت تحت عنوان «عبد الناصر وأنا» :

«كان الرئيس عبد الناصر قد قال لى فى مناسبة سابقة إنه يسهر مع الإذاعة حتى نهاية برامجها . . مع أم كلثوم ومع حفلات أضواء المدينة . ثم توقف قليلاً وقال : أنا عارف إن فتحى رضوان غير راض عن طول حفلات أم كلثوم ، واستمرارها إلى أربعة صباحاً ، وكثرة ترديد المقطع الواحد عشرين مرة أو أكثر ! . والصياح والصراخ والوقوف على المقاعد . . وقد عجبت حقيقة كيف عرف عبد الناصر هذا الرأى ، فقد حاولت أن أتذكر متى سمع منى هذا الكلام . . فلم أستطع ذلك . . لكنه ضحك بطريقته وقال - «أى عبد الناصر» - فى ليلة أقمنا

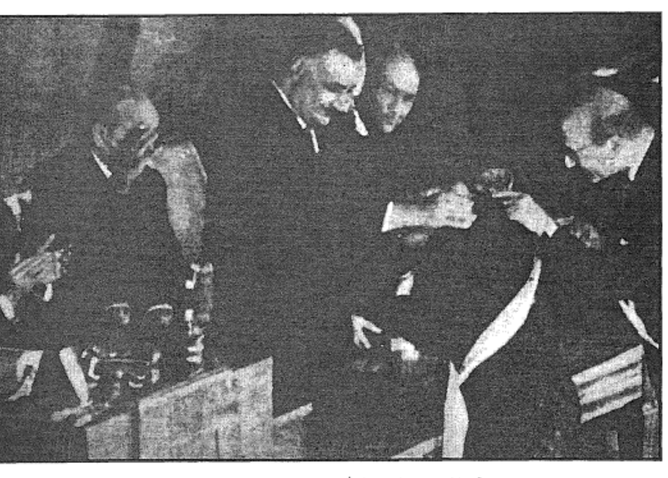
حفلة غنائية لأم كلثوم فى نادى الضباط إحتفالاً بالملك حسين ، ولما خرجنا نوصله ، وكنت أنت رئيس الوفد المرافق له ، كان منظر الضباط ساعة الإنصراف وعدد قليل منهم نائم فعلاً على مقعده ، لا يرضى أحداً . وكانت عيون الملك حسين حمراء . . كما كان يتمايل من شدة التعب .

وفى اليوم التالى بدأ الحديث تعليقا على هذه الليلة ، فسمعتك تتكلم مع أحد على مقربة منى ووصل إلى سمعى هذا الرأى . . أنا معك ، ولكن محاولة تغيير ذلك أصبح بمثابة الوقوف فى وجه التيار ، فقلت : إننا واقفون ضد التيار فعلاً : ألست تقيم السد العالى ؟! فقال عبد الناصر : السد العالى معلهش ، ولكن يأتى على الناس وقت لا يطيقون فيه أنفسهم . . دع لهم وقتاً يفروجون فيه عن أنفسهم ، فقلت ولكن العمل الفنى فى كل مكان وسيلة معنوية للناس يزودهم بجرعة منعشة ومنشطة ومبهجة ، يخرجون بعدها أكثر إقبالاً على الحياة . ولكن حفلات الطرب عندنا عملية تعذيب . . ينام الناس فى اليوم التالى إلى الظهر ويستيقظون يشكون من الصداع ووجوهم ، وشهيتهم مسدودة ومزاجهم عكراً !

فقاطعنى عبد الناصر قائلاً : أنا معك ، ولكن الناس ينسون أنفسهم ويعتبرون هذه الحفلة عيدا شهرياً . وفى جميع الأعياد يسهر الناس إلى الصباح ويكونون فى اليوم التالى بالصورة التى تظنها . . ثم توقف عبد الناصر فجأة وقال محذراً : بس أوعى تغضب أم كلثوم فقلت : لا سبيل لإغضابها . . فضحك . . هذا حق» .[1]



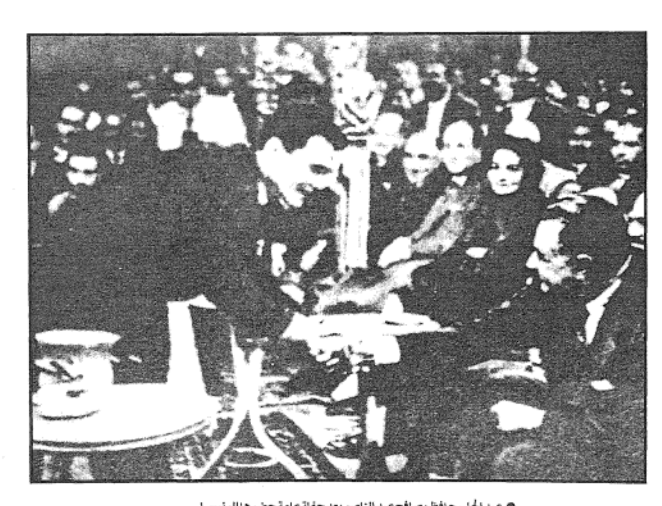
(١) عبد الناصر وأنا . فتحى رضوان .



● وجاء وقت التكريم.. عبد الناصر يقلد أم كلثوم الوسام وعبد الوهاب يساعدها



● فريد الأطرش فى قصر القبة .. لتقديم الشكر على الوسام



● عبد الحليم حافظ يصافح عبد الناصر بعد حفلة عامة حضرها الرئيس!



● تكريم من نوع خاص لموسيقار الأجيال عندما استقبله الرئيس مبارك

الوداع الأخير.. وساعات ما قبل الرحيل..

إن لدينا إيمان يصل إلى حد اليقين ، أن الإنسان مهما طال عمره أو قصر . . فإنه يعيش بين لحظتين ، لحظة الميلاد ، ولحظة الموت . . أما ما بينهما فهو كتاب تُسطر فيه الأعمال ، بحلوها ومرها ! ، ومن بعد الرحيل يغلق ذلك الكتاب ولا يتم فتحه مرة أخرى إلا حين موعد . . لا يعلمه إلا الله .

وهكذا كان حال هؤلاء الأربعة الذين عاشوا حياتهم بين هاتين اللحظتين . . وقد ذاقوا كل ألوان الحياة . . الفقر والمرض والجاه والسلطان والشهرة . . وأخيراً لحظات الوداع . . ثم الرحيل ! ؛ وكان نصيبهم ما بين هاتين اللحظتين يتفاوت ما بين النصر والهزيمة ، وبين الفقر والغنى ، وكذلك بين الطول والقصر ، كل حسب العمر الذى ولد به ! ، وكتب عليه من قبل أن يولد .

هذه اللحظات التى نشير إليها هنا . . إنما تحسب فى عمر الإنسان بالدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين ، ولكل من هذه الأزمنة أحداث لا تكتشف تفاصيلها إلا حين وقوعها . . وبعضها يشد صاحبها إلى الوراء . . وفى وقت آخر إلى الأمام ! . . ومن يقرأ بعناية ما سبق وسطرناه عن حياة هؤلاء الكبار ، ثم يكمل هذه القراءة بالإطلاع تفصيلاً على قصص وسير حياتهم سوف يضع يديه بسهولة على تلك الحكمة الكبرى والتى وضعت من أجلهم ومن أجل غيرهم من البشر ! .

***

ولقد استطاع كل من عبد الوهاب وفريد وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ العيش داخل دائرة الضوء لفترات طويلة ، ولم يكن ذلك بالأمر الهين ، إذ أخذ منهم ذلك جهداً كبيراً . . هذا الجهد كلفهم سعادتهم التى لم يجدوها إلا فى نجاح أغنية أو فيلم ، أو فى كلمات معجب من الجماهير أو آهة وجع قلب فى إحدى الحفلات ! .

وفى غمار تلك المنافسات الشرسة التى واجهوها سواء مع بعضهم البعض ، أو مع الآخرين ، زاد الإجهاد ، وزادت الأحمال وزادت المشاكل . . مما كان له أكبر الأثر السيء على صحتهم . .

أضف إلى ذلك تعاملهم غير السوى مع أنفسهم فيما يتعلق بإقبالهم على حياة الليل بحكم عملهم ، أو بإقبالهم على حياة اللهو التى كانت جزء أساسياً من برنامجهم اليومى القائم على الهروب من الإجهاد ؛ إلى إجهاد آخر أكثر صعوبة ! .

ورغم ما كانوا يمرون به من مشاكل نفسية وعصبية أيضا ، فقد كانوا يجتهدون فى إخفاء تلك المشاكل عن عيون أحبائهم من المستعمين أو المشاهدين . وأيضا حتى لا يتم إستغلال ذلك الضعف فى ميدان المنافسات الشرسة مع زملائهم .

ولو عدنا إلى بداية نشأتهم نجد أن البيئة المتواضعة التى عاشوا بها لسنوات طويلة فى طفولتهم كان لها دخل كبير فى تأكيد ما عانوه من مشاكل صحية فى شيخوختهم . . وكانت تلك هى البداية الحقيقية التى سطرت كلمات الوداع فى حياتهم ! . . على الرغم من أن معظمهم قد أخفى ما كان يعانيه من أزمات صحية واجهته فى طفولته وصباه ، إلا أنها ظهرت بوضوح مع كلمات الرثاء وكلمات التأبين التى تولى كتابتها نيابة عنهم الأهل والأقارب والأصدقاء ! .

وما نود أن نشير إليه فى هذا السياق . . أن الدافع الرئيسى وراء تمسكى بأن يكون حديث الوداع . . هو حديث الختام . . فوق هذه الأوراق هو استكمال حياة هؤلاء العمالقة الكبار الذين صحبناهم منذ الميلاد ، ثم مراحل التلقى والتألق والشهرة والنجومية ، وبذلك نكون قد وضعنا أيدينا وأيدى التاريخ على مشوار هؤلاء . . من دون أية إغفال لأى جانب من جوانب حياتهم سواء الخاصة أو العامة . . حتى اللحظات الأخيرة من هذه الحياة . ! . عندما باتوا فى ذمة التاريخ الذى سوف يقول كلمته دوماً وبصراحة وبلا مجاملات ! .

***

وأقولها صراحة . . لقد وجدت صعوبة بالغة فى التعامل مع الأيام الأخيرة فى حياة هؤلاء الأربعة ، وذلك من واقع الألفة التى أحسست بها ونشأت بينى وبينهم على مدى هذه الفصول التسعة ! .

ولذلك كانت الكتابة عن هذه الأيام التى شهدت ساعات ولحظات حياتهم الأخيرة مؤلمة بحق . . ولسوف تشعرون أنتم كذلك بتلك الآلام عندما تفرغون من قراء آخر سطور هذا الكتاب ، ذلك لأنهم ووفقا لسنة الحياة التى أشرنا إليها من قبل . . قد تركوا المجد والشهرة والأموال والسلطان على باب القبر . . كما تركهم أقاربهم ومحبيهم ! ، وقد تذكرت آنذاك وأنا فى لحظات وداعهم المؤلمة ذلك الحديث الشريف الذى تقول كلماته **«يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله»** !.

ولذلك فقد رأيت أن الأيام الأخيرة ولحظات ما قبل الرحيل فى حياة هؤلاء العمالقة مع اختلاف توقيتها وظروفها وملابساتها ، هى بحق لحظات تستحق التأمل والتوقف أمامها طويلاً ، وحتما سيصل كل منا إلى نتائج مختلفة ولكنها ستكون واحدة تقريبا . . إذ ستصب فى كلمات الحديث الشريف السابق الإشارة إليه .

وبالرجوع إلى تورايخ رحيل هؤلاء الأربعة اكتشفنا عدة مفارقات عجيبة كان فى مقدمتها . . أن الموسيقار محمد عبد الوهاب الذى جاء ترتيبه بين هؤلاء الأول من حيث الميلاد . . كان هو آخر الذين تركوا هذه الحياة !! ، حيث توفى عام ١٩٩١ ! ، عن عمر يناهز التسعين عاماً أو أكثر ! . وبالتالى فقد اختلف الترتيب الزمنى لرحيلهم عن ترتيب يوم ميلادهم . ذلك لأن فريد الأطرش على الرغم من أن ترتيبه داخل منظومة الميلاد بالنسبة لبقية زملائه من الأربعة الكبار كان رقم ثلاثة . . فقد كان هو أول المغادرين لهذه الحياة إلى دنيا الفناء . . إذ كان من مواليد عام ١٩١٥ أى بعد ميلاد كل من عبد الوهاب وأم كلثوم . . وهو لذلك يحتل المرتبة الثالثة . وقد رحل عن دنيانا عن عمر يناهز الخامسة والستين فى عام ١٩٧٤ . . وبفارق خمسة وعشرين عاماً عن وقت رحيل عبد الوهاب !!

ثم يأتى من بعد فريد الأطرش من حيث تاريخ الرحيل الفنانة أم كلثوم التى غادرت دنيانا فى عام ١٩٧٥ . وكان الفارق بينهما عام واحد فقط ، وقد خالفت هى الأخرى بذلك ترتيب الراحلين بالنسبة لترتيب المواليد ! . . إذ احتلت المرتبة الثانية ، ميلادياً بعد عبد الوهاب وفق إجماع كل المؤرخين ، أما عبد الحليم حافظ فقد احتل المرتبة الثالثة من حيث توقيت الرحيل والمرتبة الرابعة من حيث توقيت الميلاد !! .

أما ثالث هذه المفارقات ، أن عبد الحليم حافظ كان من أكثر هؤلاء الأربعة من الذين عاشوا حياة قصيرة . . ورغم ذلك فقد كان رصيده الفنى والمادى يساوى ما تركه الثلاثة الآخرون . .

ومن أوضح ما لحظناه من معلومات كحقيقة ثابتة ، إلى جانب ذلك أن هؤلاء الأربعة قد ماتوا متأثرين بأمراض شائعة تأرجحت ما بين الأزمات القلبية وأزمات الكلى والمرئ ! ، هذه الأمراض ظلت لفترة طويلة وكأنها سر حربى فى حياة هؤلاء . . ولم يكن يعرف بها إلا الأصفياء من الأصدقاء ومن الأقارب والأهل ، وهذا يوضح لنا أن حياتهم كنت كلها كفاح وصراع ، وأن شهرتهم هذه أبداً لم تأت من فراغ ؛ وقد أخذت أمامها من شبابهم عصارة جسد ظل يتألم من تأثير توالى الضربات القوية التى كان كل منهم يتعرض لها . ولم يأبوا ذلك بل زاد إصرارهم على تقديم المزيد من الفنون رفيعة المستوى والتى سجلت تاريخهم بأحرف من نور وتلك كانت ضريبة غالية الثمن قدموها من أجل الفن ، وقد اقتطعوها من أعمارهم .

وكانت النهاية أن رحلوا وتركوا وراءهم الثروة والجاه والسلطان لكى ينعم بها غيرهم سواء من أولادهم أو من أقاربهم ، ولم يتبق لهم سوى كلمات وألحان نرددها كثيراً فى يوم ميلادهم أو فى يوم رحيلهم ! كما لاحظنا كذلك وفى إطار الحديث عن تلك المفارقات الغريبة التى ارتبطت بيوم رحيل هؤلاء . . أنهم جميعا عندما ماتوا ، نقلوهم إلى المستشفيات على أمل تعديل الحال وإعادتهم إلى الحياة ! .

ليس هذا فقط . . بل ولاحظنا كذلك أن ثلاثة من هؤلاء وهم بالترتيب فريد الأطرش وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ قد ماتوا بعيداً عن مصر . . وتركوا من ورائهم الوصايا التى تؤكد على ضرورة أن يدفنوا فى أرض مصر ، وبالذات فى مدينة القاهرة . وفى مدافن البساتين .

ويتبقى لنا من حديث المفارقات العجيبة التى ارتبطت برحيل هؤلاء . . حديث الأمراض التى كانت سببا فى رحيلهم ، ومن بعدها ننطلق فى رحاب التسجيل والمتابعة الدقيقة لمراسم ذلك الرحيل ومراسم الدفن والوداع ، وكل شىء ارتبط بإغلاق ملف حياتهم الجسدية فقط رغماً عنا وعنهم !! .

ومن واقع متابعة متأنية لتلك التقارير الطبية التى أذيعت فور الإعلان عن رحيل هؤلاء ، وكذلك من واقع نفس المتابعة لحالاتهم الصحية التى تدهورت فى الأشهر الأخيرة من حياتهم . . اكتشفنا مثلاً أن الموسيقار محمد عبد الوهاب قد توفى متأثراً بأزمة قلبية فاجأته قبل أن ينام . . وكان قبلها بلحظات يمارس حياته اليومية العادية ، إذ تناول العشاء مع أولاده وزوجته رغم أنه وقبل وفاته بعشرة أيام قد إصيب بكسر فى

ساقه على أثر وقوعه فى شقته نظراً لمرض الشيخوخة الذى هاجمه منذ سنوات ! . . هذا الحادث لم يكن له وفق تأكيد من كانوا حوله أى دخل فى وفاته ! .

ومما لاحظناها من خلال الوقوف على تفاصيل حياة عبد الوهاب الصحية . . أنه كان من أكثر الفنانين المصريين حرصاً ورعاية لصحته . . وكان لذلك يسير وفق نظام غذائى معين . وكذلك نظام رياضى مرسوم ، ومن هنا كان بعيداً كل البعد عن الإصابة بالأمراض المستعصية التى تصيب عادة معظم المشتغلين بالفن والإتصال بالجماهير! ، وهى التى أصابت من قبله كل من أم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ . على الرغم من أن عبد الوهاب كان يتشابه مع فريد الأطرش فى السبب الذى أودى بحياته . . وهو الإصابة بالأزمة القلبية المفاجئة ، وإن كان لم يعالج ولو مرة واحدة من هذا المرض مثلما كان فريد الأطرش !! .

فقد أصيب فريد الأطرش عدة مرات بالأزمات القلبية الحادة والتى اضطرته لإجراء عمليتين جراحيتين كبيرتين . . ومع ذلك لم تفلح تلك العمليات . . وكذلك لم يفلح العلاج فمات متأثراً بحالته هذه فى إحدى مستشفيات لندن .

أما عن أم كلثوم فقد ماتت بمستشفى المعادى . . بعد صراع دام شهوراً مع مرض الكلى والصفراء ، وكانت وفق تأكيد العديد من الأطباء من أمراض الشيخوخة . . وكانت قبل ذلك تقاوم بشدة حتى أنها كانت على موعد مع إحدى حفلاتها العامة التى أجلتها بسبب تكرار مرضها ! ، وهى الحفلة التى لم تتم بالفعل والتى حصل جمهورها على أثمان تذاكر تلك الحفلة من المتعهد ! .

وأخيرا يموت عبد الحليم حافظ . . ليس وفق ترتيب الرحيل ، ولكن وفق ترتيبه فوق هذه الأوراق ! ، وذلك بعد صراع طويل مع مرض البلهارسيا . . تلك الدودة الملعونة التى أكلت كبده . . وسببت له العشرات من حالات النزيف الذى أتى عليه فى نهاية الأمر ! .

إن هناك بخلاف ذلك المزيد من التفاصيل المتعلقة بحالات هؤلاء المرضية ، سوف تبدو لنا بوضوح أكثر حين نتابع حالاتهم أولاً بأول منذ الإعلان عن إصابتهم بالأمراض وحتى يوم الرحيل ولحظات الوداع .

ومن آخر المفارقات التى وجب التنويه عنها من قبل الإنتقال لحديث التفاصيل .

هى أن جنازة هؤلاء الأربعة قد خرجت من مسجد واحد . وهو مسجد عمر مكرم بميدان التحرير . . لولا الأوامر التى صدرت خصيصاً لعبد الوهاب ، عندما قرر الرئيس مبارك أن تكون جنازته عسكرية ، وبالتالى تغير مسارها إلى مسجد رابعة العدوية بمدينة نصر ! ، والقريب من مؤسسة الرئاسة . .

***

إننى أريد أن أذكركم بأننا حين بدأنا مشوارنا الأول فوق هذه الأوراق . . كان السبيل نحو ذلك هو التمسك بالترتيب الزمنى لميلاد هؤلاء وبالتالى دخولهم إلى شارع الفن . . وفق ترتيب أعمارهم ، من هنا كان الحديث دائما يبدأ بالموسيقار محمد عبد الوهاب وينتهى بالعندليب الأسمر عبد الحليم حافظ .

أما هذه المرة فسوف يكون الأمر مختلفا . إذ سنبدأ الحديث بترتيب أخر يعتمد على تواريخ رحيلهم . لذلك سيكون أول ضيوف هذا الحديث . . هو الفنان الراحل فريد الأطرش ، باعتباره أول المغادرين لأرض شارع الفن إلى الدار الأخرة . ثم يتبعه حديث آخر يقترب من لحظات الوداع فى حياة أم كلثوم ثم عبد الحليم حافظ ، وأخيراً محمد عبد الوهاب .

***

ولقد ظل الفنان فريد الأطرش يعانى لفترة طويلة من مرض القلب وتصلب الشرايين الذى هاجمه لأول مرة منذ سنوات طويلة . . وظل يعالج منه سواء فى مصر أو فى خارجها . .

والغريب أن المشاكل العاطفية فى حياة هذا الفنان كانت من أكثر الأسباب التى أدخلته فى دوامة هذا المرض ، وكانت بداية إصابته به وفق ما ذكره هو فى مذكراته فى عام ١٩٥٥ . . إلا أنه كان قد أصيب إلى جانب ذلك بمرض فى عينيه وبما هددهما بالتلف ، على أثر رحيل أخته أسمهان . . وقد اضطرته الظروف لإجراء عملية جراحية فى إحدى عينيه لإصلاح ما أصابها . . عندما سافر إلى سويسرا ، ومن بعدها شُفى تماماً . . وعاد إلي الإبصار قوياً كما كان وهو فى هذه الفترة لم يكن قد دخل بعد فى صراعه العاطفى مع أول حبه . . مع الراقصة سامية جمال . . والمشاكل التى نجمت عن ذلك الحب إنما كانت بالفعل من أسباب إصابته بأول أزمة قلبية .!

ثم توالت بعد ذلك الأزمات القلبية العنيفة على أثر فشله فى بقية قصص حبه . . خاصة ما أشيع من أمر رفضه من جانب أسرة الملكة السابقة ناريمان ! . ، والتى من بعدها نقل على الفور إلى إحدى المستشفيات حيث اكتشف الأطباء إصابته بالذبحة الصدرية ! .

وقد صور لنا فريد الأطرش فى أوراقه الخاصة ظروف إصابته بمرض القلب وأسبابه فى كلمات مؤثرة . . قال فيها : «بالضحك والمزاح ، بالسياحة والسهر ، بعشرة الليل والنهار حاولت أن أبدد كل ذكريات ناريمان من تلافيف رأسى ، ونجحت وأن تركت القصة فى قاع نفسى طبقة من الحزن تصعد بصماتها على صوتى حين أغنى وتخرج أنيناً مؤثراً إن جرت أصابعى على العود . . وقد صار للحزن فى القلب عدة ينابيع ، بعضها نائى فى البعد ، ولكنه لا يزال ينضح بالألم وبعضها قريب وأنينه فى الأذن يختلط بدقات القلب الجريح ، فمن حبيبة العمر الأول أيام الصبا الغض إلى سامية جمال ، إلى ناريمان ، الأحزان تتصل وتتشابك» ! .

وفى عام ١٩٦٥ تكررت إصابة فريد الأطرش بأزمة قلبية حادة ، وكادت تقضى هذه المرة على حياته فعلاً وفق إجماع الأطباء . . لذلك قرروا من الضرورى أن يسافر إلى الخارج للعلاج وإجراء الفحوصات المطلوبة .

وهناك فى لندن تعرف على طبيبه الخاص فى علاج القلوب دكتور «جيبسون» الذى ظل يتردد عليه طوال خمسة عشر عاماً ، وعلى حد قول الكاتب الصحفى اللبنانى چورچ الخورى : «لقد ودع فريد هذا الطبيب البريطانى الذى عرفه منذ ثمانية عشر عاماً بقلب كامل ولو عليل وتدرج معه إلى نصف قلب ثم إلى نصف النصف ، ثم إلى دقات بطيئة متثاقلة كأنها الطبول الحزينة فى مجاهل الموت .» .

ولما فشلوا فى علاج قلبه العليل فى لندن . . . إتجه إلى أمريكا عندما سمع عن أحد الأطباء هناك من الذين كانت لهم محاولات ناجحة فى تغيير صمامات القلب . . ولكن للأسف فقد فات أوان ذلك ! ، لأنهم عندما صوروا قلب فريد الأطرش لم يجدوا فيه ما يصلح للعلاج أو تركيب صمامات جديدة لذلك فقد اعتذر له هذا الطبيب ، حيث لن يجدى لقلبه الآن تغيير هذه الصمامات !! .

وعندما اشتد عليه المرض . . سافر من جديد إلى سويسرا لمقابلة أكبر أخصائى

قلب هناك . . وهو الدكتور «دى شيزاك» . . إلا أنه عندما فحصه أبدى له هو الآخر أسفه لتأخر حالته ! .

ومنذ ذلك التاريخ بات فريد وكل من كانوا حوله من الأهل والأصدقاء يتوقعون رحيله بين يوم وليلة ! ، حتى هو نفسه بات يتوقع هذه النهاية . . بعد لحظات ! ، وقد عبر عن ذلك بقوله : «وأدركت أن الحياة شعلة تتوهج فى داخلنا وقد نطفئها نحن ، وأيقنت أن الموت قريب جداً وراء الباب وتحت الغطاء وفى الردهة الموصلة لحجرة النوم» ! .

وبالفعل ظل شبح الموت يطارد فريد الأطرش من بعد هذه الإصابة الأخيرة فى عام ١٩٧٤ ، وهو عام الحسم فى حياته ، وكان فى هذه الفترة يقيم بصفة دائمة فى مدينة بيروت حيث ارتباطاته الفنى عندما افتتح ملهاً ليلى لتعزف فيه موسيقاه ، وفق ما أعلن عنه المؤرخ الفنى الراحل كمال الملاخ ! . .

وفى إحدى ليالى بيروت الفنية شارك فريد فى حفل غنائى ، قدم فيه إحدى أغنيات فيلمه الجديد الذى لم يعرض إلا بعد وفاته . . وكانت ظروف الطقس فى هذه الليلة من الأسباب المباشرة لتدهور صحته ، فقد كانت ليلة ممطرة ورياحها شديدة وقوية ، وكان هذا الجو يشكل خطورة على صحة فريد الأطرش ، وكان هو نفسه يعلم ذلك . إلى جانب الجهد الكبير الذى بذله فى الغناء . .

ويومها وقف على المسرح قبل أن يغنى قائلا : «إمنيتى أن أموت وأنا واقف بين أيديكم على المسرح ؛ أغنى للجمهور الحبيب» . . ومن بعد هذه الليلة خرج مصابا بإلتهاب رئوى حاد ، وقد ساهم ذلك فى الإسراع بلحظات رحيله ! . مما اضطره للسفر مريضا إلى لندن لمقابلة طبيبه الخاص . . وطبيب قلبه «مستر چيسون» الذى أخبره بأن أيامه فى الحياة أصبحت معدودة ولابد أن يعود فوراً من حيث أتى ! .

وبالفعل عاد فريد الأطرش محاطاً بأهله وأصدقائه إلى بيروت ، وكان وزنه آنذاك ٨٥ كيلو فقط ! . وقبل وفاته بيومين فقط . شعر بآلام حادة فى صدره فطلب من سكرتيرته الخاصة أن تنقله فوراً إلى المستشفى فى بيروت ، وأن تبعث فى طلب أخيه فؤاد .

وعلى أثر إصابة فريد الأخيرة . . تم إعلان حالة الطوارئ فى المستشفى وأدخلوه

غرفة الإنعاش ، كما بدأوا يعالجونه بالمحاليل الطبية ، حيث أصيب وقتها بحالة إغماء طويلة ! ، ولما أفاق من غيبوبته أخبر أخيه بأن حياته على وشك الإنتهاء . إذ رأى فى منامه أمه وهى ترتدى الملابس السوداء وفى عينيها دموع ، كما فقد مصحفه الذى كان يضعه فوق صدره منذ أكثر من ربع قرن .

وفى مساء يوم الخميس ٢٦ ديسمبر من عام ١٩٧٤ . . وعلى الرغم من أن فريد كان طوال هذا اليوم يداعب كل من كانوا حوله ، إلا أن الموت اغتاله على أثر إصابته للمرة الأخيرة بنوبة قلبية حادة ! ، وكانت وصيته الأخيرة بأن ينقل إلى القاهرة لكى يدفن بجوار جثمان أخته أسمهان بمدافن البساتين ! .

ونزولاً هذه الرغبة ، أقنع فؤاد كل أقاربه وعائلته من الدروز بضرورة تحقيق هذه الوصية . إذ كانوا متمسكين بدفنه فى الأرض الذى ولد بها ووسط أهله وعشيرته فى جبل الدروز ! .

وفى اليوم التالى للوفاة نقل جثمان فريد الأطرش بطائرة إلى القاهرة . حيث دخل مستشفى المعادى لتجهيزه من قبل بدأ مراسم الوداع الأخير . . وفى المستشفى ظل ليلة كاملة حتى تم تجهيز مدفنه . . وفى الصباح خرجت العشرات من الجماهير وراء نعشه الذى خرج من مسجد عمر مكرم . وودعته إلى مثواه الأخير فى مدافن البساتين .

***

وبعد مرور عام واحد ، لحقت سيدة الغناء العربى أم كلثوم بفريد الأطرش فى موكب الخالدين . . وأيضا لم يكن رحيلها مفاجئاً بالنسبة لمن كانوا حولها أو بالنسبة لقطاع عريض من جمهورها الذى ظل يتابع حالتها الصحية المتدهورة يوما بعد يوم على مدى عدة أشهر ! ، وكانت بذلك تشبه ظروف رحيل فريد الأطرش مع الفارق فى المكان ! . حيث كان الجميع يتوقعون رحليه فى أية لحظة . . وكما سبق وأوضحنا .

وكانت العشرات من الأحداث السياسية الساخنة وكذلك الفنية التى وقعت فى مصر فى فترة ما بعد عام ١٩٦٧ ، وارتباطها الشديد بالزعيم جمال عبد الناصر الذى رحل قبلها . ووقائع صدامها مع النظام السياسى الجديد . . من الأسباب

المهمة التى ساهمت كثيراً فى تجديد إصابتها بأمراضها القديمة ! ، والتى كانت فى الوقت نفسه المقدمة القوية لرحيلها عن حياتنا .

ورغم أن أم كلثوم لم تمت إلا متأثرة بإصابتها فى أخريات أيامها بأمراض الجهاز البولى . . إلا أنها قد أصيبت وعلى مدى حياتها ، بأمراض أخرى كثيرة وخطيرة ، الأمر الذى هدد مسيرة حياتها الفنية . .

وكانت بداية إصابتها بهذه الأمراض حينما كانت تعيش فى قريتها وسط مظالم الفقر والجهل . ومع مرور الأيام . . ومع ما كانت تواجهه أم كلثوم من صراعات فى كل الإتجاهات إكتشف الأطباء إصابتها لأول مرة بمرض الغدة الدرقية فى عام ١٩٤٧ ، وفى عام ١٩٤٩ تجددت الإصابة بهذا المرض حيث سافرت ولأول مرة إلى كل من إنجلترا وفرنسا لعلاج الغدة الدرقية ، وقضت هناك عدة أشهر عادت بعدها متعافية تماماً ! .

وقد ظن الجميع أن أم كلثوم قد شفيت من هذا المرض الذى هدد صوتها وحنجرتها ، إلا أنه عاودها من جديد بعد تاريخ شفائها منه بأربع سنوات ! . وكان ذلك فى شهر أغسطس من عام ١٩٥٢ ! ، وكان الأطباء المعالجون قد عرفوا بوجود عقار جديد لعلاجها فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وبالفعل جرت اتصالات سياسية عالية المستوى بين مصر وأمريكا لإحضار ذلك الدواء .

وفى عام ١٩٥٣ سافرت أم كلثوم إلى الولايات المتحدة الأمريكية لاستكمال علاجها هناك بمستشفى البحرية الأمريكية بناء على مباحثات جرت بين جمال عبد الناصر والرئيس الأمريكى . . وكانت فرصة حيث أجرت أم كلثوم هناك كشفاً عاماً على كل جسدها ، وهناك اكتشفوا إمكانية علاجها عن طريق الذرة ! ، ثم سافرت مرة أخرى إلى أمريكا فى عام ١٩٦٠ لنفس الغرض وأيضا بلا شفاء ! .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت حالتها الصحية فى تدهور بطئ ، حتى أصيبت فى عام ١٩٦٧ ولأول مرة بإحتقان فى المرارة ، فسافرت إلى لندن ثلاث مرات خلال عام واحد ، لإجراء الفحوص الطبية المطلوبة ، وهناك اكتشفوا عن طريق التحاليل الطبية إصابتها بفقر فى الدم وضعف صحى عام ! ، وبالتالى عادت إلى مصر وفى حقيبتها أحدث الأدوية .[1]

---

(١) عبد الناصر وأم كلثوم – مصدر سابق .

وفى عام ١٩٧٣ أصيبت أم كلثوم ولأول مرة بأمراض الكلى فاعتذرت عن الغناء فى إحدى حفلاتها العامة . . ثم سافرت إلى لندن للعلاج هناك . ولما زادت آلامها نصحوها بالسفر إلى أمريكا لاستكمال العلاج .

ونظراً لسوء حالتها الصحية قرر الأطباء عودتها فوراً إلى القاهرة ، إذ كانت حالتها الصحية السيئة لا تسمح بإجراء عملية جراحية ! .

وكانت الأزمة الأخيرة التى مرت بها صحة أم كلثوم من أخطر الأزمات التى مرت بها على مدى حياتها . . إذ تطورت هذه الحالة بسرعة مع تقدم الأيام من سئ إلى أسوأ . وقد ساعد على ذلك إصابتها بالشيخوخة ، الأمر الذى جعل من أطبائها يقررون نقلها على الفور إلى مستشفى المعادى للقوات المسلحة . . لكنها رفضت ذلك .

وأمام إصرارها على أن تعالج فى ڤيلتها بالزمالك . . نفذ الأطباء رغبتها . . ونقلوا من أجل ذلك الإمكانيات المتاحة من المستشفى إلى الڤيلا خاصة فى مجال المحاليل والأدوية .

ومع مرور أيام العام الجديد عام ١٩٧٥ ، لاحظ الأطباء إصابة أم كلثوم بانخفاض خطير فى أداء الكلى نتيجة لإصابتها بالأنيما الحادة ، وهى نفس الحالة التى أصيبت بها أم كلثوم فى عام ١٩٧٤ عندما هاجمها لأول مرة إلتهاب الكلى . . وقد أدى ذلك فى النهاية إلى إصابتها بضعف عام وأنيما حادة .

ومن خلال متابعة طبية لحالتها الصحية . . صدر عن مستشفى المعادى التقرير الطبى الأول فى يناير ١٩٧٥ ، وفيه سجل الأطباء المعالجون أن أم كلثوم تستجيب للعلاج ، وبالتالى تم نقل صفائح من الدم المناسب لها . . ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تجرى فيها عملية نقل صفائح دموية فى مصر ، وقد استغرقت تلك العملية ٣ ساعات ، وبعد ذلك بيومين اكتشف الأطباء وجود تحسن عام ومستمر فى صحة أم كلثوم . . إلا أنه وبعد ثلاثة أيام من تحسن صحتها ، وارتفاع حالتها المعنوية ، استيقظت أم كلثوم على صداع شديد . . وعندما وصل الدكتور زكريا الباز رئيس فريق الأطباء المعالجين إلى منزلها بالزمالك وجدها فى غيبوبة تامة . فتقرر نقلها فوراً إلى المستشفى وهناك أدخلوها غرفة الإنعاش . . وكان توصيف الحالة طبياً هو حدوث نزيف مفاجئ فى المخ مع نوبة قلبية ! .

ولقد ظلت أم كلثوم تحت العناية المركزة ليل نهار ، إلا أن حالتها لم تتحسن وبالتالى عقدت اللجنة الطبية المشرفة على علاجها إجتماعاً مطولا لفحص تلك

الحالة والتشاور بشأن حالتها الأخيرة ، وإمكانية زرع كلية لأم كلثوم . . ورأت اللجنة أن حالة كوكب الشرق الصحية الحالية لا تسمح بزرع كلية لها . . فقد اكتشفوا أن مشكلتها الرئيسية أصبحت تكمن فى المخ الذى توقف عن العمل رغم كل الجهود الطبية المتواصلة . وبالتالى أصبحت حالتها حرجة للغاية ! .

وفى صباح اليوم التالى لإصابتها بإنفجار فى المخ ، أجريت لها التحاليل الطبية على وظائف الكلى وكيمياء الدم ، ودلت هذه التحاليل على أن كليتها تعمل بمستواها الطبيعى ، إلا أن الحالة ظلت مخيفة وتنذر بالخطر وبالوفاة ، وقد ظلت أم كلثوم فى غيبوبة لليوم الثالث على التوالى ، كما أكد الأطباء المتابعون لحالتها داخل غرفة الإنعاش بأن النزيف الذى أصاب مخ أم كلثوم قد أحدث تلفاً دائما فى خلايا المخ وبالتالى غير قابل للشفاء .

وظلت أم كلثوم تصارع المرض عدة أيام حتى رحلت عن عالمنا فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الأثنين ٥ فبراير عام ١٩٧٥ ، وكان أول خبر أذيع عن وفاة كوكب الشرق من الإذاعة والتليفزيون فى نشرة الساعة الخامسة .

عندئذ انضمت كل موجات الإذاعة ، ونقلت على الهواء نعى الدكتور عبد العزيز حجازى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ، ثم نعى وزير الإعلام ووزير الثقافة ، وتلا ذلك نعى المثقفين الذى قرأه المرحوم الأديب يوسف السباعى . وتناقلت وكالات الأنباء الخبر ، وأذاعته بكل لغات العالم .

وبعد لحظات أخرى قطع الراديو إرساله لإذاعة بيان وفاة أم كلثوم والتقرير الطبى المصاحب لذلك . . وقد تلاه الدكتور مصطفى المنيلاوى . . وجاء فيه : أنه فى حوالى الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر الأثنين وبعد صراع مرير مع المرض استمر حوالى مائة ساعة ، وفى منتصف ليلة الوفاة بدأ الإضطراب فى القلب واضحاً» .

وكانت أم كلثوم وفق ما جاء فى هذا التقرير قد مرت بأزمتين حادتين ، وصلت بها إلى حالة الوفاة ، حتى أن الأطباء قد استدعوا أهلها لأكثر من مرة إلى حجرة الإنعاش . وبدأت الساعات تمضى ببطء . . والأمل معلقاً فوق أبواب غرفة الإنعاش وفجأة وفى الساعة الرابعة حدث إضطراب شديد فى غرفة الإنعاش ، حين اكتشف الأطباء توقف قلب أم كلثوم ، وبعد لحظات - خرج الطبيب المسئول من هذه الغرفة - حيث أجهش بالبكاء معلناً وفاة كوكب الشرق . . أم كلثوم .

واتصل الدكتور الحفناوى زوج أم كلثوم بالمهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب فى ذلك الوقت والدكتور كمال أبو المجد وزير الإعلام حيث أبلغهما بنبأ وفاة أم كلثوم . . وبعد لحظات خرجت من الإنعاش وبدأت أسرتها تعد صيغة النعى الذى سوف تنشره فى الصحف بينما وقع على شهادة الوفاة الدكتور زكريا الباز .

وقد بدأ الوداع الأخير لأم كلثوم مع شروق فجر اليوم الجديد . . حيث تم لف الجثمان فى إحدى عشر ثوباً ، كان آخرها ثوب من الملمس الأخضر الذى يرمز إلى الأرض ، بينما قامت شقيقة الفقيدة برش زجاجة ماء كان الأمير عبد الله الفيصل قد بعث بها من السعودية من بئر زمزم مع كمية من البخور .

ووصل جثمان أم كلثوم إلى جامع عمر مكرم فى السادسة وعشر دقائق صباحاً فى سيارة إسعاف . . كانت تسبقها على كورنيش النيل سيارة مرور تعكس إشارات الضوء الأحمر ، لحنا حزيناً . .

وفى الحال تم وضع الجثمان فى داخل النعش الذى تم لفه بغطاء حريرى أمام محراب الجامع الذى أغلق أبوابه حتى بدأت صلاة الجنازة فى العاشرة والنصف صباحاً .

كما أخليت ساحة المسجد مرة أخرى استعداداً لبدء موكب الجنازة . وكانت الآلاف من الجماهير قد أخذت مكانها على طول الطريق المقرر أن تقطعه الجنازة منذ الساعات الأولى من الصباح ، ومع اقتراب الحادية عشرة المحددة لبدأ سير الجنازة كانت كل شوارع القاهرة قد تحولت إلى كتل بشرية ! .

وفى السرادق الكبير الذى كان يتسع لألف شخص بدأ وصول كبار رجال الدولة منذ الثامنة والنصف صباحا . . وعل امتداد أكثر من ساعة بدأ الإعداد لتنظيم سير الجنازة ، على أن يتقدمها العاملون بشركات الإسطوانات ثم فرقة موسيقى الأمن المركزى التى شارك فيها ١٥٠ عازفاً ، ثم حملة الزهور الذين بلغ عدده ٥٢ من حملة باقات الزهور . ثم جثمان الفنانة الراحلة ، الذى يتبادل حمله رجال من شرطة المطافىء . . ثم كبار رجال الدولة .

وفى الحادية عشرة صباحاً أعطيت إشارة البدء لفرقة موسيقى الأمن المركزى فانساب لحنها الجنائزى . . وبعدها بدأ موكب الجنازة يتحرك من أمام جامع عمر

مكرم إلى ميدان التحرير . . ولكن لحظات حتى وصل الجثمان بالفعل إلى ميدان التحرير . . فتغير النظام الذى وُضع لسير الجنازة . . وهجم الناس على نعش أم كلثوم ، فرفعته الجماهير على أكتافها بدلاً من رجال المطافئ ، وأخذت تتبادله واحداً تلو الآخر . . بعدها إنساب الموكب الحزين فى طريق آخر غير الطريق الذى كان مقرراً له من قبل إلى شارع قصر النيل ثم إلى ميدان الأوبرا ، فميدان العتبة فميدان الحسين . . ومن ميدان الحسين إلى مدافن الأسرة فى البساتين . حيث الحوش الذى يقع فيه المدفن وهو مواجه لمدفن الزعيم مصطفى النحاس بشارع فؤاد سراج الدين المتفرع من شارع الموردى بمنطقة التونسى بحى الإمام الشافعى .

***

ويأتى عبد الحليم حافظ فى المرتبة الثالثة من حيث حديث الرحيل . . وكانت جنازته وموكب وداعه بحق يضاهى ما كان للزعيم عبد الناصر وكوكب الشرق أم كلثوم من حيث مكانته لدى الجماهير التى انطلقت وراء جثمانه فى موجة أشبه بالسيل . على الرغم من أن هذا الفنان جاء فى الترتيب الرابع من حيث الشهرة ومن حيث الميلاد !

وكما نعرف فإن رحيل عبد الحليم حافظ لم يكن مفاجئاً لكثير من أحبائه وأصدقائه وأهله وعشيرته ، بل لم يكن مفاجئاً حتى لنفسه . إذ كان يعرف مسبقاً وفق حالته الصحية أنه كان سوف يعيش حياة قصيرة . بل وأكثر من ذلك لم يكن عبد الحليم حافظ ببعيد عن مسار ذلك الموت . . وهو ما يزال فى سن مبكرة من حياته . وذلك عندما بدأت تلاحقه الكوارث أينما ذهب ! . كما لم يتخل عنه الحظ السيئ إلا حينما بدأ يفرد ذراعيه ليطير بهما عن طريق موهبة صوته فى شارع الفن وذلك مع مطلع عام ١٩٥٣ ، وكما سبق وأسلفنا ذلك ! .

وكانت من أولى الكوارث التى عاصرها عبد الحليم فى حياته المبكرة ، عندما كسرت ساقه اليسرى على أثر سقوط باب ضخم على قدمه وهو لا يزال فى الثامنة من عمره ! . كما تعرضت نفس الساق لكسر مضاعف مرة ثانية وهو فى الحادية عشرة من عمره ! ، على أثر سقوطه من فوق أحد الأسوار التى حاول أن يتسلقها . مع بعض زملائه ، وتسبب ذلك الحادث فى إصابته بكسر فى العامود الفقرى جعله يقيم نحو سبعة أشهر بالمستشفى .

ولم تتوقف الكوارث فى حياة عبد الحليم المبكرة ، بل واصل الحظ مساره السيئ فى هذه الحياة . . إذا أصيب بمرض لبلهارسيا على إثر استخدامه لمياه الترعة فى الإستحمام والسباحة ! . ولما أهمل علاجه ظل المرض كامنا داخل أحشائه يفتك بها رويداً رويداً . . حتى كان من أهم أسباب إصابته بالعشرات من حالات النزيف الحاد ، وكان موعده مع أول نزيف من هذا النوع فى عام ١٩٥٤ . وعندما بدأ ظهور نجمه الفنى وتألقه فى سماء الحياة .

ولقد اكشتفنا من واقع متابعة متأنية أن قصة مرض عبد الحليم حافظ ، وهى قصة تستحق من كل من يقرأها التقدير والتحية . . ذلك لأنها أثبتت مدى الظلم الذى تعرض له هذا الفنان رغماً عنه . ورغم ذلك فقد تمكن من كبح جماح هذا المرض . . والتغلب على كل آلامه الشديدة من أجل عيون الفن الذى عشقه حتى الموت . ونراه لذلك أيضا قد تحمل الشيء الكثير داخل دائرة هذا المرض الملعون . . الذى قضى على أمعائه وكبده فى نهاية المطاف !! . إذ تمسك بالحياة حتى آخر أنفاسه ، بل وتمسك بالأمل فى الشفاء رغم خطورة الحالة .

ولا شك أن الوقوف وإياكم معنا على تفاصيل قصة مرض هذا الفنان القدير ، خاصة بالبلهارسيا والساعات المؤلمة التى عاشها من قبل الرحيل ، سوف توضح لنا ذلك وأكثر . ولقد اهتم العشرات من المؤرخين بتسجيل قصة هذا المرض وقصة اللحظات الأخيرة فى حياته ، وإن اختلف بعضهم فى ذكر بعض التفاصيل المرتبطة ببداية إصابته بأول نزيف . . وهل كان ذلك فى عام ١٩٥٤ أم فى عام ١٩٥٦ ؟! .

وبعيداً عن التمسك بالتواريخ التى قد تكون عديمة الفائدة فى مثل هذه الحالات ، نشير إلى أن عبد الحليم حافظ فوجئ ولأول مرة بإصابته بنزيف حاد فى إحدى أيام بدايات حياته الفنية . . وقد نقل على أثر ذلك إلى إحدى المستشفيات خارج مصر . . وكانت النتيجة هو إجراء أو عملية جراحية لإستئصال جزء من معدته !! .

وفى لندن كذلك اكتشفوا أنه كان مصابا بتليف فى الكبد ، ومضى عبد الحليم حافظ خلال هذه الفترة أكثر من مائة يوم بالمستشفى الإنجليزى حتى شفى تماماً من تأثير تلك الجراحة ، وعاد إلى مصر لكى يستأنف نشاطه الفنى مرة أخرى ! . وقد علم من بعض أصدقائه أن حالته الصحية فى ذلك الحين كانت خطيرة جداً ، وأنه كان على وشك الموت لولا تدخل العناية الإلهيـة فى الوقت المناسب . عندئذ بدأ

الشك يراوده من جديد فى عدم إمكانية أن يعيش لسنوات طويلة . . لذلك أخذ يردد دائما بأن إحساسه يقول له «إنه سوف يموت فى سن مبكرة» ! .

ورغم أن هذه الجراحة الخطيرة قد أنقذته من الموت المؤكد ، إلا أنها لم توقف النزيف الذى بدأ يهاجمه بشراسة فى كل حين ! ، وحتى مشارف عام ١٩٧٧ . . وقد أجرى خلال هذه الفترة الطويلة أكثر من تسعة عشرة عملية جراحية لإيقاف ذلك النزيف ، بلا جدوى كما تجول خلال الفترة نفسها بين مستشفيات أوروبا وأمريكا حتى حط به القدر لآخر مرة فى مستشفى «لينجز كولدج» بلندن . . والتى أقام بها شهرين بدءاً من يناير عام ١٩٧٧ إلى أن توفى بها .

وكانت الليلة الأخيرة من قبل رحيل عبد الحليم حافظ وفق مارواه الأهل والأصدقاء من الذين حضروها وعايشوا أحداثها . . مليئة بالآلام التى عذبت هذا الفنان . . حتى أنفاسه الأخيرة ، وكان مصدرها ذلك النزيف الحاد الذى صاحبه آلام حادة فى كل أجزاء جسده . . كما سبقتها أيام وليالى أكثر ألماً وصعوبة ، عندما أخبروه بضرورة زرع كبد ، وكانت تلك العمليات فى وقتها فى غاية الخطورة وغير مأمونة النتائج ! . لذلك أراد الأطباء أخذ موافقة كتابية من إخوته . . فرفضوا ذلك ، وبات الأمر متوقفا على لحظات بعينها يرحل من بعدها عبد الحليم حافظ عن دنيانا .

وبالفعل شعر هذا الفنان رقيق الإحساس بدنو أجله فطلب أن يكتب وصيته ! ، وفى هذه الليلة التى سبقت رحيله اشتد عليه النزيف خاصة من المرئ فأدخلوه غرفة العمليات على الفور لأخذ عينة جديدة من المرئ وتحليلها . . عن طريق حقنة ، ثم أصابه نزيف آخر بعد خروجه من غرفة العمليات ، هذا النزيف الذى كان المقدمة القوية لرحيله إذ فشلت معه كل محاولات الأطباء لإيقافه ، ولذلك أخذ عبد الحليم ينزف على مدى ٣ ساعات حتى أسلم الروح ! ، وكانت بجانبه أخته الكبيرة «عليه» وابن خاله «شحاته» ، وصديقه «مجدى العمروسى» .

وقد أذاعت إدارة المستشفى تقريراً طبياً فور رحيل عبد الحيلم حافظ وصفت فيه الحالة المرضية الأخيرة التى أصابته ونتج عنها رحيله . . ومما ذكره هذا التقرير : «أن مرض البلهارسيا الذى أصيب به عبد الحليم حافظ فى بداية حياته أدى إلى تليف الكبد . . هذا التليف تسبب فى إرتفاع فى ضغط الدورة البابية للكبد ، مما أدى إلى حدوث دوالى أدت إلى نزيف حاد . .

وأشار التقرير إلى أن عبد الحليم قد أصيب عدة مرات بهذا النزيف ، كما أجريت له عدة عمليات حقن متكررة للدوالى ، وأخيراً عندما أجريت له عملية نقل دم ، أصيب بإلتهاب كبدى آخر أدى إلى هبوط حاد فى وظائف الكبد . . وقد مات عبد الحليم نتيجة لنزيف حاد من الدوالى برغم حقنه المتكرر ! .

وعلى إثر إعلان وفاة عبد الحليم تم إستخراج شهادة وفاة له وقعها طبيبه الإنجليزى المعالج «د . وليام روجرز» . . ثم تقرر نقله إلى القاهرة بطائرة . . حيث وصل جثمانه فى الواحدة والنصف صباحاً . . وظل ليلة كاملة بمسجد عمر مكرم ، حيث تم تجهيز جثمانه استعداداً لبدء مراسم الوداع الأخير فى الصباح التالى .

وفى الساعة العاشرة بدأت تلك المراسم عندما تم تجهيز سيارة مشكوفة وضعت فوقها صورة للفقيد بالحجم الطبيعى ، وقد قدمت لنا العديد من الصحف التى صدرت بعد يوم الرحيل . . وصفا تفصيليا لموكب الوداع للفنان عبد الحليم حافظ . . وكان من أدق هذا الوصف . . ما نقلته جريدة الأهرام التى بدأت حديثها عن هذا الوداع . . منذ أن بداية الاستعدادات لتشييع الجنازة . . ثم تدفق الجماهير من الساعة الثامنة صباحا من الذين وفدوا من كل أنحاء مصر واحتلوا ميدان التحرير . . وكان اللواء النبوى إسماعيل نائب وزير الداخلية فى ذلك الوقت يشرف بنفسه على هذه الاستعدادات ، وقبل بدء الجنازة حضر ممدوح سالم رئيس الوزراء إلى السرادق المقام بالقرب من المسجد استعداداً للتحرك . حيث إصطف حملة أكاليل الزهور . .

وفى الساعة الحادية عشرة إلا عشر دقائق . . خرج نعش عبد الحليم حافظ من المسجد محمولاً فوق أكتاف بعض الفنانين . . وبعد أن تمت صلاة الجنازة وضُع فى العربة المكشوفة وقد غطيت جوانبها بالزهور ، وفى الساعة الحادية عشرة تحرك الموكب ، حيث سار أمام عربة النعش عشرة صفوف من جنود الشرطة وحملة باقات الورود . . كما سار جثمان عبد الحليم حافظ فى موكب جنائزى مهيب ، . . وفى ميدان التحرير تقدمت السيارة التى كانت تحمل الجثمان بخطوات بطيئة وخلفها المشيعون الذين احتشدوا بالآلاف فوق كبارى المشاة العلوية وفى الشرفات المطلة على الميدان وأسطح العمارات .

وعندما وصل موكب الوداع إلى جامع شركس الذى يقع فى منتصف شارع صبرى أبو علم قدم مندوب الرئيس ورئيس الوزراء وكبار المسئولين العزاء لأسرة الفقيد . . ثم انطلقت السيارة بالجثمان وخلفها سيارة إسعاف مخترقة جموع

المواطنين متجهة إلى البساتين حيث مقبرة عبد الحليم حافظ . . والتى تقع بشارع الرحمة خلف مسجد الدنداروى .

***

وفى مساء يوم ٤ مايو عام ١٩٩١ . . ودعنا الفارس الأخير من فرسان عمالقة الفن محمد عبد الوهاب . رغم أن ترتيبه فى موكب الشهرة والمواليد كان رقم واحد ! . ومن قبل رحيله بأيام تعرض لحادث سقوط فى منزله نقل على أثره إلى المستشفى للعلاج ، إذ كان قد أصيب بكسر فى ضلوعه ، نتيجة لأمراض الشيخوخة التى أصابته فى كبر سنه !

وعلى الرغم من تأكيد الأطباء أن هذا الحادث لم يكن له أى علاقته برحيل عبد الوهاب . . إلا أننا نؤكد أنه كان فى واقع الأمر هو المقدمة القوية لذلك الرحيل! ، على الأقل داخل نفس عبد الوهاب ، رغم أنه لم يصرح لأحد بذلك ! .

وكان عبد الوهاب وكما سبق وأوضحنا من أكثر الفنانين حرصاً على صحته . . إذا أخذ على نفسه عهداً بضرورة الالتزام بنظام غذائى وطبى معين والبعد عن كل ما يصيب الإنسان بالهموم والمشاكل . ! . ولذلك نراه قد أفلح كثيراً فى الإبتعاد عن مشاكل هذه الأمراض التى كانت تصيب غيره من الفنانين ! . مما جعله يحتفظ بصحته جيدة حتى سنوات قريبة من قبل الرحيل ! .

ولقد اكتشف الأطباء أن سبب وفاة عبد الوهاب الرئيسى هو إصابته ولأول مرة فى حياته بجلطة مفاجئة سببت له أزمة قلبية توفى على أثرها ! .

ويصف لنا أحد الأطباء المعالجين لعبد الوهاب هذه الساعات الأخيرة فى حياته إذ ظل بجواره حتى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء . . أى قبل وفاته بساعة واحدة فقط . . فيقول : «كان محمد عبد الوهاب فى غاية المرح ، متفائلاً خاصة بعدما إطمأن بأن الآلام الناتجة عن حادث سقوطه تتلاشى بسرعة» . وقال هذا الطبيب ، وفق روايته أنه لم يترك عبد الوهاب إلا بعد ما تناول عشاءه الأخير بمساعدة زوجته السيدة نهلة القدسى وإبنيه محمد وأحمد .

وفى حوالى الساعة الثانية عشرة والنصف كان عبد الوهاب لا يزال جالساً فوق كرسيه المتحرك . . عندئذ بدأ يسعل عدة مرات متتالية مع شهقة أعطت إحساساً لمن كانوا حوله بأن نفسه مكتوم . . فأسرع ابنه الأصغر أحمد لإحضار الطبيب ، إلا أن عبد الوهاب قد لفظ أنفاسه الأخيرة وابنه لم يغادر بعد باب الشقة ! .

وعلى الفور تم نقله إلى إحدى المستشفيات الخاصة على أمل إجراء إسعافات أولية تساهم فى إعاد الروح إليه ، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل . عندئذ تم إبلاغ الجهات الرسمية بوفاة محمد عبد الوهاب الموسيقار والمطرب وعضو مجلس الشورى ، كما أعلنت المستشفى فى التقرير الطبى المصاحب للوفاة : أن وفاته حدثت نتيجة لهبوط حاد فى الدورة الدموية والنفسية نتج عنها إخفاق مفاجئ فى حركة القلب ، مما أدى إلى الوفاة !!

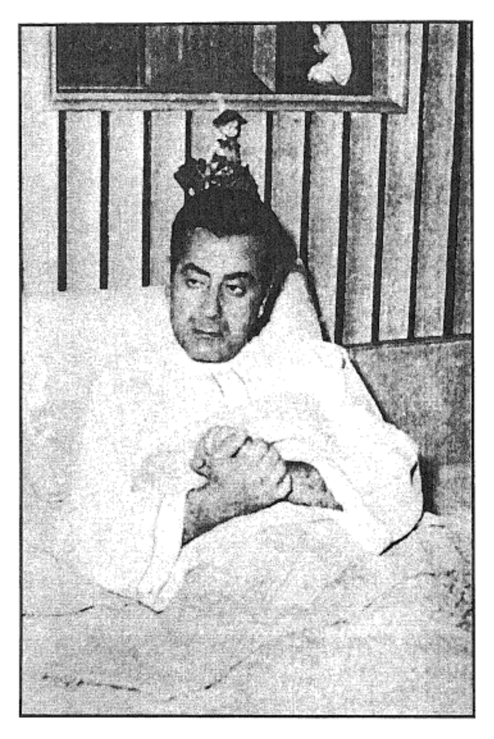
وظل عبد الوهاب فى المستشفى حتى صباح اليوم التالى . . وفور الإعلان عن الوفاة . أصدر الرئيس مبارك أمراً بأن تكون جنازته عسكرية . . وبالفعل خرجت تلك الجنازة من مسجد رابعة العدوية ، بدلا من جامع عمر مكرم . وصار خلف موكبه مجموعة كبيرة من زملائه من الفنانين وأفراد أسرته وأبنائه ، وبعض محبيه . . إلى جانب مندوب عن الرئيس مبارك . وبعد إجراء مراسم الدفن فى حى البساتين . . أطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة تحية للفقيد .

ودفن عبد الوهاب فى مدفن الأسرة والذى أقامه والده فى عام ١٩٤٨ . وهو يقع خلف حوش ومدفن الأميرة شويكار الزوجة السابقة للملك فؤاد .





● الوداع يا مصطفى !!



● على فراش المرض.. من قبل الرحيل !



● رحلة إلى المجهول.. ثم بعدها الرحيل.



● وقبل موته بساعات.. حقنة إنقاذ.. ربما!!

ملحق خاص:

نماذج من أغنيات
الأربعة الكبار



أراك عصى الدمع

شعر أبى فراس الحمدانى وتلحين عبده الحامولى

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهى عليك ولا أمر

نعم أنا مشتاق وعندى لوعة ... ولكن مثلى لا يذاع له سر

إذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى ... واذللت دمعاً من خلائقه الكبر

تكاد تضئ النار بين جوانحى ... إذا هى أذكتها الصبابة والفكر

معللتى بالوصول والموت دونه ... إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

وقالت لقدى أذرى بك الدهر بعدنا ... فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهر

●●●

الصب تفضحه عيونه

تأليف أحمد رامى وتلحين الشيخ أبو العلا محمد

الصب تفضحه عيونه ... وتنم عن وجد شئونه

إنا تكتمنا الهوى ... والداء أقتله دفينه

يهتاجنا نوح الحمام ... وكم يحركنا أنينه

وتحمل القبل النسيم ... فهل يؤديها أمينه

قست القلوب فهل لقلـ ... ـبك يا حبيبى من يلينه

فتريح قلبا مدنفاً ... أسوان لا تغفى شجونه

مرت عليه الذكريا ... ت فطال الماضى حنينه

وأنا نجيك والذى ... يسقيك من ودى هتونه

وبى الذى بك يا ترى ... سرى وسرك من يصونه

أقصر فؤادى

تأليف أحمد رامى وتلحين الشيخ أبو العلا محمد

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة

ولا بشافعة فى رد ما كانا

سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا

حمل الصبابة فاخفق وحدك إلانا

هلا أخذت لهذا اليوم أهبته

من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا

لهفى عليك قضيت العمر مقتحما

فى الوصل نارا وفى الهجران نيرانا

●●●

رق الحبيب

تأليف أحمد رامى وتلحين محمد القصبجى

رق الحبيب وواعدنى يوم وكان له مده غايب عنى

حرمت عينى الليل م النوم لاجل النهار ما يطمنى

صعب علىّ أنام أحسن أشوف فى المنام

غير اللى يتمناه قلبى

سهرت أستناه واسنع كلامى معاه

وأشوف خياله قاعد جنبى

من كتر شوقى سبقت عمرى وشفت بكره والوقت بدرى

وإيه يفيد الزمن مع اللى عاش فى الخيال

واللى فى قلبه سكن أنعم عليه بالوصال

طلع علىّ النهار سهران فى نور الأمل

وغنت الأطيار لحن الهوى والغزل

وفضلت افكر فى ميعادى واحسب لقربه ألف حساب

وكان كلامى مع أصحابى عن المحبة والأحباب

من فرحتى بدى اتكلم واقول حبيبى مواعدنى

لكن أخاف ليكون بينهم مظلوم فى حبه يحسدنى

هجرت كل خليل لىّ وفضلت عايش مع روحى

يمكن يبان شىء ف عينىّ من كتر خوفى على روحى

ولما قرب ميعاد حبيبى ورحت أقابله

هنيت فؤادى على نصيبى من قرب وصله

ولقيتنى طايل م الدنيا كل اللى أهواه

بس اللى كان فاضل لىّ أسعد بلقاه

لما خطر ده على فكرى حير أمرى

والقرب سبب تعذيبى

ولقيتنى خايف على عمرى ليروح منى

من غير ما أشوف حسن حبيبى



ليه تلاوعينى

كلمات أحمد رامى وتلحين محمد القصبجى

ليـه تلاوعـينى وانت نور عـينى — إيه جـرى بينك فى الهـوى وبينى

ليه تلاوعنيى

لما حـبيـتك وانضنى حـالى — انعـدم نومى وانشـغل بالى

وان شكيت وجـدى ينظلم حـالى — إيه جـرى بينك فى الهـوى وبينى

ليه تلاوعنيى

ليـه تكايدينى كل مـا اتكلم — ليـه تحـاورينى والفـؤاد سلم

كل دى يخلى قلبى يتـألم — إيه جـرى بينك فى الهـوى وبينى

ليه تلاوعنيى

الغـرام أصله نظره واتمكن — والجمـال يسـحـر والدلال يفتن

واحتـمـال بعـدك أمـر مش ممكن — إيه جـرى بينك فى الهـوى وبينى

ليه تلاوعنيى

اسمعى الشاكى وارحمى الباكى — قـضى طول عـمـره قلبـه يهـواكى

مـا افـتكر مـرة لحظة ينسـاكى — إيه جـرى بينك فى الهـوى وبينى



القطن
كلمات أحمد رامى وتلحين زكريا أحمد

القطن فتح هنى البال والرزق جه وصفالنا الحال

اجمعوه خيره مالناش غيره

يغنى البلد وينهى الحال

***

أبيض منور على عوده يحيى الأمل عند وجوده

جل اللى يبديه ويعيده ويغير الحال بعد الحال

***

كانت له يوم شنه ورنه عمر بيوتنا وصهللنا

يارب تحيى لنا أملنا وتخلى مصر فى أسعد حال

***

يا اللى سهرت الليل ترعاه وفضلت تروى وتستناه

آن الأوان والخيرّ أهو جاه يا رب جود واسعد دى الحال



ثــوار

كلمات عبد الفتاح مصطفى - تلحين رياض السنباطي

ثوار . . ولآخـــــر مـــــدى ثوار   مطرح مـــا نمشى يفـــتح النوار
تنهض فى كل صباح بحلم جديد   ثوار نعـيـــدك يا انتـــصـــار وتزيد
وطول ما إيد شعب العرب فى الإيد   الثـــورة قـــايمة والكفـــاح دوار

***

مـن أرضـنـا هـل الإيمان والـديـن   عـيسى ومحـمـد ثورتين خـالدين
والعلم ثورة ومن هنا قـــامت   والفن والحـــرية والتـــمـــدين

ثوار نـهـــــزك تاريخ تـنـطـلـق
نحكم عليك يا مستحيل تتخلق
والخطوة منا تـســبق المواعـيـــد

وطول ما إيد شعب العرب فى الإيد   الثـــورة قـــايمة والكفـــاح دوار

***

الشعب قام يسأل على حقوقه   والثـورة زى النبض فى عـروقـه
اللى النهارده يحـقـقه ويرضـاه   لابد بكره بهـمـتـه يفـوقـه

ثوار مع البطل اللى جـابه القــدر
رفــعنا راسنا لفـــوق لما ظهـــر
لمسنا الســمـــا وياه ودسنا الخطر
والعـــزم ثابت والعـــزيمة حـــديد

وطول ما إيد شعب العرب فى الإيد   الثـــورة قـــايمة والكفـــاح دوار

***

تعـــالوا يا أجـيـــال يا رمــز الأمل   من بعـد جيلنا واحـملوا مـاحـمل
وافـتكرو فـينا واذكـرونا بخـيـــر   مع كل غنوه من أغـانى العـــمل

هيـــــــــلا هيـــــــــلا	ثورتنا عـــمل وجـــهـــاد
هيـــــــــلا هيـــــــــلا	هبـــوا واصنعـــوا الأمـــجـــاد
هيـــــــــلا هيـــــــــلا	وابنوا فـــوق بنا الأجـــداد
أول طريقنا بعـــــيـــد	وآخـــــره بعـــــيـــد
وطول ما إيد شعب العرب فى الإيد	الثـــورة قـــايمة والكفـــاح دوار
ثـــــوار ثـــــوار	ولآخـــــر مـــــدى ثوار

●●●

بالسلام وبالمحبة

تأليف محمود بيرم التونسى وتلحين رياض السنباطى

بالســـلام احنا بدينا بالســـلام
ردت الدنيـــا علينا بالســـلام

بالســلام وبالمحـبـة الدنيـا تحـيـا	ليه نفرق ناس فى ناحية وناس فى ناحية
مـهـمـا كنا ومـهـمـا كنتم	من حقوقنا احنا وانتم الحياة والاحترام

***

للحـبـايب احنا مـدينا الأيادى	رحـبـت بينا الأم من كل وادى
تحـيـا فى النور كل أمـة	والحـقـيـقـة نشـوفـهـا لما

نبـتـعـد عن الظلام

***

يا سـلام كلمـه واحـده يا جمالها
يا سـلام لما راح جمـال وقالها
جـوهره فى الدنيـا كـانت
مـسـتـخـبـيـه وبانت

الزعيم والثورة

كلمات عبد الفتاح مصطفى - تلحين رياض السنباطى

الزعــيم والثــورة وفــوا بالعــهــود لــه دور الشــعب يوفى بالجــهــود

بالإرادة والعـــزيمة نبنى أمتنا العظيمة

كلنا نرفع ونبنى مجد أمتنا العظيمة

والعـــمل هو رايتنا والعـمل هوه غـايتنا

أمــه بتنور طريقـــهـــا للأمـــام

كل خطوة تســـبق الأيام بعـــام

كنا بنقـول البلد خيـرها لغيـرها أدى خـــيـــــرها عـــــاد إلينا

كنا بنقول الدخيل مالك مصيرها المصـــــيـــــر أهو بين إيدينا

كنا بنقـــول الطغـــاة ظالمين شلنا عـــمـــــالنا ف عنينا

نلنا بالثورة الأمل والأمل روح العمل

ارفــعـــوا الشــعلة تنور فى الظلام

ارفــعــوها واســبــقــوا الأيام بعــام

كل عيد اهدوا جمال نهضة من روحه وآماله

اصنعوها بالنضــال حققوا كل اللى قاله

العمل أجمل تحيه العـمل أغلى هديه

تقــدمــوها للزعــيم فى كل عــام قــدمــوها للزعــيم فى كل عــام

الأطـــلال

كلمات: إبراهيم ناجى وألحان رياض السنباطى

يا فؤادى لا تسل أين الهوى كان صرحا من خيال فهوى

إسقنى واشرب على أطلاله واروعنى طالما الدمع روى

كيف ذاك الحب أمسى خبرا وحديثا من أحاديث الجوى

لست أنساك وقد أغريتنى بفم عــذب المناداة رقــيق

ويد تمتــد نحــوى كــيــد من خلال الموج مدت لغريق

وبريق يظمــأ الســارى له أين فى عينيك ذياك البريق

يا حــبيبــا زرت يوماً أيكه طائر الشـــوق يغنى إلمى

لــك إبطاء المدل المنعم وتجنى القــادر المحــتكم

وحنينى لك يكوى أضلعى والثوانى جمرات فى دمى

اعطنى حـــريتى ، أطلق يديا

إننى أعطيت ، ما استبقيت شيئا

آه من قـيـدك أدمى مـعـصـمى

لـم أبقـيـــه ومـــا أبقى عليـــا

مـا احتفاظى بعهود لم تصنها

وإلام الأســـر ، والدنيـــا لديا

أين من عـينى حـبيب ســاحـر

فــيـــه عــز وجـــلال وحـــيـــاء

واثـق الخـطـوة يمشــى مـلـكـا

ظالـم الحسن ، شـجى الكبـرياء

عـبق السـحـر كـأنفـاس الرُبى

ســاهم الطرف كـأحـلام المســاء

أين منى مجلس أنت به　　فتنة تمت سناء وسنا
وأنا حب وقلب هائم　　وفراش حائر منك دنا
ومن الشوق رسول بيننا　　ونديم قدم الكأس لنا
هل رأى الحب سكارى مثلنا　　كم بنينا من خيال حولنا
ومشينا فى طريق مقمر　　تثب الفرحة فيه قبلنا
وضحكنا ضحك طفلين معا　　وعدونا فسبقنا ظلنا

واتتبهنا بعد ما زال الرحيق
وأفقنا ليت أنا لا نفيق
يقظة أطاحت بأحلام الكرى
وتولى الليل ، والليل صديق

وإذا النور نذير طالع　　وإذا الفجر مطل كالحريق
وإذا الدنيا كما نعرفها　　وإذا الاحباب ، كل فى طريق
أيها الشاعر تغفو　　تذكر العهد وتصحو
وإذا ما التأم جرح　　جد بالتذكار جرح
فتعلم كيف تنسى　　وتعلم كيف تمحو
يا حبيبى كل شىء بقضاء　　ما بأيدينا خلقنا تعساء
ربما تجمعنا أقدارنا　　ذات يوم ، بعد ما عز اللقاء
فإذا أنكر خل خله　　وتلاقينا لقاء الغرباء
ومضى كل الى غايته　　لا تقل شئنا ، فإن الحظ شاء

عرفت الهوى

تأليف: طاهر أبو فاشا - تلحين: رياض السنباطي

عرفت الهوى مذ عرفت هواكا   وأغلقت قلبى عمن عداكا

وقمت أناجيك يا من ترى   خفايا القلوب ولسنا نراكا

أحبك حبين .. حب الهوى   وحباً لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى   فشغلنى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له   فلشغل لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فى ولا ذاك لى   ولكن لم الحمد فى ذا وذاكا

أحبك حبين .. حب الهوى   وحب لأنك أهل لذاكا

واشتاق شوقين .. شوق النوى   وشوقا لقرب الخُطى من حماكا

فأما الذى هو شوق النوى   فمسرى الدموع لطول نواكا

وأما اشتاقى لقرب الحمى   فنار حياة خبت فى ضياكا

ولست على الشجو أشكو الهوى   رضيت بما شئت لى فى هداكا



سيرة الحب

تأليف: مرسى جميل عزيز - تلحين بليغ حمدى

طول عمرى باخاف م الحب وسيرة
الحب وظلم الحب لكل أصحابه
واعرف حكايات مليانة آهات ودموع
وأنين والعاشقين دابوا ما تابوا
طول عمرى با أقول لا أنا قد الشوق
وليالى الشوق ولا قلبى قد عذابه
وقابلتك أنت حبيتك بتغير كل حياتى
ما أعرفش إزاى حبيتك ما أعرفش إزاى يا حياتى
من همسة حب لقيتنى با أحب وأدوب
فى الحب وصبح وليل على بابه
فات من عمرى سنين وسنين
شفت كتير وقليل عاشقين
اللى بيشكى حاله لحاله واللى بيبكى على مواله
أهل الحب صحيح مساكين
يا ما نده على قلبى ما ردش قلبى جواب
ياما الشوق حاول يحايلنى
وأقول له روح يا عذاب
يا ما عيون شاغلونى لكن ولا شغلونى
وبحبك أمرونى
إلا عيونك أنت دول بس اللى خدونى
أمرونى أحب لقيتنى با أحب وأدوب
فى الحب وصبح وليل على بابه

يا للى ظلمتو االحب وقلتوا وعدتوا عليه مش عارف إيه
العيب فيكم يا ف حبايبكم أمـا الحب ياروحى عليـه
فى الدنيا مفيش أبدا أبدا أحـلـى مـن الحـب
نتعب نغلب نشتكى منه لـكـن بـنـحـب
يا سلام ع الحب وتنهيده فى وصـال وفـراق
وشموع الشوق لما يقيدوا ليل المشـتـاق
يا سلام الدنيا وحلاوتها فى عين العـشـاق

وأنا خدنى الحب لقيتنى با أحب وأدوب

فى الحب وصـبح وليل على بابه

يا للى مليت بالحب حياتى أهدى حـيـاتى اليك
روحى . قلبى . عقلى . حبى كـلـى مـلـك ايـديـك
صوتك نظراتك . همساتك شىء مش مـعـقـول
شىء خلى الدنيا زهور على طول وشـمـوع على طول
الله يا حـبـيـبى على حـبـك وهنايا مـعـاه
ولا دمـعـة عين جـرحت قـلـبى ولا قـولـة آه
مـا باقـولش فى حـبك غـيـر الله .. الله .. الله

وأنا خدنى الحب لقيتنى با أحب وأدوب

فى الحب وصـبح وليل على بابه



سهران لوحدى

تأليف: أحمد رامى - تلحين: رياض السنباطى

سهران لوحدى أناجى طيفك السارى

سابح فى وجدى ودمعى ع الخدود جارى

نام الوجود من حواليا وأنا سهران فى دنياى

أشوف خيالك فى عنيه واسمع كلامك وياى

أتصور حالى أيام وليالى مرت على بالى

ما بين نعيمى وأنس الروح ساعة رضاك

وبين عذابى وطول النوح أيام جفاك

كل اللى شفته خطر على البال

وعشت فيه هايم ولهان

ولما بعدك عنى طال حنيت لأيام الهجران

وسهرت وحيد والفكر شريد

أتصور حالى .. أيام وليالى مرت على بالى

ياللى رضاك أوهام والسهد فيك أحلام

حتى الجفا محروم منه يا ريتها دامت أيامه

كان عهد جميل حاسد وعزول

والبال مشغول

راحت عوازلى وحسادى وطفيت النار

ياللى صبرت على بعادى وأنا عقلى احتار

لا يوم وصالك .. هنانى

ولا هجر منك .. بكانى

يا طول عذابى وحرمانى

سهران لوحدى أناجى طيفك السارى

سابح فى وجدى ودمعى ع الخدود جارى

أنت عمرى

تأليف: أحمد شفيق كامل - لحن: محمد عبد الوهاب

رجعونى عينيك لأيامى اللى راحوا
علمونى أندم على الماضى وجراحه
اللى شفته قبل ما تشوفك عينيه
عمرى ضايع يحسبوه إزاى علّى
أنت عمرى اللى ابتدى بنورك صباحه
قد أيه من عمرى راح وعدى
يا حبيبى قد أيه من عمرى راح
ولا شاف القلب قبلك فرحة وحده
ولا داق فى الدنيا غير طعم الجراح
إبتديت دولوقتى بس أحب عمرى
إبتديت دولوقت أخاف لا العمر يجرى
كل فرحة أشتقها من قبلك خيالى
إلتقاها فى نور عينيك قلبى وفكرى
يا حياة قلبى يا أغلى من حياتى
ليه ما قابلنيش هواك يا حبيبى بدرى
اللى شفته قبل ما تشوفك عينيه
عمر ضايع يحسبوه إزاى على
أنت عمرى اللى ابتدى بنورك صباحه
الليالى الحلوة والشوق والمحبة
من زمان والقلب شايلهم عشانك
دوق معايا الحب دوق حبة حبة
من حنان قلبى إللى طال شوقه لحنانك

هات عـينيك تسـرح فى دنيـتـهم عنيـه
هات أيديك ترتاح للمســتــهم إيديه
يا حـبـيـبى تعـالى وكـفـاية اللى فـاتنا
هو فــاتنا يا حــبــيـب الروح شـــوية
اللى شـفـتـه قـبل مـا تشـوفك عـينيـه
عـــمـــر ضــايع تحـــســبــوه إزاى على
أنت عمـرى اللى ابتدى بنورك صباحه
يا أغلى من أيامى يا أحلى من أحلامى
خـــــدنى لحنان خـــــدنى عن الوجـــــود وابعـــــدنى
بعــــيـــــد بعــــيــــد أنا وانت بعــــيــــد وحــــدينا
ع الحب تصـــــحى أيامنا ع الشـــــوق تنام ليـــــالينا
صــــــالحت بيك أيامى ســــــامــــــحت بيك الزمن
نســــتنى بيك آلامى ونســــيت مــــعــــاك الشــــجن
رجعـونى عـينيك لأيامى اللى راحـوا
علمـونى أندم على الماضى وجـراحـه
اللى شـفـتـه قـبل مـا تشـوفك عـينيـه
عــمــر ضــايع يحــســبــوه إزاى علىّ



هذه ليلتى

شعر: جورج جرادف - ألحان: محمد عبد الوهاب

هذه ليلتى وحلم حـيـاتى بين مـاض من الزمـان وآت
الهـوى أنت كله والأمـانى فـأملا الكأس بالغرام وهات
بعـد حين يبـدل الحب دارا والعصافير تهجر الأوكار
وديار كـانت قـديما ديارا سنراها كـمـا نراها قـفـارا

سـوف تلهـو بنا الحـيـاة وتسـخـر
فـتـعـالى أحـبك الان أكـثـر
والمسـاء الذى تهـاوى إلينا
ثم أصـغى والحب فى مـقلتـينا

لسـؤال عن الهـوى وجـواب وحديث يذوب فى شـفـتينا
قـد أطال الوقـوف حين دعـانى

ليلم الأشـواق عن أجـفـانى
فادن منى وخـذ إليك حنانى ثم أغمض عينيك حتى ترانى
وليكن ليلنا طويلا طويلا فكثيـر اللقـاء كـان قليـلا

يا حـبـيـبى طاب الهـوى مـا علينا

لو حـملنا الأيام فى راحـتـينا

صـدفـة أهدت الوجـود إلينا وأتاحت. لقـاءنا فـالتـقـينا
فى بحـار تئن فـيـهـا الرياح ضـاع فـيـهـا المجداف والملاح
كم أذل الفـراق منا لقـاء كل ليل إذا التـقـينا صـبـاح
يا حبيبـا قـد طال سـهادى وغـريب مـسـافـر بفـؤادى

سهر الشوق فى العيون الجميلة
حلم أثر الهوى أن يطيل
وحديث فى الحب إن لم نقله أوشك الصمت حولنا أن يقوله
يا حبيبى وأنت خمرى وكأسى
ومنى خاطرى وبهجة أنسى
فيك صمتى وفيك نطقى وهمسى
ويومى فى هواك يسبق أمسى
هل فى ليلتى خيال الندامى والنواسى عانق الخيام
وتساقوا من خاطر الأحلام وأحبوا وأسكروا الأيام
رب من أين للزمان صباه إن غدونا وصبحه ومساه
أن يرى الحب بعدنا من حذاه
نحن ليل الهوى ونحن ضحاه
ملء قلبى شوق وملء كيانى
هذه ليلتى فقف . . يا زمانى



دار البشاير *
تأليف أحمد شوقي

دار البشاير مجلسْنا / وليل زفافك مُؤْنسْنا
إن شاء الله تفرح يا عريسنا / وإن شاء الله نفرحْ بك
على السعادة وعلى طيرها / ادخلْ على الدنيا وخيرها
فرحة تشوف فى ابنك غيرها / وتعيش لأهل ولصحْبك

***

الشمس طالعه فى التلى / ورده وعليها تُوبْ فلِى
ملحه فى عين اللى ما يصلى / ولا يقولشى تتهنى

***

حرة تصونك وتصونها / وتقوم بدارك وشئونها
وتشوف عيونك وعيُونها / دخلة ولادك والجنَّه

***

دنيا جميلة قوم خُدّها / ستك وبالمعروف سيدها
قوم يا عريسنا بوس إيدها / وصلْ واطْلُ واتمنىّ



* كل أغنيات قصائد هذه النماذج من ألحان الموسيقار محمد عبد الوهاب ! .

يا جارة الوادى

تأليف: أمير الشعراء أحمد شوقى

يا جـارة الوادى . . طربت وعـادنى

مـا يشـبـه الأحـلام من ذكـراك

مثلت فى الذكرى هواك وفى الكرى

والذكـريات صـدى السنين الحـاكى

ولقـد مـررت على الرياض ربوة

غناء كنت حـيـالهـا ألقـاك

لم أدر مـا طيب العناق على الهـوى

حـتى ترفق سـاعـدى فطواك

وتـأدوت أعطـافك بـأنك فى يدى

وأحـمـر من خـمـريهـمـا خـداك

ودخلت فى ليلين : فـرعك والدجى

ولثـمـت كـالصـبح المنور فـاك

وتعلطت لغـة الكلام وخـاطبت

عـينى فى لغـة الهـوى عـيناك

لا أمـسى من عـمـر الزمـان ولا غـد

جـمع الزمـان فكان يوم رضـاك



ياوابور قوللى

من تأليف الشاعر: أحمد رامى

ياوابور قـــوللى رايح على فين

ياوابور قـــوللى وســافــرت منين

عــمـــال تجــرى قــبلى وبحـــرى

تـنـزل وادى تـطلع كـــــوبرى

تحـــود مـــرة وبوعـــدين دغـــرى

مـــا تقــول يا وابور رايح على فين

صــــوتك يدوى وأنت بتـــدوى

والبـــــعــــــد أليم ناره بتكوى

والأرض بســـــاط وأنت بتطوى

مـــا تقــول يا وابور رايح على فين

قــربت غــريب وبعــدت قــريب

وجمعت حبيب على شمل حبيب

والقــرب نحـيب والبـعـد نصـيب

مـــا تقــول يا وابور رايح على فين

إن طال الوقت على الركـــــاب

يجرى كـلامـهم فى سؤال وجـواب

بعــد شــوية يبــقــوا أحـــبــاب

وده يعـــــرف ده رايح على فين

أنا رحت مـعـاك ورجـعت مـعـاك

وأنا إيه كـــان مــقــســوم لى وياك

دى كــــانت نظرة من هنا لهناك

والعين عـــرفت رايحين على فين

انسى الدنيا

تأليف: مأمون الشناى

انسى الدنيا وريح بالك
واوعى تفكر فى اللى جرالك

ياللى دموعك لحبايبك
قل لى ابتسامتك تبقى لمين

أوعى الغرام يشغل قلبك
ده لسه فيه فى العمر سنين

مين الهنا يبقى قصاده
وتشغله عنه همومه

عاشق الليل وسواده
فايت لمين عشق نجومه

ليه تشغل بالك
مين يرحم حالك

كل اللى أحبه حواليه
مين زيى فى الدنيا اتهنى

حتى النجوم ملك إيديه
أدى النعيم وادى الجنة

دوق الجمال واتمتع بيه
من قبل ما يدبل ويزول

واوع يفوت يوم تحزن فيه
واسهر ده بكره النوم حايطول

ليه تشغل بالك
مين برحم حالك

إجرى إجرى

كلمات: حسين السيد

إجــــرى إجــــرى

ودينــى قــــــوام وصـلـنـى

وصـلـنـى قـــــوام وصـلـنـى

داحـــبـــيب الروح مـــــتنى

يا طيـــر يارايح خـــدنى مـــعـــاك

هاتلى جناح وأنا أطيـــــر وياك

بايت مــــهنى صـــابح تغنى

طاير مع المحـــبـــوب يا هناك

يا ريتنى زيك مـــتــــهنى

إجــــرى . . إجــــرى

الفــجــر قــام صــحــا النعـــســان

نور وخــــلا الكون فـــرحـــان

الشـمس طلعت نامت وصـحـيت

وأنا اللى طول الليل ســـهـــران

مش لاقى حــــــد يـوصـلـنى

إجــــرى . . إجــــرى

لى حـــبـــيب أتمنى رضـــاه

عــــاهدته أنى عـــيش وياه

فى يوم منايا ســـاعــــة هنايا

خـــدونى منه وقلبى مـــعـــاه

الله يجـــازى اللى ظلمنى

إجــــرى . . إجــــرى

لا تكذبى

تأليف: كامل الشناوى

لا تكذبى . .

إنى رأَيتُكُما معًا

ودعى البكاءَ

فقد كرِهْتُ الأَدْمُعا

ما أهونَ الدمعَ الجسورَ إذا جرى

من عي كاذبةٍ

فأنكر وادَّعَى !!

***

إنى رأيتكُما

إنى سمعتكما

عيناكِ فى عينهِ

فى شفتيهِ

فى كفَّيهِ

فى قدميهِ

ويداكِ ضارعتانِ

ترتعِشانِ من لَهَفٍ عَلَيْهِ !!

***

تتحَدَّيانِ الشوقَ بالقُبُلاتِ

تَلْذَعُنى بسوطٍ من لهيبٍ !!

بالهمسِ ، بالآهاتِ ، بالنظراتِ ،

باللَّفَتَاتِ ، بالصَّمْتِ الرهيب !!

وَشُبَّ في قلبي حريقْ
ويضيعُ مِنْ قَدَمي الطريقْ
وتُطِلُّ مِنْ رأسي الظنونُ تلومني
وتَشُدُّ أُذْني !!
فَلَطالما بارَكْتُ كِذْبَكِ كُلَّهُ
ولَعنت ظَنِّي !!

***

ماذا أقولُ لأدْمُعٍ سَفَحَتْها أشواقي إليكِ ؟
ماذا أقولُ لأَضْلَعٍ مَزَّقْتُها خوفًا عليكِ ؟
أأقولُ هَانَتْ ؟
أأقولُ خانَتْ ؟
أأقولها ؟
لوْ قُلْتها أَشْفِي غَليلي !!
يا ولتي . .
لا ، لَنْ أقولَ أنا ، فقولي . .

***

لا تَخْجَلي
لا تَفْزَعِي مِنِّي
فَلَسْتُ بِثائرٍ . . !!

***

أنقذتني
من زيف أحلامي وغدر مشاعري !!
فَرأيتُ أنَّكِ كُنْت لي قَيْداً
حَرَصْتُ العُمْرَ ألاَّ أَكْسَرَهْ
فَكَسَرْتِه !

أغنية الليل

تأليف: جبران خليل جبران

سكَن اللّيل، وفي ثوْبِ السكون   تختبي، الأحلامْ
وسعى البَدرُ، وللبدرِ عُيُون   ترصدُ الأيّامْ

*

فتعالي، يا ابنةَ الحقل، نزوُر   كرمة العُشّاقْ
علّنا نطفي بذيّاك العصير   حرْقَةَ الأشواقْ

*

اسمعي البُلبُل ما بَينَ الحُقول   يسكبُ الألحانْ
في فَضاء نفخَت فيه التّلول   نَسمة الرّيحانْ

*

لا تخافي، يا فَتاتي، فالنَجومِ   تكتمُ الأخبارْ
وضبَاب اللّيل في تلك الكُرُوم   يحجبُ الأسرارْ

*

لا تخافي، فعروس الجنّ في   كهفِها المسحورْ
هجَعَتْ سكرَى وكادَتْ تختَفي   عن عيون الحورْ

*

ومليكُ الجنّ إن مرَّ يَرُوحْ   والهَوَى يَثنيه
فهوَ مثلي عاشِقٌ كيف يَبوحْ   بالذي يضنيه !

النهر الخالد

تأليف: محمود حسن إسماعيل

مُسافرٌ زادُه الخَيالُ والسحرُ والعطرُ والظلالُ
ظمآنُ والكأسُ فى يَديهِ والحبُّ والفنُّ والجَمالُ
شابتْ على أرضِه الليالى وضيعتْ عُمرَها الجِبال

ولم يزلْ ينشدُ الديارا
ويسألُ الليلَ والنَّهارا
والناسُ فى حبِّه سُكارى

هامُوا على أفقِه الرحيبِ آه على سِرِّك الرهيبِ
وموجك التائه الغريب يا نيلُ يا ساحرَ العيونِ

***

يا واهبَ الخُلْدِ للزمان يا ساقىَ الحبِّ والأغانى
هات اسْقِنى ودعنى أهيمُ كالطير فى الجِنانِ
يا ليتنى موجة فاحْكى إلى لياليك ما شَجانِى

واغتدى للرياحِ جارا
واحملُ النورَ للحيارى
فإن كوانى الهوى وطاراً

كانتَ رياحُ الدُجى نصيبى آهِ على سِرك الرهيب
وموجك التائه الغريب يا نيل يا ساحرَ العُيونَ
سَمعتُ فى شطِّك الجميلِ ما قالتْ الريح للنخيلِ
يُسَبِّح الطيرُ أم يُغَنى يشرحُ الحبَّ للخميلِ
وأغصنْ تلك أمْ صبايا شَربنَ من خمرةِ الأصيلِ

وزورق بالحنين سارا
أم هذه فرحةُ العذارى
تجرى وتجرى هواكَ نارا
حملت من سحرها نصيبى آه . . . . . .

همسة حائرة

تأليف: عزيز أباظة

يا مُنيةَ النّفسِ ما نَفسى بِنَاجيةٍ
وَقد عصفت بِهَا نأياً وهِجْرانَا
أَضْنيتِ أَسْوانَ ما ترقى مَدامعُهُ
وهِجت فوق حَشَايَا السُّهد حيْرانا
يَبيتُ يُودعُ سَمعَ الليلِ عاطفةً
ضَاقَ النَّهارُ بها سترا وكِتْمانا
هل تذكرين بشط النيل مجلسنا
نشكو هوانا فنغنى فى شكوانا
تنسابُ فى همساتِ الماء أنّتنا
نشكو هوانَا فَنَفْنى فى شَكوَانا
وحولنا الليلُ يطوى فى غلائله
وتحت أعطافه نشوى ونَشْوانا
لم يشهد الرافدُ الفضىُّ قبلهما
إلفينِ ذَابَا تَباريحاً وأشْجَانَا
نكاد من بَهجةِ اللقيا ونشوتها
نَرى الدُّنا أيْكةً والدّهْرَ بُستانا
ونَحسبُ الكونَ عُشٌّ اثنين يجمعُنا
والماءُ صهباءَ والأنسام ألحانا
لم نعتنقْ والهوى يُغْرى جوانحنا
وكم تَعانقَ رُوحَانَا وقَلبانا
نفضى حياءً ونفضى عِفةً وتُقىً
إنَّ الحياء سياجَ الحبُّ مُذْكانا
ثم انْثنيا وما زال الغليلُ لظى
والوجدُ مُحتدماً والشوقُ ظَمآنا

لست أدرى

كلمات : إيليا أبو ماضى

جـــــــــئتُ لا أعـلـمُ مـن أيـنَ ولـكـنـى أتَـيـتُ
ولقـــد أبصـــرتُ قُـــدامى طريقـــاً فـــمـــشـــيتُ
وســـــأبقَى مـــــاشـــــيـــــاً إن شـــئت هذا أم أبيت
كـــيف جـــئتُ ؟ كـــيف أبصـــرت طَريقى

لـست أدرى

أنا لا أذكـــر شــيـــئـــاً من حــيـــاتى الماضـــيـــةْ
أنا لا أعلمُ شـــيـــئـــاً من حـــيـــاتى الآتيـــةْ
لِىَ ذاتٌ غـــيـــر أنى لست أدرى مـــا هِيـــهَ
فـــمـــتى تعـــرفُ ذاتى كُنْهَ ذاتى

لـست أدرى

أين ضِـــحكى وبكائى وأنا طفلٌ صـــغـــيـــرْ
أين جـــهلى ومـــراحى وأنا غضٌ غَـــرِيرْ
أين أحـــلامى وكـــانت كـــيفـــمـــا سِـــرتُ أســـيـــر
كلهـــا ضـــاعتْ ولكن كـــيف ضـــاعتْ



فى الليل لما خلى

كلمات : أحمد شوقى

فى الليل لَما خِلى   إلاّ من الباكى
والنُّوحْ على الدوحْ حِلى   للصامت الشاكى
ما تعرف المبتلِى   فى الروض ، من الحَاكى !

***

سُكون ، ووحشةْ ، وظلمةْ   وليلْ ما لُوشْ آخر
ونجمةْ مالتْ ، ونجمةْ   حلفتْ ما تتاخِر
دَا النوم ياليل نعمةْ   يحلَم بها الساهر

***

الفجر شَأشأ وفَاض   على سَوادِ الخَميلةْ
لمعْ كلمحْ البيضا   من العيونِ الحكيلةْ
والليل سَرحْ فى الرياض   أدهم بغُرَّة جميلة

***

هنا نواح ع الغصون   وهناك بُكا فى المضاجع
ودُوح غرق فى الشجون   ودُوح ما شافش المواجع

***

يا ليل ، أنينى سمعته   والشُّوق رِجْع لى وعَادْ
وكل جرح وَسَّعْتُهْ   وكل جرح بميعاد
كم من مفارِق وديعتُه   ونضوِ نَجْر وبعاد !!

***



الحلوة

كلمات: مرسي جميل عزيز - ألحان: كمال الطويل

الحلوه . . الحلوه . . الحلوه

برموشها السودة الحلوه

شغلتنى . . خدتنى . . نادتنى

ودتنى بعيد . . وجابتنى

والشوق . . الشوق غلبنى

الشوق كان هيدوبنى

لولا ضحكتها الحلوه . .

وعدتنى بحاجات حلوه . .

الحلوه عنيك . . يا حبيبى

***

فى عيونك سهرت لياليّه وطالت أيامى

وفى ضل رموشك وشفايفك غنت أحلامى

وعشانك صحيت أفراحى ورقصت قدامى

وشبابى لقيته فى شبابك ولقيت روحى

سهرانة بترقص على بابك يا حياة روحى

والشوق . . الشوق غلبنى

الشوق . . كان هيدوبنى

لولا ضحكتها الحلوه . .

وعدتنى بحاجات حلوه . .

الحلوة عنيك . . . يا حبيبى

***

باليوم والساعة والثانيه . .

أنا فاكر . . فاكر يا حبيبى . .

أول مرة قابلتك فيها . .

أول كلمة ناديتلك بيها

أول مرة أقول يا حبيبى

يا حبيبى وحاسس معانيها

فى عنيك حسيت بالحب وعرفت بييجى منين

وإزاى بيدفى القلب وإزاى بيصحى العين

وشبابى لقيته فى شبابك ولقيت روحى

سهرانة بترقص على بابك يا حياة روحى

والشوق . . غلبنى . . كان هيدوبنى

لولا ضحكتها الحلوة وعدتنى حاجات حلوة

الحلوة عنيك يا حبيبى



كفايه نورك عليه

كلمات: مأمون الشناوى - ألحان: كمال الطويل

كفاية نورك عليه   نـور لـى روحـى وقـلـبـى
خلانى شفت بعنيه   اللى انكتب لى فى حـبك
قريت على ضيك . .   كلام جميل زيك

***

إزاى قابلتك وازاى عرفتك . . وفين وإمتى ؟
نسيت زمانى ونسيت مكانى . . وفاكرك أنت
نسيتنى همى . . نسيتنى اسمى
عملت إيه إنت فيه
كفاية نورك عليه . .   نـور لـى روحـى وقـلـبـى
خلانى شفت بعنيه   اللى انكتب لى فى حـبك

***

إن كان ده حلم ده يبقى جميل   خلينى احلم بيـه على طول
بـلاش تـصـحـينى   وتـصـحى أوهـامى
سـيـبنى يا نور عـينى   عـايش فى أحـلامى
والعمـر ليله . . حلوه وجمـيله   لقـيـتـهـا فى الليلة دى . .
كـفـايه نورك عليـه   نـور لـى روحـى وقـلـبـى
خـلانى شـفت بعنيـه   اللى انكتب لى فى حـبك

الحرية

كلمات: مأمون الشناوى - ألحان: محمد الموجى

من زمـــان والشـــوق   تعب بينهـــا وبينى
من زمـــان وأنا أقـــول   أشـــوفـهـــا يوم بعـــينى
ولما نادت عـليـــــه   عرفتها وقلت هيه .. الحرية

***

كـــان أول صـــبح جـــميل   يطلع على شط النيل
من بعـــد مـــا طال الليل   فى عـــذاب وظلم طويل
قـــمنا وثرنا واتحـــررنا   من اللى أســـرنا
هل علينا بالحـــرية   فـــجـــر ٢٣ يوليـــه

***

الحرية اللى اتمنيتها عمر طويل   يا ما بروحى ودمى ناديتــهـا
جـــيل ورا جـــيل
بعد غيابها فتحت بابها   على نورها .. نور الحـــرية
على كل الأمـــة العـــربيـــة

***

حريتنا من ثورتنا كان يومها   بداية نهـــضـــتنا
ورفـــعنا راية وحـــدتنا   وجـمعنا على الخير أمتنا
كل ما تكبر خيرها بيكتر   أكـــتـــر واكـــتـــر
شـــفنا الحـــرية ، وعـــشناها   بعـــد مـــا كنا بنتـــمناها
من زمـــان الشـــوق   تعب بينهـــا وبينى
من زمـــان وأنا أقـــول   أشـــوفـهـــا يوم بعـــينى
ولما نادت عـليـــــه   عرفتها وقلت هيه .. الحرية

***

ذات ليلة

كلمات: مرسى جميل عزيز - ألحان: كمال الطويل

ذات ليلة أنا والأوراق والأقلام كنا فى عناق
نقطع الأزمان والأبعاد وثبا فى اشتياق
والنهايات السعيدة لم تكن عنى بيعدة

***

ذات ليلة هبت الريح وهزت فى عناد بابى
أطفأت أمن حياتى . . أطفأت مصباحى
لم أجد نارا لدى . . لم أجد فى البيت شىء
غير أم هى لا تملك إلا الدعوات
وأب لم يبق غيرى للسنين الباقيات
والنهايات السعيدة . . أصبحت عنى بعيدة

***

ذات ليلة وأنا رهن الظنون المجدبة
دقت الباب قلوب طيبة
قالت انهض وتقدم لا تبالى
من الليالى وتصاريف الليالى
سوف نمحو عن لياليك الحزن
سوف ننجو بك من كيد الزمن
قم فباب العلم رحب فى انتظارك
قم وشارك وابنى بالعلم الوطن
سألت من أين هذا الشعاع
قالت الأقدار من قلب شجاع
صوب الدفة واقتاد الشراع
ينقذ الآمال من بحر الضياع
إنه قلب جمال .
إنه حب جمال .

موعود

كلمات محمد حمزة - ألحان: بليغ حمدى

مـــوعـــود مـــعـــايا بالعـــذاب مـــوعـــود يـا قـلـبـى

مـــوعـــود ودايما بالجـــراح مـــوعـــود يـا قـلـبـى

ولا بتـــهـــدا وا بتـــرتاح فى يوم يـا قـلـبـى

وعمرك ما شفت معايا فرح كل مرة ترجع المشوار بجرح

والنهاردة جاى تقول لى أنسى الآهات

جاى تقول لى يا للا بينا الحب فات

ومـــيل وحـــدف منديله كـــاتب على طرفـــه أجـــيله

وأمـــانة يا دنيـــا أمـــانة تاخـــدينا للفـــرحـــة أمـــانة

وتخلى الحـــزن بعـــيـــد عنا وتقـــولى للحب اســـتنى

***

تانى حنروح للحب تانى للـنـار والعـــــذاب

تانى حنروح للحـــيـــرة تانى ونضـــيع ونجـــرى ورا الأمـــانى

ويغيب القمر ونعيش السهر وآهات الألم فى ليـــالى الندم

يا ليل آه يا ليل يا حضن السهارى

خلى فـــجـــر الحب يطلع بدرى يملا مـــشـــوارنا الجـــديد

وأمـــانة يا دنيـــا أمـــانة تاخـــدينا للفـــرحـــة أمـــانة

وتخلى الحـــزن بعـــيـــدنا عنا وتقـــولى للحب اســـتنى

***

وابتـــدا ابتـــدا المشـــوار آه يا خـــوفى من آخـــر المشـــوار

جنه والا نار آه يا عـــيـــنى رايح وأنا مـحـتـار آه يا خـوفى

اتقابلنا والحياة قدام عنينا حلوة

اتقابلنا والكام فوق الشفايف غنوة

كل حاجة فكرت فيها   في لحظة واحدة ردت عليها
بنظرة حلوة من عينها
الأمان في عنيها   حسيت إني عديت للأمان
والحنان خد مني وادفي يا اللي   محروم من الحنان
القمر طلع والخوف بعد   والهوى دفي والليل سمع
أمانة يا دنيا أمانة   تاخدينا للفرحة أمانة
وتخلي الحزن بعيدنا عنا   وتقولي للحب استنى

***

شوف بقينا فين يا قلبي   وهي راحت فين ياقلبي
شوف خدتنا لفين   وشوف سابتنا فين
في سكة زمان راجعين   في نفس المكان ضايعين
لا جراحنا بتهدي ياقلبي   ولا ننسى اللي كان يا قلبي
بتصحي الطريق خطاوينا   وأنين السنين
والسما بتبكي ليالينا   والناي الحزين
حتى نجوم ليالينا
وتاني . تاني . تاني راجعين أنا وانت تاني   والقمر غايبين
للنار والعذاب من تاني
ويغيب القمر ونعيش السهر وآهات الألم في ليالي الندم
وأمانة يا دنيا أمانة   تاخدينا للفرحة أمانة
وتخلي الحزن بعيد عنا   ولا نستناه ولا يستنانا أمانة

***

على طول الحياة

كلمات: مرسى جميل عزيز - ألحان بليغ حمدى

نقابل ناس ونعرف ناس ونرتاح ويا ناس عن ناس

وبيدور الزمن بينا يغير لون ليالينا

وبنتوه بين الزحام والناس

ويمكن ننسى كل الناس

ولا ننسى حبايبنا . . أعز الناس

سنين بتفوت وتدور ما نحس بوجودها ولا وجودنا

ولحظة حب عشناها نعيش العمر تسعدنا

ومين ينسى ومين يقدر فى يوم ينسى

شعاع أول شرارة حب

ونظرة من بعيد لبعيد تقول حبيت

ورمش يقول غلبنى الحب

ومين ينسى ومين يقدر فى يوم ينسى

ليالى الشوق ولا نارها

وحلاوتها ولا أول سلام بالإيد ولا المواعيد ولهفتها

ومين يقدر فى يوم ينسى أعز الناس حبايبنا

حبيب قلبى وروح قلبى حياة قلبى

يا كل الناس يا أغلى الناس يا أحلى الناس

لسه مشوار الحياة شايل لنا وقفات

معالم فى طريق الحب أحلى كتير من اللى فات

قارئة الفنجان

كلمات: نزار قبانى - ألحان: محمد الموجى

جلست والخـــوف بعـــينيـــهـــا . .
تتــــأمل فنجـــانى المقلوب
قـــــالت يا ولدى لا تحـــزن . .
فـــالحب عليك هو المكتـــوب
يا ولدى قـــد مـــات شـــهـــيـــدا . .
من مـــات فـــداء للمـــحـــبـــوب

***

بصـــرت ونجـــمت كـــثـــيـــرا لكنى . .
لم أقـرأ أبدا فنجـانا يشـبـه فنجـانك
بصـــرت ونجـــمت كـــثـــيـــرا لكنى
لم أعـرف أبدا أحـزانا تشـبـه أحـزانك
مقدورك أن تمضى أبدا فى بحر الحب بغير قلوع
وتكون حياتك طول العمر كتاب دموع
مقدورك أن تبقى مسجونا بين الماء وبين النار
فـــبـــرغم جـــمـــيع حـــرائقـــه . .
وبرغم جـــمـــيع ســـوابقـــه
وبرغم الحـزن السـاكن فـينا ليل نهـار
وبرغم الريح وبرغم الجو الماطر والإعـصـار
فـالحب سـيـبقى يا ولدى أحلى الأقـدار

***

بحـــــيــــاتك يا ولدى امـــــرأة . .
عـــيناها ســـبـــحـــان المعـــبـــود
فـــمــــهـــا مـــرســـوم كـــالعنقـــود
ضـــحكتـــهـــا أنغـــام وورود

والشعر الغجرى المجنون ..
يسافر فى كل الدنيا
قد تغدو امرأة يا ولدى ..
يهواها القلب هى الدنيا
لكن سماءك ممطرة ..
وطريقك مسدود مسدود
فحبيبة قلبك يا ولدى
نائمة فى قصر مرصود
من يدخل حجرتها .. من يطلب يدها
من يدنو من سور حديقتها
من حاول فك ضفائرها يا ولدى
مفقود مفقود مفقود

***

ستفتش عنها يا ولدى فى كل مكان
وستسأل عنها موج البحر
وتسأل فيروز الشطآن
وتجوب بحارا وبحارا ..
وتفيض دموعك أنهارا
وسيكبر حزنك حتى يصبح أشجارا
وسترجع يوما يا ولدى ..
مهزوما مكسور الوجدان
وستعرف بعد رحيل العمر ..
بأنك كنت تطارد خيط دخان
فحبيبة قلبك يا ولدى ليس لها ..
أرض أو وطن أو عنوان
ما أصعب أن تهوى امرأة
يا ولدى ليس لها عنوان

أحبك

كلمات: مرسى جميل عزيز - ألحان: محمد الموجى

كلمة بقى لها أيام وليالى تدوِّب فيَّه
عايزة تروح لك وانت بعيدة عليّه
الكلمة اللى أنا عايش بيها راح أدوِّب كل
الشوق فيها
وحا أقولها وأعيدها وأغنيها
هاقول أحبك وأعيش أحبك يا حياة قلبى

***

يا عنيه يا قلبى جرى إيه
الدنيا احلوّت كده ليه
يا صحابى يا أهلى يا جيرانى
أنا عايز آخدكم فى أحضانى
مش قادر على فرحة قلبى
مش قادر أبدا يا حبايبى
دى الكلمة اللى أنا عايش بيها
راح أدوب كل الشوق فيها
وحاقولها وأعيدها وأغنيها
ها قول أحبك وأعيش أحبك يا حياة قلبى

***

باحبها وفى قلبى ساكن حبها
ياريت يا شوق توصل لها
ويحس بيه قلبها
بكره خلاص هاقول لها

روحى لهـــــــا عــــــــــقلى لهــــــــا
وحـــــــاقـــــــول لهــــــــا هيـــــــا الهنا
هـــــى المـــــــــنـــــــى كـــــــل المـــــــنــــــى
هـى حـــــــــيـــــــــاتى كـلـهـــــــــــا
ها أقــــــول أحـــــــبك وأعـــــــيش أحـــــبك
يا حياة قلبى

***

مين أنا

كلمات: محمد حمزة - ألحان: محمد الموجى

مين أنا عـــــايز أعـــــرف ... لـيـــــــــــــــه أنــا
اخـتـــارت الدنيـــا الميـــعـــاد ... واخـتـــاروا اسـمى فى الميـــلاد
لا كــــــــان بإيدى بدايتى ... ولا بإيدى نهـــايتى .. مين أنا
تتــــوه عنيـــه حـــواليـــه ... تشـــوف الدنيـــا مش هيـــه
بتـــــــتلون بأحـــــــزانى ... ويبـــــقى لونهـــا لون تانى
لا شــــايف ضى مع فـــجــرى ... ولا بســمــة فى طريق عـمــرى
عـــــايز أعـــــرف .. مين أنا

نجـومى فى ليلى ضى حـزين ... ورودى شــــايفــــهم دبلانين
وضـــاعت كل أحـــلام السنين ... يا هل ترى أنا اللى اتغيرت يا دنيا
والا انت بقيتى حاجة تانية ... عـــــايز أعـــــرف .. مين أنا



بيع قلبك

كلمات: حسين السيد - ألحان: كمال الطويل

بيع قلبك بيع ودك ... شوف الشارى مين
شوف عهدى مين بعدى ... هايصونهولك مين
العهد اللى رعاك والقلب ... اللى فداك أيامه عمرها بسنين

***

قبل ما تنسى العهد الغالى ... فكر ليلة وهات لياليه
شوف مين غيرنا قضى ليالى ... عايشه بعمر شبابه فيه
هاتلاقى خطوة قلبى ... وقلبك مستنيه هناك
شايلالى كلمة فضلت ... منك لما كنت معاك
واعمل إيه قوللى يا قلبى ... فاكرنى بهجرك أعمل إيه
بتقول نارى تعبت قلبك ... مش دى النار اللى كان حبك
طاير فى جنتها وسارح
ليه دلوقت تبعد عنها ليه ... دلوقت بتهرب منها
ما هو النهارده زى امبارح
اهجر على كيفك وإنسانى ... مسير الأيام تجيبك تانى
واعمل إيه قوللى يا للى ... فاكرنى بهجرك اعمل إيه

***

أنا يسعدنى تبعد عنى ... وتجرب غيرى فى هواك
شوف مين حبه اكتر منى ... لو شاف اللى أنا شفته معاك
ابنى آماله وهدها ... وأحسب دموعه وعدها
وتعالى قول لى بعدها ... هو حبيبك والا أنا
واعمل إيه قول لى يا اللى ... فاكرنى بهجرك أعمل إيه



حبيب العمر

كلمات: مأمون الشناوى

حبيب العمر حبيتك
وأخلصت فى هواك عمرى
لا يوم خنتك ولا نسيتك
ولا فى يوم غبت عن فكرى
حبيب قلبى ووجدانى
ما ليش غيرك حبيب تانى

حبيب العمر

فتحت عينىّ من صغرى
على حبك وكان قاسى
سقتنى كاس هواك بدرى
أسر فكرى وإحساسى
وفرحنى وبكانى
حبيب قلبى ووجدانى

حبيب العمر

أشوف بعيونك الدنيا
وأغنى الحب بلسانى
حياتى معاك حياة تانية
وأهيم وأسبح فى أحضانك
يهنينى ويرعانى
حبيب قلبى ووجدانى
ماليش غيرك حبيبب تانى
حبيب العمر

***



* كل أغنيات فريد الأطرش من تلحينه مثله فى ذلك مثل الموسيقار محمد عبد الوهاب .

قدام عينى

كلمات: عبد العزيز سلام

قـــدام عـــينىّ وبعـــيـــد علىّ   مـــقـــســـوم لغـــيـــرى وهو لىّ
قـــدام عـــينىّ وقلبى مـــعـــاه   وقـلبـــــــــه بـادلـنـى هـواه
وروحى جنبه ومش طيلاه
واللّى حـــرمنى من دنيـــا حـــبـــه   ظلمـــه وظلمنى اكـــمنه بحـــبـــه
وأنا وحـــبـــيـــبى اتنين ضـــحـــيـــة   مـــقـــســـوم لغـــيـــرى وهو لىّ
قدام عينىّ وبعيد علىّ
كـــانت ليـــالى . . مـــرت وراحت   وعـــهـــد غـــالى . . أحـــلام وضـــاعت
لا قلب يعطف عـــالعـــاشـــقين   ولا حـــد ينصف العـــاشـــقين
ولا إمـــتى اصـــبـــر على الأســـيـــة   مـــقـــســـوم لغـــيـــرى وهو لىّ
قدام عينىّ وبعيد علىّ
طوينـا شـــــوقـنـا بـين الـضـلـوع   وبنار فـــراقنا قـــادوا الشـــمـــوع
ما فضلش لينا غير الدموع
والـفـكـر يـســـــــرح ويـا بـكـانـا   وغـــيـــرنا يفـــرح لى ليل أســـانا
مـــــا هـوش بـإيـده ولا بـإيـدىّ   مـــقـــســـوم لغـــيـــرى وهو لىّ
قدام عينىّ وبعيد علىّ



الحياة حلوة

كلمات: محمد حمزة

الحـــيـــاة حلوة بس نفـــهـــمــــهـــا

الحــيــاة غنوة مـــحـــلا أنغـــامـــهـــا

ارقـــصـــوا وغنوا وانســـو همـــومـــهـــا

دى الحــــــيــــــاة حـلـوة . . .

***

الحـــيـــاة وردة للّى يرعـــاها — والحـيـاة مـرّة وحـدة نحـيـاها

فـوزوا بمتـعـهـا وانسـوا أوجـاعـهـا — ليـه نضيـعـهـا دى الحيـاة حلوة

***

الحـيـاة تضـحـك للّى يتـبـسم — ولّى بيكشـــر دى للّى يتـــألم

دى الحيـاة جنة عيـشـهـا وتهنى — وأوعى تستنى دى الحـيـاة حلوة

***

الطيـــــور غنت غنى ديارها — عـلاغـصـون حنت للأليف جـاه

هى أحـبـابك ود أصـحـابك — وارضى بما نالك الحـــيـــاة حلوة



إن حبيتنى أحبك أكتر

كلمات: عبد العزيز سلام

إن حـــبـــيـــتنى أحـــبك أكـــتـــر — إن مليـــــتنى راح أنسى هواك

كل مــا تتــغــيــر حــتــغــيــر — وحــــأكــــون ديماً كـــدة وياك

ان حـــبـــيــــتنى وصنت هواى — رح أشــــيلك فى رمــــوش العين

وأخلصك طول مــانت مــعــايا — وحنبــقى أســعــد حــبــيــبين

إن ملتنى ولا جافتنى

راح أقـــــولـك فـى الأول فـكـر — قــبل مـــا تنســـانى وأنســـاك

وان حبيتنى أحبك أكتر

أنت حــيــاتى وروحى ووجــدانى — الدنيـــا تهنالى فى قـــربك

لكن لو ترضى بحــــرمـــــانى — راح اضــحكى بهنايا فى حــبك

وانسى غرامك مع أيامك

وســاعــتــهــا قلبك حــيــتــحــيــر — وحــتندم على كــتــر جــفــاك

وإن حبيتنى أحبك أكتر

علشــان نفــسى غــاليــة عليــه — بتـــــحب اللّى يحب هناها

لو ترعــــيـــــهـــــا . . بالحنيـــة — تبـــقى نعم الدنيــا مــعـــاها

وان كان حبك راح من قلبك

رح تــرجــع عــلــى قــلــبــى تــدور — مش حــتــلاقى الحب مــعــاك

وإن حبيتنى أحبك أكتر

الربيع
كلمات: مأمون الشناوى

آدى الربيع عـاد من تانى والبـــــدر هلت أنواره
وفين حبيبى اللّى رمانى مـن جـنـة الحب لـنـاره
أيام رضـــاك يا زمـــانى هاتهـا وخـد عـمـرى
واللّى رعـيـتـه رمـانى فـاتنى وشـغل فكرى
كـان النسـيم عنوة النيل يغنيـهـا
ومـيـتـه الحلوة تفـضل تعـيد فـيـها
وموجه الهادى كان عوده ونور البــدر أوتاره
يلاغى الورد وخـدوده يناجى الليل وأسـراره
وأنغـامـه بتـسكرنا أنا وهو مـفـيش غـيـرنا
لمين بتـضـحك يا طيف ليـاليك وأيامك
كان لى فى عـهدك أليف عـاهدنى قـدامك
من يوم مـا فـاتنى وراح شـدو البـلابل نواح

والورد لون الجراح

***

مـر الخـريف بعـده دبل زهـور الـغـرام
والدنيـا من بعـده هـوان ويـأس وآلام
لا القـلب ينسى هواه ولاحـبـيـبى يرحـمنى
وآدى الشتـا يطول لياليه على اللى فاته حبيبه
يناجى طيفـه ويناجيـه ويشكى للكون تعـذيبه
يا ليل يا بدر يا نسـمـة يا طير يا زهر يا أغـصان

هاتولى من الحبيب كلمة — تواسى العاشق الحيران
الهوى منى — وفات لى شوكه يألمنى
معرفش إيه ذنبى غير إنى — فى حبى أخلصت من قلبى
وغاب عنى لا كلمنى — ولا قال أمتى راح أشوفه
وأقوله يمكن حيرحمنى — ويبعت فى الربيع طيفه

المارد العربى

كلمات: مأمون الشناوى

المارد العربى — فى العالم العربى
وطنه فى كل مكان — فى دجلة فى عمان
فى مصر وفى لبنان — والمغرب العربى

المارد العربى

هو صدى الجماهير — لشعوب وطنها كبير
اليوم نبنى مصير — فى عصرنا الذهبى

المارد العربى

شق طريق الليل بكفاحه — خلا الفجر يطل عليه
شبك النور على طرف جناحه — خلا الفجر يطل عليه
غير المجد مساه وصباحه — ومشى النصر يحوم حواليه
راح أغنى طول الليل — وأشرح لك نار الليل
ده الليل من بعدك ويل — وفؤادى دمعة يسيل

يبكى معايا ويقول

عينى بتضحك

كلمات: مأمون الشناوى

عـينى بتـضـحك وقلبى بيـبكى وإيه بس آخـرة بكايا وضـحكى

يا ناس ارحـمونى ومتـجنوش عليّ وغـصب عنى رضـيت بالأسـية

وفـاضت دمـوعى بنار فى ضلوعى وإيه بس آخـرة بكايا وضـحكى

عـينى بتـضـحك وقلبى بيـبكى فى عـز الشـبـاب فـقـد القـريب

وقـلبى يبكى وضـحـيت وزادت جـروحـى

وإيه بس آخـرة بكايا وضـحكى عـينى بتـضـحك وقلبى بيـبكى

***

رمـانى سـقـانى مـوالى كـاس وأنا أسـقى حنانى لغـيـرى وآسى

وأسـايـر ودادى وأغـالـط فـؤادى

وإيه آخرة بكايا وضحكى

وأنا صـاحى لصـاحـبى وعنيـه مع السـهـرانين

يرضيك يا حبيبى

***



وحدانى

كلمات: محمود إبراهيم

وحدانى حعيش كده وحدانى
بعد اللّى فاتونى لأشجانى
وحدانى حعيش غصب عنى
أنا كنت بحب ومتهنى
الغالى يهون
وإزاى الأيام
وحعيش إزاى من غير سلوى
ما قدرش يا قلبى الروح حلوة
وأنا لسه شباب
ونسونى الأسى وأحزانى
ما بقتش خلاص أنا وحدانى
خلينا نقول كل ما نهواه

ولا أقول يا غرام أبداً تانى
يحرم على قلبى وجدانى
وخلاص . أنا حنسى اللّى جرالى
ولا كنش يخطر على بالى
وحبيبى يخون
تخلف ظنى
من غير إحساس وأبيع روحى
فى الحب حعيش وأنسى جروحى
ولقيت أحباب
ومدام خيالى خلانى
وحدانى إزاى أنا وحدانى
مين يعرف



أضنيتنى بالهجر

شعر: الأخطل الصغير

أضنتنى بالهجر … ما أظلمك

فارحم عسى … الرحمن أن يرحمك

مولاى حكمتك فى مهجتى … فارفق بها يأتيك من حكمك

ما كان أحلى قبلات اللذا … إن كنت لا تذكر فاسأل فمك

تمر بى كأننى لم أكن ثغرك … أو صدرك .. أو معصمك

لو مر سيف بيننا لم نكن … نعلم هل أجرى دمى أم دمك

سل الدجى كم راقنى نجمة … لما حكى مبسمه مبسمك

يا بدر إن واصلتنى بالجفا … ومت فى شرح الصبا مغرمك

كل الدجا مات شهيد الوفا … فانثر على أجفانه أنجمك

***



سنة وسنتين

كلمات: مأمون الشناوى

سنة وسنتين . سنة وسنتين وانت يا قلبى تقول أنا فين
ودبت وتهت فى أشواقك وشفت النيل وعرفت أنا فين

يا مصر . . يا عمرى . . يا نور العين

عالشطين أنا شفت أحبابى واخواتى وأهلى وأصحابى
وهواكى والنخل العالى ونجومها فى الليل بتلالى
بكيت من الفرح وطاب الجرح غنى يا قلبى اتهنى يا عينى

يا مصر . . يا عمرى . . يا نور العين

من الأهرام . . للسد العالى بلدى . . بلدى المجد الغالى
قلبى ندالك حن وجالك غنالك مواويل وليالى

يا مصر . . يا عمرى . . يا نور العين

أفدى جمالك وأفدى رمالك وبأروحنا ما نوفى الدين
أسهرى يا عيونى ولا تنامى أهى راجعة أهى راجعة أحلى أيامى
يا مصر يا أم الدنيا وبحب عشانها الدنيا
ما غابتش عنى ثانية نايم صاحى قدامى
الوطن العربى بلادى أمى وأبوى وأجدادى
بحياتى أغنى وأناديه وأنت حبى والهامى
قلب الأمة العربية بلد النور والحرية
بدعيلها وردوا علىّ تحيا الأمة العربية



الفهرس



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

تليجرام

هنا سور الأزبكية

غواص في بحر الكتب

باحثون

محمد خطاب

تليجرام

هنا

سور الأزبكية



هذا الكتاب

ترى من هم عمالقة فن الأغنية والألحان خلال القرن العشرين ؟! . . إنه بلا شك سؤال مهم . . والإجابة عليه ستكون حتماً أكثر أهمية . ولو أخذنا نردد هذا السؤال ربما مرة أو لعشرات المرات . سوف تجد كل الأكف والأصابع بل والأذرع وكذلك القلوب تشير إلى أربعة فقط . . هم أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ . هؤلاء الأربعة الكبار الذين حملوا لواء الفن لأكثر من خمسين عاماً . . وما يزال تأثيرهم قائماً حتى الآن . . واسألوا فى ذلك أصحاب الذوق الرفيع فى عالم الاستماع .

الناشر



